الغُيُومُ الكاسِفَةْ

على وجه الدعوة والداعِيَةْ

ورقةٌ عِلميةٌ في التحديات المعاصرة التي تواجه الدعوة الإسلامية

وكيفيةُ مواجهتِها

يليها:

(شموعٌ دعوية)

إعداد

أحمد محمد حلمي عبده

إمام وخطيب بوزارة الأوقاف المصرية

دكتوراه في الدعوة والثقافة الإسلامية بجامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

أصل هذا العمل:

بحثٌ قُدِّمَ لهيئةِ قضايا الدولة

في مسابقة وقف المُستشار محمد شوقي الفنجري رحمه الله تعالى؛ وكان عنوانه:

(التحديات المعاصرة التي تواجه الدعوة الإسلامية وكيفية مواجهتها)

ثمَّ تمَّتْ صياغتُه مرةً أخرى مع إضافات وتقريرات وزيادات رأيتُ إلحاقَها بالأصل قبل نشره إتماماً للفائدة؛ فأسأل الله تعالى القبول.

المقدمة

الحمد لله وكفى، وصلاةٌ وسلامٌ على عباده الذين اصطفى؛ لا سيَّما عبده ورسوله وخليله محمَّدٍ بنِ عبد الله، صلى الله عليه وعلى آله صحبه المستكملين الشرفا.

أمّا بعد:

فمن أشرف الأعمال قاطبة؛ الدعوة إلى الله تعالى، فلقد قال جلَّ شأنه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ {فصلت: 33}؛ فليس قولٌ أحسنَ من قول هؤلاء، فهُمُ الأدلاء على الله تعالى، المُبيِّنين للناس أمرَه ونهيَه، وحدودَه وفرائضَه. بل وما حازت الأمَّةُ الإسلاميةُ شرفَها ولا خيْرِيَّتَها ولا تبوَّأتْ مكانتَها السامقةَ بين الأمم؛ إلا بجزئية من جزئيات العمل الدعوي؛ ألا وهي الأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر؛ فقد قال جلَّ في علاه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ {آل عمران: 110}. بل وإنها سبيلُ النبي صلى الله عليه وسلم وأتباعه؛ وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ {يوسف: 107}

فأمرٌ هذا شأنُه .. لابد من السعي في النهوض به، وهذا مما افترضه الله تعالى علينا؛ فأمَّةُ الاستجابةِ والبلاغِ مأمورةٌ بأن تبلغ دينَها ورسالتَها للعالمين. فالواجب علينا إذا؛ هو: تذليل كلِّ الصعاب التي من شأنها أن تقفَ عائقا دون الوصول إلى غايات هذا العمل الدعوي. فيُبذلُ في سبيل ذلك كلُّ غالٍ ورخيص؛ إذْ بهذا العمل نجاتُنا في الدنيا وبين يدي ربنا سبحانه وتعالى في الآخرة.

ومِن تأييد الله سبحانه وتعالى لدينِه ونصرتِه لنبيِّه صلى الله عليه وسلم ودعوتِه؛ أن قذف في قلوب أناس من المسلمين حبَّ البذل والتضحية والفداء نُصرةً لهذا الدين؛

فأوقفوا أعمارَهم وأموالَهم على ذلك في حياتهم وبعد مماتهم، فأسأل الله تعالى أن يُنزل على قبورهم شآبيبَ الرحمة والمغفرة، وأن لا يقطع عنهم فضله وإحسانه.

ثم إنه بمجرد أن أعلنت وزارة الأوقاف المصرية في إطار تعاونها مع هيئة قضايا الدولة؛ عن جائزة خدمة الدعوة والفقه الإسلامي، بموجب حُجَّة وقف المستشار الدكتور/ محمد شوقي الفنجري ـ رحمه الله ـ[1]؛ في أحد موضوعين: (**أولهما**: التحدِّيَّات المعاصرة التي تواجه الدعوة الإسلامية.. وكيفية مواجهتها. **ثانيهما**: حقوق الطفل وسبل تحقيقها في الشريعة الإسلامية). فاستعنت بالله تعالى على الكتابة في أوَّلهِما؛ وذلك لاعتبارات شتى؛ منها:

- إيماناً مني بأن قضايا الدعوة هي الأصل؛ وما سواها فرعٌ عنها.
- ولأن هذا من صميم تخصصي في دراستي الجامعية؛ مرحلة الليسانس وما تلاها.
- ولأنني من أبناء العمل الدعوي بوزارة الأوقاف المصرية؛ فكان ما كتبته هذا واقعاً ملموساً لِي ولمن شاركوني هذا العمل.

وقد جعلت البحث في قسمين بعد المقدمة والتمهيد؛ قسمٌ ذكرت فيه التحديَّات المعاصرة للعمل الدعوي، وجعلته في ثلاثة مباحث. والقسم الثاني جعلته للمواجهة وكيفيتها؛ وكان هو الآخر في ثلاثة مباحث. ثم كانت الخاتمة؛ ثم كانت شموع هي بمثابة مصابيح يستضيء بها الداعية في طريقه الذي امتلأ بتحديَّات كهذه فأسأل الله تعالى أجرها لي ولمن كان سببا في تسطيري هذه الكلمات.

(1) عَمِل رحمه الله تعالى بـ: (وكيل مجلس الدولة المصري سابقا، وأستاذ الاقتصاد الإسلامي) وللمستشار رحمه الله تعالى أبحاث علمية يبدو أن غالبها يدور في فلك الاقتصاد الإسلامي؛ فمنها: (مفهوم ومنهج الاقتصاد الإسلامي ـ وهو ضمن سلسلة دعوة الحق الصادرة عن رابطة العالم الإسلامي ـ)، (ذاتية السياسية الاقتصادية الإسلامية وأهمية الاقتصاد الإسلامي) (الوجيز في الاقتصاد الإسلامي).

ثم أقول: هذا توصيف للداء، وبيانٌ لِمَكْمنِه ومخبئه؛ ثم تحديد للدواء الذي ارتأيتُه فإن كنتُ قد وُفِّقت في تحديدهما وتوصيفهما وإظهارهما فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وإن كانت الأخرى فأسأل الله العفو والمغفرة وأن يُقيِّض لعملي هذا من يُظهر عوارَه وخللَه وأن لا يحرمني من دعوة بظهر الغيب مستجابة من أخٍ استفاد منه أو أفاد ولو بالدِلالة عليه.

ثم إلى البحث؛ سائلا الله تعالى التوفيق والسداد والرشاد، إنه خير من اعتمد عليه العباد[1].

(1) أحبُّ أن أذكر في هذه المقدمة أن بحثيَ هذا لم ينل جائزة من هذا الجوائز المرصدة لهذا الوقف العِلمي؛ ولعلَّ فيما كتبه إخواني الزملاء ممن تقدموا بأبحاثهم لهذه الجائزة الكفاية الإصابة لأهداف الموضوع ومتطلباته. **ثم إنه ولِثقتي واعتقادي بما كتبتُه ومن قبيل السعي العِلمي وسدِّ الخلل الذي قد يتعرض له الباحث العلمي في أبحاثه** تقدمتُ بطلبٍ إلى لجنة الوقف المُشار إليه آنفا لمعرفة أوجه القصور والخلل الذي لأجلها لم يكن لبحثي نصيب في الفوز فجاءني الردُّ من خلال البريد مُسجلاً بعلم الوصول؛ وكان كالتالي:

«السيد الأستاذ/ أحمد محمد حلمي عبده "إمام وخطيب ومدرس"، تحية طيبة وبعد:

فإنه بالإشارة إلى الشكوى المقدمة منكم بعدم فوز البحث المقدم لجائزة المستشار الدكتور محمد شوقي الفنجري لصالح خدمة الدعوة والفقه الإسلامي بأية جائزة. يُرجى التفضل بالإحاطة بأن البحث المقدم منكم قد أحيل إلى أستاذين جامعيين متخصصين في هذا المجال وقدما تقريرا بتقييمه مع حصوله على درجة من مائة. واللجنة العليا للجائزة تقوم بترتيب نتيجة التقييم ترتيباً تنازلياً حسب ما حصل عليه البحث من درجة وتُعلِن أسماء الفائزين الحاصلين على أعلا ـ بنصهم ولعلها: أعلى ـ الدرجات في حدود العدد المتاح للجائزة.

والبحث المقدم منكم جيد ولكن لم يصل إلى العدد المحدد للجائزة، ونأمل أن يكون لكم نصيب في الفوز بإحدى الجوائز في الأعوام المقبلة إن شاء الله مع خالص التحية والتقدير. تحريراً: 12/ 11/ 2018م.

مقرر اللجنة العليا للجائزة المستشار: سعيد عبد الوهاب الزهوي نائب رئيس الهيئة».

وقد مرتْ الأيام على هذا البحث وهو حبيس مكتبتي وأبحاثي؛ فأحببت أن أفُكَّ قيودَه وأغلاله، وأن يخرج منها دعوةً إلى الله تعالى فأعددته لذلك وكانت إضافات وتنقيحات اقتضتها الأحوال وطبيعة الحياة العِلمية والدعوية قمت بإضافتها

فأسأل الله تعالى أن يكتب لهذا البحث القبول في الدنيا والآخرة وأن يجعله خالصاً لوجه وزاداً لحُسن القدوم عليه آمين ... والله تعالى من وراء القصد.

التمهيد

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: التعريف بمفردات البحث.

من الخطوات المهمَّة في هذا البحث؛ التعريف بمفرداته، وذلك بهدف الوصول إلى ماهيَّته وحقيقته، فأقول وبالله تعالى التوفيق:

- **تعريف التحدّيات المعاصرة:**

التحديات المعاصرة: مصطلحٌ ذو شقين، ولمعرفة معناه والوقوف على حقيقته؛ لابد من التعريف بشقيه أولاً، ثم استخلاص تعريف يجمع هذين الشقين في آنٍ واحد ثانياً. وتعريفهما كالتالي:

أولاً: التحديات.

تعود الكلمة في أصلها اللغوي إلى الحدِّ؛ ففي معجم مقاييس اللغة: «(حدَّ) الحاء والدال أصلان: الأول "المنع"، والثاني "طرف الشيء". فالحدُّ الحاجز بين الشيئين. وفلان محدودٌ؛ إذا كان ممنوعا .. والمحادة: المخالفة، فكأنه الممانعةُ»[1] وفي لسان العرب: «الحدُّ: الصرف عن الشيء من الخير أو الشر»[2]، وقيل في قول الله تعالى: «﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: يمانعون؛ فذلك إما اعتبارا بالممانعة وإما باستعمال الحديد ..»[3]، والمحادة: «أن يُعطي الإنسان صاحبه حدَّ قوله أو سلاحه وسائر أفعاله. وقال قوم: هو أن يكون الإنسان في حدٍّ وصاحبه في حدٍّ

(1) معجم مقاييس اللغة لابن فارس، تحقيق د/ عبد السلام هارون. ج2 ص: (3، 4) ط: دار الفكر. 1979م.

(2) لسان العرب لابن منظور، مادة (حدد) ص: (801) ط دار المعارف بدون تاريخ.

(3) المفردات في غريب القرآن، تأليف: الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، راجعه وائل عبد الرحمن، ص: (117)، ط التوفيقية. مصر.

مخالف»[1] وقيل في معنى يُحادُّون: «يُعطون الحدَّ من الأقوال والأفعال، وقال بعض أهل المعاني: معناه يكونون في حدٍّ غير الذي شرعه الله تعالى»[2]. فمن هذه النصوص اللغوية يتبين أن التحديات لها صور مختلفة؛ تختلف باختلاف آلاتها:

ـ فتارة تكون بالأقوال.

ـ وتارة تكون بالسلاح.

ـ وأخرى ـ وهي عامة ـ تكون في ناحية ووجهة غيرِ التي أراد الله تعالى.

فلم تقتصر على صورة واحدة؛ بل صور، وهذه الصور إما أن تكون تحدّيا بوجودها أو تحدياً بعدم وجودها. ولذلك كان من أبرز التعريفات التي وقفت عليها لهذا المصطلح؛ هو:

أنها: «هي ذلك الوضع الذي يُمثِّل وجودُه أو عدمُ وجودِه؛ تهديدا أو إضعافاً أو تشويهاً جزئياً أو كلياً دائما كان أو مؤقَّتاً، لوجود وضع آخر يُراد له الثبات والقوة والاستمرار والتمكين»[3].

ألفاظٌ ذات صلة بالتحديَّات:

ونظراً لأن مصطلح التحديِّات ليس هو المصطلح الوحيد في بحث هذا الموضوع؛ فقد تنوعت عبارات العلماء والباحثين في تناولهم لهذه القضية؛ فمن هذه العبارات التي تؤدي نفس المضمون والمعنى:

(1) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، للقاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، ج5، ص: (275)، دار الكتب العلمية بيروت.

(2) مرج سابق. ص: (281).

(3) أهم التحدِّيات المعاصرة في طريق الدعوة الإسلامية؛ د/ إبراهيم نويري (جامعة الشيخ العربي التبسة ـ الجزائر)، ص: (236). مجلة الجامعة الأسمرية. ليبيا.

1 ــ معوقات وعوائق[1].

أصل الكلمة من مأخوذ من (عوق)، يُقال: «رجلٌ عوقٌ لا خير عنده، .. عاقه عن الشيء يعوقه عوقا: صرفه وحبسه، ومنه التعويق والاعتياق، وذلك إذا أراد أمرا فصرفه عنه صارف .. والتَّعوُّق: التثبُّط، والتَّعوِيق: التَّثبِيط، وفي التنزيل: ﴿ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ ﴾ والمعوقون: قوم من المنافقين كانوا يُثبِّطون أنصار النبي صلى الله عليه وسلم..»[2].

2 ــ عقبات[3].

أصل الكلمة مأخوذ من (عقب) قال ابن فارس: «العين والقاف والباء أصلان صحيحان: أحدهما يدل على تأخير شيء وإتيانه بعد غيره. والأصل الآخر يدلُّ على ارتفاع وشِدة وصعوبة»[4]. وكلمتُنا في هذا المبحث هي من مدلولات الأصل الثاني؛ إذ أن هذه العقبات تمثل ارتفاعا وشدة وصعوبة أمام الدعوة الإسلامية ودعاتها.

ثانيا: المعاصرة.

مأخوذة من العصر؛ وهو: «الدهر.. اليوم»[5]، و«العصر: الزمن؛ يُنسب إلى مَلك أو دولة أو إلى تطورات طبيعية أو اجتماعية؛ يُقال عصر الدولة العباسية وعصر

(1) وقد استخدم هذا المصطلحَ كثيرٌ من الباحثين لهذه القضية، منهم: د/ عبد الله الجباري، في بحثه المقدَّم إلى رابطة العالم الإسلامي وهو بعنوان: (الثقافة الإسلامية؛ المقوِّمات، العوائق، البدائل)، وكذلك: محمد أحمد الراشد في كتابه (العوائق) ـ ولكنه تكلم فيه غالباً عن الجانب الشخصي للداعية وما ينتابه من عوائق في دعوته ـ ط: الرسالة بيروت (1398هـ 1978م).

(2) لسان العرب لابن منظور، مادة: (عوق) ص: (3173).

(3) وقد استخدم هذا المصطلح الدكتور: عبد الله ناصح علوان، في كتابه: (عقبات في طريق الدعاة وطرق معالجتها في ضوء الإسلام)، ط: دار السلام.

(4) معجم مقاييس اللغة لابن فارس، مادة (عقب)، ج 4، ص: (77).

(5) لسان العرب؛ مادة عصر. ص: (2968).

هارون الرشيد، والعصر الحجري، وعصر البخار والكهرباء، وعصر الذرة..»[1]، ويُقال: «عاصر فلانا: عاش معه في عصر واحد»[2].

فمن خلال هذه الكلمات اللغوية عن أصل الكلمة واشتقاقاتها؛ فإنها تدل على الزمن وما يواكبه من أحداث تنسب إليه.

وعليه .. فالتحديات المعاصرة كمصطلح في هذا البحث يُقصد به حينئذ:

«هو الوضع الذي يُمثلُ وجودُه أو عدمُ وجوده في عصرنا الحاضر جهة غير الجهة التي أرادها الله تعالى».

- **الدعوة الإسلامية.**

هو من المصطلحات الرئيسة في البحث، وكسابقه .. لابد من تعريفٍ بشِقيه أولاً، ثم تعريفه كمصطلح له ما يُميزه عن غيره من العلوم ثانياً؛ فأقول:

أمَّا تعريف **الدعوة** في اللغة: فمأخوذة من الدعاء، يقال: «دعوت فلاناً، أي صِحْتُ به واستدعيته، ودعوت الله له وعليه دعاء. والدعوةُ: المَرة الواحدة»[3]، ويقال: «دَعا الرجل دعواً ودعاءً: ناداه، والاسم الدعوة .. والدعاةُ: قوم يدعون إلى بيعة هُدى أو ضلالة، واحدهم داع. ورجل داعية إذا كان يدعوا الناس إلى بدعة أو دين، أُدخلت الهاء فيه للمبالغة،..»[4]، ويقال: «دعوت الله أدعوه دعاء، ابتهلت إليه بالسؤال ورغبت فيما عنده من الخير، ودعوت زيداً ناديته وطلبت إقباله، ودعا المؤذنُ الناس إلى الصلاة فهو داعي الله، والجمع دعاة وداعون..، والنبي ـ ﷺ ـ داعي الخلق إلى

(1) المعجم الوسيط، إصدار مجمع اللغة العربية، مصر، مادة (عصر) ص: (604)، ط: مكتبة الشروق الدولية

(2) المعجم الوجيز، إصدار مجمع اللغة العربية؛ بالقاهرة، مادة: (عصر) ص: (420)، طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم، سنة 1415هـ 1994م.

(3) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية،(مادة: دعا).

(4) لسان العرب مادة (عرض).

التوحيد»[1]. فالدعوة تحمل هذه المعاني: الصياح، والاستدعاء، الابتهال، طلب الإقبال،.. إلخ.

الإسلامية: نسبة إلى الإسلام، ذلك الدين الحنيف الذي رضيه الله تعالى ديناً، وبعث به جميع أنبيائه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ {آل عمران: 19}، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ {آل عمران: 85}.

وبعد تعريف شقي الدعوة الإسلامية باختصار؛ فإن تعريفها الاصطلاحي: «هي دعوة الناس إلى الإسلام بالقول والعمل». وقيل: «تبليغ الإسلام للناس وتعريفه إياهم، وتطبيقه في واقع الحياة»[2]. وقيل هي: «الدين الذي ارتضاه الله لعباده وأنزل تعاليمه وحياً على رسوله ـ ﷺ ـ وحفظها في القرآن الكريم وبينها في السنة»[3]. ويلاحظ أن هذه التعريفات الثلاثة تجعل الدعوةَ بمعنى الدين.

ومن العلماء من عرفها تعريفاً آخر وجعلها تدور حول النشر والتبليغ؛ فقالوا في تعريفها: «هي العلم الذي به تُعرف كافة المحاولات الفنية والمتعددة الرامية إلى تبليغ الناس الإسلام بما حوى من عقيدة وشريعة وأخلاق»[4].

فنسبتها إلى الإسلام؛ نسبة تمييز وتخصيص لها عن غيرها من الدعوات.

---

(1) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، للفيومي. ص: (74) (مادة: دعا) ط: مكتبة لبنان سنة 1987م.

(2) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ـ ﷺ ـ إعداد: عبد الله بن حميد وآخرون، ص: (1945)، دار الوسيلة للنشر والتوزيع.

(3) يُنظر في هذه التعريفات وغيرها: معالم الدعوة الإسلامية، أ. د/ محمد عبد العزيز يحيى. ص: (12 ـ 16)، جامعة الأزهر بالمنوفية. تاريخ: (1416هـ/ 1995م).

(4) المرجع السابق. ص: (12 ـ 16).

- **المواجهة.**

من المفردات التي وردت في البحث؛ وكانت في جِهَتيْه؛ السلبية ـ إذ أن التحديات تواجه الدعوة الإسلامية ـ، والإيجابية ـ إذِ المطلوب مِنَّا مواجهة تلك التحديات ـ. فهي مفردةٌ في هذا المبحث لها دِلالاتُها، لذلك كان من الضروري الوقوفُ على معناها.

فأصل الكلمة كما يقول ابن فارس: «الواو والجيم والهاء: أصل واحد يدل على مقابلةٍ لشيء، والوجه مستقبِلٌ لكلِّ شيء»[1]، وفي لسان العرب: «المواجهة: المقابلة، والمواجهة: استقبالك الرجل بكلامٍ أو وجهٍ .. والتوجه: الإقبال والانهزام»[2].

وبعد هذه التعريفات المتعلقة بمفردات البحث؛ يظهر وبكل وضوح أنه بحثٌ يتناول تلك الأوضاع أو الحواجز التي تقف في وجه الدعوة الإسلامية وصدِّها عن الوصول إلى أهدافها المنشودة، وكيفية مواجهتها أو الحدِّ منها ـ على أقل التقديرات ـ في ضوء مقتضيات ومتطلبات هذا العصر الذي نعيشه.

المطلب الثاني: أهمية هذا الموضوع.

من خلال هذه التعريفات، وما أسفرت عنه؛ فقد ظهرت أهمية هذا البحث، إذ أنه يتناول الحديث عن تلك الأمور التي تقف عائقا وعقبة من العقبات أمام انتشار تعاليم الإسلام، تلك التعاليم التي رضيها الله وأتمها وأكملها، والتي نؤمن ونعتقد بأن (الزمان والمكان لا يصلحان إلا بها)؛ وليس كما يُقال فقط: بأن الإسلام صالح لكل زمان ومكان.

ووجب علينا كذلك أن نسعى إلى تذليل كلِّ العقبات التي تقف في وجه هذه الدعوة؛ فإن الله سبحانه وتعالى كما قال عن نفسه: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۚ﴾ {الرعد: 14}،

(1) معجم مقاييس اللغة لابن فارس، ج6، ص: (88/ 89).

(2) لسان العرب لابن منظور مادة: (وجه)، ص: (4776).

وهذه الدعوة التي هي لله تعالى؛ هي: "الإسلام بشموله وعمومه[1]" وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ {القصص: 86، 87}؛ فوجب علينا أن ندعوَ إلى الله سبحانه وتعالى وأن لا نلتفت إلى هؤلاء المشركين وإلا سنكون مظاهرين لهم. وإذا ما وضعوا في سبيل دعوتنا العراقيلَ والسدودَ؛ فعلينا أن نسعى جاهدين في إزالتها وتفكيكها؛ لأننا إذا تركنا الدعوة إلى الله تعالى وتبليغَ دينه ورسالته إلى المشركين كُنَّا ممن فَعل فِعل المشركين بمعصية ربه[2].

«"فلا تكونن ظهيرا للكافرين" .. فما يمكن أن يكون هناك تناصر أو تعاونٌ بين المؤمنين والكافرين. وطريقاهما مختلفان، ومنهجاهما مختلفان. أولئك حِزب الله، وهؤلاء حزب الشيطان، فعلام يتعاونان؟ وفيما يتعاونان؟ "ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك" .. فطريق الكفار دائما أن يصدوا أصحاب الدعوة عن دعوتهم بشتى الطرق والوسائل؛ وطريق المؤمنين أن يُمضوا في طريقهم؛ لا يلويهم عنها المعوقون، ولا يصدهم عنها أعداؤهم. وبين أيديهم آيات الله، وهم عليها مؤتمنون»[3].

وعلى كلِّ حالٍ فهذا هو دأبُهم؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ﴾ {البقرة: 217}. ولا يُستغرب الحال من صاحبه إذا ما كان عليه سائرا وله ملتزما!! ولكن الغرابة كلَّ الغرابة ممن ظهر له عداوةُ هؤلاء، وحذَّره ربه منها، بل وأظهر له مكنونَ نفوسهم وما انطوت عليه صدورهم ومع ذلك يغطُّ في سُبات عميق؛ فحقًّاً إنها لغرابة شديدة جدا.

---

(1) وقد جاء في تفسيرها عن السلف الصالحين بأنها : (التوحيد)، و(لا إله إلا الله) يُنظر تفسير ابن كثير وما أحال عليه من مراجع، ولعلَّ العلاقة بين قولي وقولهم هي من قبيل العموم والخصوص.

(2) يُنظر: تفسير الطبري (جامع البيان) لهذ الموضع.

(3) في ظلال القرآن؛ بقلم: سيد قطب. ج5، ص: (2715، 2716)، ط 40: دار الشروق 1434هـ.

فما أحوجنا نحن (الدعاةَ إلى الله تعالى وجميعَ العاملين في حقل الدعوة) إلى أن نكون على بصيرة بما في طريقنا من الأشواك والمصاعب والعراقيل كي نُجنِّب منها أنفسنَا ومدعوِّينا.

وعلى كلٍّ حال فإن هذا البحث ـ كما هو ظاهرٌ من تعريفه ـ سوف ينقسم إلى قسمين كبيرين؛ أولهما: عن التحديات المعاصرة التي تواجه الدعوة الإسلامية، وثانيهما: عن مواجهة هذه التحديات. وسوف أجعل كلَّ واحد منهما في مباحث خاصةٍ به.

وبيان هذين القسمين؛ كما يلي:

القِسمُ الأولُ

التحدياتُ المُعاصرة

التي تواجه الدعوة الإسلامية

وفيه مباحث:

المبحث الأول: التحدِّيَّات المحلية والإقليمية

المبحث الثاني: التحديات العالمية.

المبحث الثالث: التحديات المتعلقة بشخصية الداعية

المبحثُ الأولُ

التحدِّيَّات المحلية والإقليمية

تلك هي التحديات التي بين صفوف المسلمين مُتَمَكِّنة؛ إذ هو من المعيب عند العقلاء إذا أرادوا حلَّاً وعلاجاً لمشكلة من مشاكلهم أن ينظروا في الأسباب الخارجية عنهم، ويتركوا ما عندهم من الأسباب الرئيسة دون علاج وحلٍّ.

وهذا منهج إسلاميٌ أصيل؛ يدلُّ عليه قول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ {الأنفال: 45 ـ47}، فقبل أن يَذكر اللهُ تعالى خروجَ الكافرين من مُشركي قريشٍ وصفتَه وصدَّهم عن سبيله سبحانه وتعالى؛ ذكر **أولاً** واجباتٍ على المسلمين من ثباتهم، وطاعتهم لله تعالى، ولرسوله صلى الله عليه وسلم .. وغير ذلك. فكيف نَلقى عدُوَّنا وعندنا أمور هي أكبر أسباب هلاكنا، فلابد من علاجها أولاً. ثم بعد ذلك ننظر فيما عند عدونا[1].. وهذا هو الذي جعل الباحثَ يبدأ بهذه التحديَّات، ثم جعل غيرها رِدْفاً لها، وهي في الواقع كثيرة ولكنها لن تخرج عما ذكرته إن شاء الله تعالى.

وهي في مطالبَ متتالية:

(1) وقد جاء عن عمر بن عبد العزيز ما يُؤيد هذا المعنى ـ ولكنه ضعيف لجهالة أحد الرجال في إسناده ـ فقد قال لبعض أمرائه: «وَلَا تَكُنْ فِي شَيْءٍ مِنْ عَدَاوَةِ عَدُوِّكَ أَشَدَّ احْتِرَاسًا لِنَفْسِكَ وَمَنْ مَعَكَ مِنْ مَعَاصِي اللهِ، فَإِنَّ الذُّنُوبَ أَخْوَفُ عِنْدِي عَلَى النَّاسِ مِنْ مَكِيدَةِ عَدُوِّهِمْ، وَإِنَّمَا نُعَادِي عَدُوَّنَا وَنَسْتَنْصِرُ عَلَيْهِمْ بِمَعْصِيَتِهِمْ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمْ تَكُنْ لَنَا قُوَّةٌ بِهِمْ، لِأَنَّ عَدَدَنَا لَيْسَ كَعَدَدِهِمْ، وَلَا قُوَّتُنَا كَقُوَّتِهِمْ» أخرجه أبو نُعيم حلية الأولياء (302/5، 303) ط: دار المعرفة، بيروت.

المطلب الأول: ذوبان الشخصية الإسلامية في غيرها.

إن الشخصية الإسلامية لها ما يُميِّزها عن سائر الشخصيات، ويجعلها في مكانة مرموقة سامية تهفوا وتَطْمَحُ كل النفوس والأبدان أن تكون في منزلة كتلك التي ميَّز الله بها هذه الشخصية؛ فقد قال الله تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾ {سورة الحجر: 2}، وإن كان هذا في عرصات يوم القيامة كما ذكر أهل التفسير[1]؛ إلا أن كثيراً من علماء غير المسلمين على اختلاف توجهاتهم وأديانهم؛ يشهدون للإسلام عقيدة وشريعة وخُلُقا[2].

فشخصية كهذه الشخصية لا تقبل أن تذوب في غيرها ولا أن يذوب غيرُها فيها؛ لأن الله تعالى اجتباها؛ فقال: ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾ {الحج: 78}، وكذلك جعلها خير أمَّةٍ؛ فقال: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾ {آل عمران: 110}، وكذلك ذكر الله سبحانه وتعالى أن هذه الشخصية المُسلمة المؤمنة هي الأعلى قدراً ومنزلةً عنده بإيمانها، وهي كذلك فوق الناس في الدنيا والآخرة؛ فقال: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾{آل عمران: 139}، وقال تعالى عن المؤمنين من أتباع عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ﴾ {آل عمران: 55}؛ بل وقال الله تعالى عن المؤمنين عموما:﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ {البقرة: 212} فشخصيةٌ هذا شأنها؛ من حيث الاجتباء والاصطفاء والخيرية والعلو والفوقية ـ في غير تَكَبُّرٍ ـ على سائر الأمم في الدنيا والآخرة لا تقبل أن تكون محلَّاً لغيرها، ولا أن يكون غيرُها محلَّاً لها. فلكلٍّ مِنهاجُه وطريقتُه وشِرعتُه؛ ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا

(1) ينظر: تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير الدمشقي ج4 ص: (524 ـ 526). تحقيق سامي السلامة، طبعة دار طيبة، الرياض.

(2) يُنظر في هذه الشهادات كتاب: (قالوا عن الإسلام) د/ عماد الدين خليل. الطبعة الأولى، الندوة العالمية للشباب الإسلامي. الرياض.

مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ {المائدة: 48} فلو كان الناس متساوين لا مختلفين؛ لما جعل الله سبحانه لكل واحد شِرْعته الخاصة به ومِنهاجَه الذي يتبعه دون غيره من المناهج، ويزداد هذا الأمر وضوحا في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ {الجاثية: 18} فالشخصية المُسلمة مأمورة باتباع شريعة واحدة خصَّها الله تعالى بها، وجعل غيرَها أهواءً لا تنفع صاحبها فضلاً عن أن تنفع الآخرين. ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾ {هود: 121}، وقال: ﴿قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا ﴾ {الإسراء: 84} فلكلٍّ عملُه ومكانتُه وشاكلتُه التي يعمل عليها ولها، وكذلك من الآيات الكاشفة لتلك القضية؛ قضيةِ التميُّز؛ قوله تعالى: ﴿وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ﴾ {البقرة: 148}، وقوله: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ {الكافرون: 6}.

ثم إن النصوص الشرعية أكّدت على أن التمييز والتزييل بين المسلمين وغيرهم أمر هو من الأهمية بمكان، ويترتب عليه كذلك أحكام ومعاملات، فقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[1]{الفتح: 25}، وكذلك قال الله تعالى في موقف من مواقف عرصات يوم القيامة: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾[2] {يس: 59}، وقال كذلك عن تميُّز المعبودين ممن عبدوهم: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ﴾ {يونس: 28}.

(1) قال أبو عبد الله ابن أبي بكر القرطبي: «وجواب "لولا" محذوف، والتقدير: ولولا أن تطؤوا رجالا مؤمنين ونساءً مؤمنات لم تعلموهم، لأذن الله لكم في دخول مكة ولسلطكم عليهم، ولكنَّا صُنَّا من كان فيها يكتم إيمانه خوفاً» الجامع لأحكام القرآن، ج19 ص: (330) ط: الرسالة بيروت.

(2) قال القرطبي: «يقال لهم هذا عند الوقوف للسؤال حين يؤمر بأهل الجنة إلى الجنة، أي اخرُجوا من جملتهم، قال قتادة: عُزلوا عن كل خير». المرجع السابق ج17، ص: (472).

وقد وضَّحتْ آياتُ القرآن كذلك؛ أنها قضيةٌ عند غير المسلمين مُسلَّمٌ بها، ولذلك لا يتبع بعضهم بعضاً؛ فقال تعالى: ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍۚ﴾ {البقرة:145}. فكلٌّ منهم يعتزُّ بقبلته التي هو عليها، ولا يُسْلِم قيادَه لغيره، ولا يسمح لغيره بذلك، بل وما تهاون أحدُهم في ذلك الأمر قط.

وفي زيادةِ بيانٍ لهذه القضية في كتاب الله تعالى؛ نجد الآيات القرآنية موضِّحة هذا توضيحا بليغا وكأنهما طريقان لا يلتقيان، وقضيبان لا يجتمعان في نقطة من النقاط أو في قضية من قضايا الهويَّةِ المميزة كلاً عن صاحبه؛ فمثلاً: كم هو عدد الضمائر المتقابلة في القرآن الكريم عند الحديث عن المسلمين والكافرين أمثال: (منكم، منهم، من دونكم، من غيركم) كما في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً **مِّن دُونِكُمْ** لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ **أَفْوَٰهِهِمْ** وَمَا تُخْفِى **صُدُورُهُمْ** أَكْبَرُۚ قَدْ بَيَّنَّا **لَكُمُ** ٱلْـَٔايَـٰتِۖ إِن **كُنتُمْ** تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَـٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ **تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ** وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا **لَقُوكُمْ** قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ **عَلَيْكُمُ** ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ..﴾ {آل عمران:118- 120}، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَـٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ **مِنكُمْۚ**﴾ {الأنفال: 75}، ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْۖ **أَنتُم** بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ **وَأَنَا۠** بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ {يونس: 41}، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ **قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ** وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ {المجادلة: 17}. وفي قضية عجيبة لِمَن أحسن التدبُّر؛ إذْ يُستشهدْ بغير المُسلِمين للمسلمين، ومع ذلك فليست شهادته كشهادة المُسلم؛ فيقول الله تعالى لمن حضره الموت في سفرٍ ولم يجد على وصيته وكتابه شهودا من المسلمين ووجد غيرهم: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ **ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ** إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾ {المائدة: 106}. وقال تعالى عن مولاة الكافرين: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم **مِّنكُمْ** فَإِنَّهُۥ **مِنْهُمْۗ**﴾ {المائدة: 51}؛ وفي مقام التبرؤ منهم: ﴿إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا

تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ {الممتحنة: 4} وغير ذلك من الآيات. وقبل أن أغادرها أودُّ منك أخي الكريم قراءتَها ثانيةً مُستحضرا تلك المعاني فهي في ظني فريدة قلّ من ينتبه إليها في تميُّزه.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في غير ما حديث: (ليس منَّا ..)[1]، و(ليس لنا مثل السوء)[2]، (نحن الآخرون ونحن السابقون يوم القيامة ..)[3].

وقد أخذ هذا التميز بين المسلمين وغيرهم صوراً مختلفة في عصور المسلمين الأولى؛ كعصر الخلفاء الراشدين ومن والاهم إلى نهاية الدولة العباسية تقريبا؛ وكان تميزا في الملبس وغيره من الأمور الظاهرة والتي بها يتمُّ هذا المعنى[4].

---

(1) أمثال هذه الأحاديث: (ومن ادعى ما ليس له فليس منا)، (ليس منا من عمل بسنة غيرنا)، (ليس منا من لطم الخدود ...)، (ليس منا من تطيَّر أو تُطيِّر له)، (من غش فليس منا)، (ليس منَّا من لم يرحم صغيرنا ...) انظرها بتخريجها في صحيح الجامع الصغير وزياداته، ج2، ص: (956 ـ 958)، والأحاديث بأرقام: (5433 ـ 5445) للألباني، طبعة المكتب الإسلامي: (1408هـ 1988م)، وأصل هذا الكتاب هو كتاب: "الجامع الصغير من حديث البشير النذير" للسيوطي، مع زيادات يوسف النبهاني.

(2) أخرجه البخاري، كتاب: (الهبة)، باب: (لا يحلُّ لأحدٍ أن يرجع في هبته)، برقم: (2622)، والنسائي، كتاب: (الهبة)، باب: (ذكر الاختلاف لخبر عبد الله بن عباس فيه)، بأرقام: (3700، 3701، 3702).

(3) أخرجه مسلم في كتاب: (الجمعة)، باب: (هداية هذه الأمة ليوم الجمعة)، برقم: (855). وابن ماجة، كتاب: (الزهد)، باب: (صفة أمة محمد)، برقم: (4290)، وفيه (فنحن الآخرون والأولون).

(4) وهذا التميز .. وإن كان علامة على تمكُّن المسلمين وعلو شأنهم في وزمانه؛ إلا أنه في هذا الزمان أمرٌ عسير لا يصلح لأمور كثيرة؛ فلكلِّ زمانٍ فتواه، إذ الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان، فالله المستعان.

وما ذكرت ذلك إلا للتدليل على هذه القضية التي نحن بصدد الحديث عنها؛ وأنها كانت علامة بارزة في منهجم الحياتي مع غيرهم. كما اشترط ذلك عمر رضي الله عنه على نصارى أهل الشام؛ أن لا يتشبهوا بالمسلمين في لباسهم. كما هو مشهور في الشروط العمرية التي شرحها ابن القيم في أحكام أهل الذمة.

ويذكر الذهبي رحمه الله تعالى هذه القضية في مظهر من المظاهر الحياتية العامة للتمييز بين المُسلم وغيره؛ فيقول: «ألا ترى أن العمامة الزرقاء والصفراء، كان لبسُهما لنا حلالاً قبل اليوم؟! وفي عام سبعمائة ألزمهم السلطان الملك الناصر بلبسهما: فحرمت علينا؛ أفتطيب نفسك أيها المسلم اليوم أن تلبس عمامة صفراء أو زرقاء» رسالة: تشبيه الخسيس بأهل الخميس في رد التشبيه بالمشركين. ص: (163). وأسبق منه قول الشافعي لما سأله سائل عن عمله بحديث من الأحاديث؛ فقد قال البخاري: «سمعت الحميدي يقول: كنا عند الشافعي فأتاه رجل فسأله عن مسألة فقال: قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا وكذا، فقال الرجل للشافعي: ما تقول أنت؟ فقال: سبحان الله تراني في كنيسة، تراني في بيعة، ترى على وسطي زنارا، أقول قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا وكذا، وأنت تقول

ولست بذلك مدعياً عقيدةً ادعاها يهود؛ من كونهم شعب الله المختار ـ وقد كذبوا ـ فقد جعلوا أنفسهم في بوتقة منعوا دخول وخروج أحد عليهم.

وذلك لأن تميُّز المسلم عن غيره سِمةٌ في دينه لا في جنسه ولا لونه؛ بحيث لو دخل في الدين الإسلامي غيرُ العربي لكان هذا التميُّز وصفاً له[1]. وما ذاك إلا دليل على عمومية هذه الرسالة الخاتمة؛ فليست خاصةً بأحدٍ؛ إذ هي دعوة للعالمين، فإن: «دعوة محمد صلى الله عليه وسلم شاملة للثقلين الإنس والجن على اختلاف أجناسهم؛ فلا يُظنُّ أنه خص العرب بحكم من الأحكام أصلاً؛ بل إنما علَّق الأحكام باسم مسلم وكافر ومؤمن ومنافق وبر وفاجر ومحسن وظالم وغير ذلك من الأسماء المذكورة في القرآن والحديث؛ وليس في القرآن ولا الحديث تخصيص العرب بحكم من أحكام الشريعة، ولكن بعض العلماء ظن ذلك في بعض الأحكام وخالفه الجمهور ـ إلى أن قال ابن تيمية ـ والمقصود هنا: أن بعض آيات القرآن وإن كان سببه أموراً كانت في العرب فحكم الآيات عام يتناول ما تقتضيه الآيات لفظاً ومعنى في أي نوعٍ كان»[2].

وفي اختلاف المجتمعات عموما وتميزِها عن غيرها بخصائص ومميزات ـ يقول ابن خلدون في مقدمته عن علم العمران ـ: «ويحتاج صاحب هذا الفن إلى علمٍ بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الأمم والأعصار في السير والأخلاق والعوائد والنِّحل وسائر الأحوال .. ـ إلى أن قال بعد ذلك بصفحات ـ فالذي لا يُدرك كيف تنشأ الدول، وكيف تهرم، وما هي خصائص البدو والحضر وأنواع المكاسب والعلوم لا

لي ما تقول أنت؟.» مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة؛ ص: (544). وهو في حلية الأولياء لأبي نعيم. برقم: (13593).

(1) وذلك لأن المجتمع الإسلامي: «هو ذاك المجتمع الذي تميز عن المجتمعات الأخرى بنظمه الخاصة وقوانينه القرآنية وافراده الذين يشتركون في عقيدة واحدة ويتوجهون إلى قبلة واحدة؛ ولهذا المجتمع ـ وإن تكَوَّن من أقوام متعددة وألسنة متباينة ـ خصائص مشتركة وأعراف عامة وعادات موحدة» المجتمع الإسلامي د/ محمد أمين المصري، ص: (17)، ط دار الأرقم الكويت؛ أولى: (1400هـ ـ 1980م).

(2) إيضاح الدِّلالة في عموم الرسالة، لابن تيمية، من مجموعة الرسائل المنيرية. ومن هذه الأحكام المُشار إليها: (دعوى خصوصية العرب بأنهم لا يُسترقُّوا، وأن الجزية لا تؤخذ من مشركي العرب، وكذلك تحليل ما استطيبته العرب وتحريم ما استخبثته من الأطعمة، وكذلك التقديم لإمامة الصلاة بالنسب، ..) ص: (11 ـ 22)

يستطيع نقد الخبر نقدا صحيحا؛ فهذا هو المعيار في الحكم بقبوله أو تزييفه .. »[1].

وهذا الفهم الفريد لطبائع النفوس وملكاتها جعله يقول عن العرب فيما بعدُ: «العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة .. فإذا كان فيهم النبي أو الولي الذي يبعثهم على القيام بأمر الله، ويُذهب عنهم مذمومات الأخلاق ويأخذهم بمحمودها، ويؤلف كلمتهم لإظهار الحق، تم اجتماعهم وحصل لهم الغلب والملك، وهم مع ذلك أسرع الناس قبولا للحق والهدى لسلامة طباعهم عن عوج الملكات وبراءتها من ذميم الأخلاق، إلا ما كان من خلق التوحش القريب المعاناة المتهيء لقبول الخير ببقائه على الفطرة الأولى وبُعده عما ينطبع في النفوس من قبيح العادات وسوء الملكات فإن كل مولود يولد على الفطرة كما ورد في الحديث»[2].

وكذلك يقول أحد الغربيين: «فالمسلمون عالم مستقل كل الاستقلال عن عالمنا الغربي، فهم يملكون تراثهم الروحي الخاص، ويتمتعون بحضارة تاريخية ذات أصالة، فهم جديرون بأن يقيموا قواعد عالم جديد دون حاجة إلى الاستغراب[3] ـ أي دون حاجة إلى إذابة شخصيتهم الحضارية والروحية بصورة خاصة في الشخصية الحضارية الغربية ـ»[4].

وعليه .. فقد «تعرضت الشخصية الإسلامية عبر القرون إلى حملات آثمة غادرة، استهدفت إزالتها وتدميرها، كما استهدفت ـ إذا عجزت عن الإزالة والمحو ـ تشويهها ومسخها، وقاد هذه الحملةَ أعداءُ الإسلام بما ألقوه من شبهات، وبما جاءوا به من فلسفات وثقافات، أرادوا أن يزاحموا بها الإسلام في نفوس المسلمين، وبذلك لا

(1) مقدمة ابن خلدون ـ وهي الجزء الأول من تاريخه ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر ـ ص: (320، 331) بتحقيق: د/ علي عبد الواحد وافي. ط: السابعة، نهضة مصر.

(2) مرجع سابق ج2 ص: (516).

(3) صرح بذلك مسئول فرنسي في وزارة الخارجية 1952م، نقلا عن القرن الخامس عشر الهجري التحديات في وجه الدعوة الإسلامية والعالم الإسلامي، أ/ أنور الجندي، ص: (230) المكتبة العصرية.

(4) المرجع السابق. ص: (230).

يستقل الإسلام ببناء الإنسان، ولا يكون هو المُسلم الحق الذي يريده الله سبحانه وتعالى ..»[1]

والعجب كلُّ العجب من قوم يتعاملون معنا بما ينبغي علينا أن نتعامل به معهم، ويتمسكون به تمسكا عظيماً؛ لدرجةٍ جعلت بعضَ الباحثين يجعل ذلك من المعوقات التي تعوق مسيرة العمل الدعوي؛ فيقول: «يُحسّ الإنسان الغربي بتفوق قِيَمي على غيره من الأمم والشعوب، وحساسيته تجاه غيره متفاوتة الدرجات، أخطرها وأعلاها: حساسيته تجاه الإسلام وقيَمِه وأُمَّتِه، لذلك يتعامل معهم وَفق ثنائية المركز والهامش، وهي نظرة عامة لكل النُّخب الغربية؛ مثقفين وسياسيين، لذلك لا يرون غضاضة في إلحاق جزء من ذلك الهامش بهم، مثل تسمية الفيلسوف الألماني هيغل لإفريقيا شمال الصحراء بـ(إفريقيا الأوربية)، بل اعتبر هذا الربط والإلحاق واجبا فقال: "والجزء الشمالي من إفريقيا يقع على البحر المتوسط وعلى المحيط الأطلنطي، وهو إقليم رائع كانت توجد فيه قرطاجة فيما مضى، وتوجد به الآن مراكش الحديثة والجزائر وتونس وطرابلس، ولقد كان من الواجب ربط هذا الجزء من إفريقيا بأوروبا" ولقد حققت فرنسا رغبة هيغل؛ عام 1830م ـ قبل وفاة هيغل بسنة ـ حين أقدمت على احتلال الجزائر احتلالا استيطانيا، ألحقت بموجبه القُطر الجزائري بالوطن الفرنسي.

ونتيجة لعقلية الاستعلاء المسيطرة على العقل الغربي، أصبح المثقفون الغربيون يعتبرون قِيَمَهم قِيماً كونيةً يجبُ على الغير الخضوع لها والتزام أدبياته، وقد تجلى ذلك بوضوح لا لبس فيه بعد أحداث أيلول/ سبتمبر 2001م، حيث أصدر 60 من المثقفين الأمريكان بياناً بعنوان: "لماذا نخوض الحرب؟"، عبّروا في الفقرة الأخيرة منه عن تزكيتهم للحرب التي أقدمت عليها حكومتُهم، ومنحوها شرعية قِيمية "كونية"،

(1) محاضرات إسلامية هادفة، د/ عمر سليمان الأشقر، ص: (279، 280)، دار النفائس ط أولى (1418هـ 1997م). الأردن.

قائلين: "إننا باسم الأخلاق الإنسانية الكونية، وبوعي تام بقيود ومقتضيات الحرب العادلة، نساند قرار حكومتنا ومجتمعنا في استعمال قوة السلاح مع هؤلاء"»[1].

فهذه النظرة الهامشية المتدنية للعالم الإسلامي؛ ما جاءت إلا عن عقيدة راسخةٍ عندهم؛ تملي عليهم وجوبَ استلحاق واستتباع المسلمين بهم[2].

ثم في الختام .. وبعد أن طوَّفتُ بك أخي القارئ عن طبيعة الشخصية المسلمة وعما يجب أن تكون عليه؛ إذا نظر الداعية إلى الواقع الذي يعيشه مع الناس من خلال دعوته؛ يجد البون شاسعاً، ويجد الخرق قد اتسع على الراقع ـ كما قيل ـ إذ المسلم الآن إن لم يكن قد مُسِخ عن هُويته وعقيدته وليس له منها إلا الاسم وفقط ـ إن لم يكن كذلك ـ فهو في أحسن أحواله قد تقمَّص شخصيةً ليست بشخصيته؛ في تفكيرها، وأدبياتها، وأخلاقها، ومظاهرها، .. وكلِ شيء.

حتى إذا جاء الداعي إلى الله تعالى، والحالة التي وصل إليها المسلمون ـ إلا من رحم الله ـ كذلك؛ ثم حدَّثهم عن الإسلام وعن تعاليمه وأخلاقياته ومعاملاته فكأنما هو

---

(1) الثقافة الإسلامية "المقومات، العوائق، البدائل" د/ عبد الله الجباري ـ جامعة محمد الخامس، المغرب ـ ص: (20،21). وهو بحث ضِمن أعمال مؤتمر "الثقافة الإسلامية .. الأصالة والمعاصرة" الذي نظمته رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، عام (ذو الحجة ـ 1435هـ، سبتمبر ـ 2014م)

(2) وفي تفسير مادِّيٍ عِلميٍّ لهذا المعنى؛ تقول د/ صفاء صادق؛ أستاذ الرياضيات التطبيقية بجامعة عين شمس القاهرة، عن ظاهرة الاحتكاك؛ في مقالٍ لها بعنوان: التطور يعصف بمفاهيم الحتمية الميكانيكية: «يدور الحديث كثيرا عن الاحتكاك في العلوم الاجتماعية. فيتحدث البعض عن فوائد الاحتكاك بين الثقافات المختلفة، ومن المعتقد أن هذا يُفيد الشعوب غيرَ المتقدمة؛ للحاق بركب التقدم والحضارة الحديثة ومواكبة تقدُّم الدول الأخرى. وبمقارنة هذا الرأي بمفهوم الاحتكاك في علم الميكانيكا؛ فإنه يمكن ملاحظة أنه في حالة وجود خشونة كافية لمنع الحركة النسبية فإن هذا يعني أن الجسمين المتلامسين يتحركان معاً؛ وبالمثل عند الاحتكاك بين الثقافات، وعند وجود رغبة حقيقية عند الثقافة الأقل تقدّما في استيعاب الثقافة الأكثر تقدُّماً، وكذلك عند وجود رغبة حقيقية عند الثقافة الأكثر تقدماً في تفهُم وتقدير واحترام الثقافة الأخرى؛ فإنه يمكن أن تتناقص الفوارق والصراعات بين الثقافات ويحل محلها الحوار، ويتم القضاء على التخلُّف وتتقارب وتائر التقدُّم عند الشعوب المختلفة إلى حدٍّ كبير كما هو ملاحظ بين الشعوب الأوربية. أمَّا إذا انعدمت هذه الشروط؛ فإن الاحتكاك الضعيف مع الثقافة المتقدمة لن يمنع الثقافة المتقدِّمة من تقدُّمها؛ مع بقاء الثقافة المتخلفة على ما هي عليه من تخلُّف». يُنظر: مجلة العلم والحياة، ص: (16)، العدد: الخامس؛ يناير: (2018م)، تصدر عن الهيئة المصرية للكتاب.

غريب في سط غرباء؛ وليس هذا وفقط، بل ويُتَّهم كذلك حينئذ بأبشع التُّهم. ولعلَّ من أبرز الصور التي ظهر فيها هذا الذوبان للشخصية المسلمة:

1. اليأس من عدم التفوق والتقدم على أصحاب الشخصية التي تقمَّصها.
2. الوقوف في موقف المدافع عن الإسلام وما يُرمى به من التُّهم لا أن يقف في موقف الداعي ولا أقول المهاجم!![1].
3. التَنَكُّرْ والتَّخوف من الانتماء للهوية الإسلامية العربية.
4. التشبه بمن ذاب في شخصيتهم؛ في مأكلهم ومشربهم وملبسهم وأنكحتهم .. وفي سائر نواحيهم الاجتماعية؛ وهذه طبيعة المنهزم أمام من تغلب عليه وهزمه؛ وقد عقد ابن خلدون في مقدمته فصلاً لذلك مبينا فيه هذه الطبيعة للشخصية الانهزامية؛ فقال تحت عنوان: «**فصل في أن المغلوب مُولَعٌ أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيِّه ونحلته وسائر أحواله وعوائده**»[2]، وليتَ الأمرَ يقفُ عند حدِّ التقليد القهري فحسب؛ وإنما تعدّاه ـ كما يقول رحمه الله تعالى ـ «لما تراه[3] ـ والله أعلم ـ من أن غَلَبَ الغالب لها ليس بعصبية ولا قوةِ بأس، وإنما هو بما انتحله من العوائد والمذاهب»[4]. فالإلحاد، والمذاهب الفكرية الشاذة المخالفة للعقول وللفطر السليمة، والانحلال الخلقي كالزنا والربا والسرقة ... وغيرها عند الغالب؛ ما هي عند المغلوب إلا وسيلة من وسائل تفوق الغالب وانتصاره، وهكذا في كل ما خالف الغالبُ فيه المغلوب.

فواقعٌ هذا شأنه، وأناسٌ وصْفُهم هو وصْفُ المغلوبِ المنهزِمِ المُولعِ بتقليد من هزمه؛ لَيُشكِّلون تحدِّياً هو من أكبر التحديات ـ إن لم يكن أكبرَها ـ أمام الدعوة الإسلامية وأمام الدعاة في هذا العصر.

---

(1) وهذا تنزلا في الخطاب؛ وإلا فالمسلم مأمور بأن يدعوا إلى الله تعالى كلَّ من لم يؤمن به وبالنبي محمد صلى الله عليه وسلم، ومأمور أن يُبلغ دينه إلى الناس كافة؛ وقديما قالوا: الهجوم خير وسيلة للدفاع.

(2) مقدمة ابن خلدون ج2، ص: (505).

(3) أي هذه الأمم المغلوبة.

(4) مقدمة ابن خلدون ج2، ص: (505)، وقد جعل رحمه الله تعالى من هذا الباب؛ تقليد الأبناء لآبائهم، وتقليد الأمم لملوكهم، فالمقولة التي تقول: (العامة على دين الملك)، فإنها من هذا الباب.

المطلب الثاني: العزوف عن المساجد.

ما أجملها من خصوصية وإضافةٍ لو تدبَّرناها؛ تلك الإضافة التي أضاف الله بها المساجد إليه، وليس هذا فحسب؛ بل وجعلها مُقدِّمةً لنتيجةٍ هي أسمى النتائج التي تميزت بها عن دور العبادة جميعاً؛ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ {الجن: 18}، [1]فهي خير البقاع في هذه المعمورة؛ إذ قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أحبُّ البلاد إلى الله مساجدُها، وأبغض البلاد إلى الله اسواقُها)[2]، ولذلك

(1) وسواء كانت المساجد هنا هي: «البيوت التي تبنيها أهل الملل للعبادة، أو كل البقاع، أو أعضاء السجود، أو الصلوات، أو مسجد مكة ـ المسجد الحرام ـ» فهذه هي كل الآراء التي ذكرها القرطبي في تفسيره عنها ج21، ص: (297). أم أن المقصود بها المساجد بالمنظور الإسلامي؛ فالمقصود من الآية هو إخلاص العبادة لله ونبذ الشرك في أي مكان يُعبد الله فيه. وقد قال ابن جرير الطبري عن آية الحج بعد أن ذكر أقوال أهل التفسير في المراد بها: «وأولى هذه الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال؛ معنى ذلك: لهدمت صوامع الرهبان وبيع النصارى، وصلوات اليهود؛ وهي كنائسهم، ومساجد المسلمين التي يذكر فيها اسم الله كثيرا. وإنما قلنا هذا القول أولى بتأويل ذلك: لأن ذلك هو المعروف في كلام العرب المستفيض فيهم، وما خالفه من القول وإن كان له وجه فغير مستعمل فيما وجهه إليه من وجهه إليه» ج18، ص: (650، 651). وقد قال أبو جعفر ابن النحاس في إعراب القرآن عنها: «الذي يجب في كلام العرب على حقيقة النظر أن يكون يُذكر فيها اسم الله عائداً على المساجد لا على غيرها لأن الضمير يليها ويجوز أن يكون يعود على صوامع وما بعدها؛ ويكون المعنى: في وقت شرائعهم وإقامتهم الحدود والحق».

ولكن .. هل يجوز أن يكون أسلوب الآية هذه من قبيل التعريض بالأماكن التي يُشرك فيها بالله، وإعطاء المساجد خصوصية التوحيد والدعوة إليه وسَلْبِها عن الأماكن الأخرى؟. لا سيَّما وقد قرن الله تعالى بالمساجد أماكن العبادة الأخرى، فدلَّ ذلك على تغايرها عنها؛ إذ قال الله في سورة الحج ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ..﴾ وليس هذا فحسب، فهذه السورة ـ سورة الحج ـ مكية كما قال ابن عباس ومجاهد وتبعهما على ذلك كثير من المفسرين [مثل: ابن عطية، البغوي، أبو حيان الأندلسي، ..] كسورة الجن فهي الأخرى مكية. فالمقصود بالمساجد هنا أنها أماكن العبادة الخاصة بالمسلمين. كالمسجد الحرام وغيره من مساجد المسلمين. والله أعلم. **وأسلوب التعريض من الأساليب القرآنية المعروفة لدى العلماء**؛ يُنظر مثلاً: (**التعريض في القرآن الكريم**، أ.د/ إبراهيم الخولي، ط دار البصائر. **استخدام التعريض في الأسلوب القرآني**، د/ نبيلة علي، حولية كلية الدراساتا الإسلامية والعربية بالقاهرة ص: (397 ـ516) العدد: (31)، **والتعريض في القرآن الكريم معناه وأمثلته وأحكامه** د/ يوسف صابون ذهب؛ مجلة جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية العدد التاسع والعشرون ص: (37 ـ 84)؛ السودان.

(2) أخرجه مسلم، ك: (المساجد)، باب: فضل الجلوس في مصلاه بعد الصبح، وفضل المساجد. برقم: (671).

فالمؤمنون المُهتدون هم عمَّارُ المساجد بقلوبهم وأرواحهم[1]، قبل أبدانهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ {التوبة: 18}، وهي:«أجمل ما تقع عليه عين الإنسان في عالم الإسلام .. وبالفعل فإن المساجد حارسة عالم الإسلام .. المسجد هو مركز ترابط الجماعة الإسلامية وهيكلها المادي الملموس، فلا تكتمل الجماعة إلا بمسجد يربط بين أفرادها؛ بعضِهم ببعض، يتلاقون فيه للصلاة وتبادل الرأي، ويقصدونه للوقوف على أخبار جماعتهم، ويلتقون فيه مع رؤسائهم، أو يتَّجِهُون إليه لمجرد الاستمتاع بالقعود في ركنٍ من أركانه كما يفعل الناس عندما يزورون حديقة ليروحوا عن أنفسهم، فالمسجد على هذا ضرورة دينية وضرورة سياسية وضرورة اجتماعية أيضا بالنسبة لكل مسلم على حدة، وبالنسبة لجماعة المسلمين جملة .. والمساجد مراكز للعلم ومعاهدُ للدراسة»[2]. فالمسجد له في الإسلام فضائل أكثر من أن تُحصر، وأشهر من أن تُذكر. وليس هذا مجال سردها؛ فلقد تكلم العلماء عن ذلك في مصنفاتهم ومؤلفاتهم الحديثية[3] وموسوعاتهم الفقهية[4] وغيرها من علوم الإسلام بل وأفردوها بالبحث والدراسة[5] وما هذا إلا لعلو شأنها وعظيمِ قدرها.

ولكن .. ما للمساجد وعزوف الناس عنها ببحثنا الذي نحن بصدده!؟

إن هذه القضية ـ قضيةَ عزوفِ الناسِ وبُعدِهم عن المساجد ـ لتُشكِّل تحديا من أكبر التحديات أمام الدعوة الإسلامية؛ وذلك لأن المسجد في بداية أمره عند المسلمين كان جامعاً للعبادة وجامعةً للدراسة والعلم، ومركزا للثقافة الإسلامية، وعلَماً ومناراً

(1) وقد أخبر عليه الصلاة والسلام بذلك؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ في ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ .. وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ في الْمَسَاجِدِ ..)، والبخاري: كتاب الأذان، باب: من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، برقم: (660)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب: فضل إخفاء الصدقة، برقم (1031).

(2) المساجد، د/ حسين مؤنس، ص: (27، 28، 30، 32)، ط: عالم المعرفة. المجلس الوطني للثقافة، الكويت.

(3) ففي صحيح مسلم كتاب جمع فيه رحمه الله تعالى أخبارا عن المساجد من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم.

(4) أمثال: "الموسوعة الفقهية" الصادرة عن وزارة الأوقاف الكويتية ج37. ص: (194ـ 229).

(5) أمثال: "إعلام الساجد بأحكام المساجد" بدر الدين الزركشي، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر. و"إصلاح المساجد من البدع والعوائد"، جمال الدين القاسمي، تحقيق: ناصر الدين الألباني. ط: المكتب الإسلامي. بيروت.

للمسلمين، ليس هذا فحسب؛ بل وسدّاً منيعاً أمام كل من يريدون إبعاد المسلمين عن دينهم وتوجيههم إلى وِجهة لا يريدها الله تعالى ولا رسوله صلى الله عليه وسلم. ولذلك كان العزوف عنها من أخطر ما يواجه الدعوة الإسلامية.

يقول الطاهر بن عاشور[1]: «أول ما ظهر التعليم في الإسلام كان غيرَ معين المحلّ، فكان يُعلِّم بعضُهم بعضاً القرآن في منازلهم وفي مجامعهم، ولكن لما كان المسجد هو المجمع للناس في المدينة، كان هو الموضِع المتعين للتعليم لمن لم يجد موضعاً، وما كان النبي ـ ﷺ ـ يجلس لأصحابه إلا في المسجد .. وأول من جمع الصبيان في المكتب عمرُ بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ، وأقام عامرَ بن عبد الله الخزاعي أن يلازمهم للتعليم، وجعل له رزقاً من بيت المال، وأمره أن يجلس للتعليم بعد صلاة الصبح إلى الضحى العالي، ومن صلاة الظهر إلى صلاة العصر ويستريحون بقية النهار، ولما رجع عمر من تفقده بلاد الشام رتَّب للصبيان المتعلمين الاستراحةَ يومي الخميس والجمعة»[2].

ثم إنه بعد ما كان المكان الذي يُعلَّم فيه أبناء المسلمين هو المسجد، فقد انتقل هذا المكان إلى خارجه بهدف الحفاظ على طهارته؛ لأن الأطفال لا يتحفظون من النجاسة فقد: «كان بعض المعلمين يقوم بمهمته في المساجد، ولكنَّ عبث الصبيان الصغار الذين لا يتحفظون من النجاسة جعل الفقهاء يمنعون من تعليم الصبيان في المسجد[3].

---

(1) وُلد فضيلته عام 1879م بتونس، ونهل من علم الشيخ محمد عبده، والتقى به عام 1903م، وتوطدت العلاقات بين الرجلين وكانت بينهما مراسلات حول الإصلاح والتجديد، وصار مفتياً عام 1926م وله مؤلفات كثيرة في شتى فنون العلم أمثال: تفسير التحرير والتنوير، ومقاصد الشريعة ..، وغيرهما، توفي سنة 1973م، مجلة الأزهر، عدد جمادى الأولى لسنة 1433هـ ص: (1008 ـ 1011).

(2) أليس الصبح بقريب (التعليم العربي الإسلامي "دراسة تاريخية وأراء إصلاحية") للطاهر بن عاشور، ص: (53، 54) باختصار، ط الثانية 1428هـ، 2007 دار السلام.

(3) «قال ابن القاسم: سئل مالك عن الرجل يأتي بالصبي إلى المسجد، أتستحب ذلك؟ قال: إن كان قد بلغ موضع الأدب، وعرف ذلك، ولا يعبث في المسجد فلا أرى بأساً. وإن كان صغيراً لا يقر فيه ويعبث، فلا أحب ذلك..، وأما سحنون فروى عن مالك قولَه: لا أرى ذلك يجوز لأنهم لا يتحفظون من النجاسة، ولم ينصب المسجد للتعليم قال أبو الحسن: جواب صحيح، وتكسب الدنيا في المسجد لا يصلح » يُنظر المصدر التالي. ص: (324) بتصرف.

فظهرت الكتاتيب منفصلة عن المساجد، وأصبحت خاصة بتعليم الصبيان»[1].

فالمسجد هو الوسيلة المباشرة في الدعوة إلى الله تعالى وتعليم الناس أمور دينهم، وله المميزات والخصائص التي تجعله محطَّ أنظار الجميع عن غيره من الوسائل الأخرى؛ فهو يتعامل مع الجمهور مباشرة وليس من وراء شاشة أو موجات صوتية، أو صحف مكتوبة أو ما شابه، ففيه يتعايش الداعية مع مدعوِّيه؛ فيشاركهم أفراحهم وأحزانهم، ويُبصرهم كذلك بما يحدث لهم من المشكلات والحوادث، والخطاب فيه مبني على المشاركة في الرأي، وتوجيه للأفكار التي قد تطرأ على أذهان السامعين؛ .. وغيرها كثير من المميزات والخصائص التي لا توجد في وسائل الدعوة الأخرى، فكثير من المدعوين لا يجدون من وراء الشاشات أي نوعٍ للمشاركة، ولا يجدون إجابات على تساؤلاتهم وأفكارهم، بل وكثير منهم لا يستطيعون القراءة ولا الكتابة.

«إذا فالمسجد هو قلب المسلمين النابض، ومحركهم إلى حمل الدعوة ونشر العقيدة وتوجيه الناس التوجيه الصحيح بالأسلوب الحسن والوسيلة المناسبة. ويُمكن لنا أن نبين أهمية المسجد في نشر الدعوة من خلال النقاط التالية:

أولاً: توثيق صلة الناس بالله تعالى وتقوية إيمانهم وإسلامهم، وتعميق مفهوم العقيدة الصحيحة في نفوسهم وتحذيرهم من الشرك والخرافة.

ثانيا: توضيح معاني العبادة الصحيحة.

ثالثا: تبليغ سنة النبي صلى الله عليه وسلم.

رابعاً: إيضاح ما كان عليه السلف الصالح من الفقهاء والعُبَّاد والنُّبلاء.

خامسا: إبراز تاريخ الأمة الإسلامية المجيد.

سادسا: مناقشة ما يهم الناس معرفته وما أشكل عليهم في حياتهم.

سابعا: ترغيب الناس في كل خير وترهيبهم من كل شر.

ثامنا: تقوية الصلة بين المسلمين وإشاعة مفاهيم الإخاء والبذل والعطاء.

تاسعا: إنشاء حِلق العلم في المسجد في مختلف العلوم والمعارف الإسلامية.

---

(1) التربية في الإسلام، أحمد فؤاد الأهواني، ص: (87)، دار المعارف بمصر 1968م.

عاشرا: إمكانية مساعدة أصحاب الحاجات.

حادي عشر: المسجد هو ملجأُ للأقليات الإسلامية في البلدان الغير إسلامية فلا بد من الاعتناء بمن يقومون على شؤونه»[1].

فمهما تعددت طُرق العلم في العصر الحديث؛ فلا يعني هذا إهمال الطريقة الأولى لدى المُسلمين والتي عليها نشأوا وتربَّوْا؛ فـ:«إن للمسجد دورَه الخطير في عملية تنمية القيم الخلقية الإسلامية لدى الأفراد والجماعات، خاصة إذا توافرت له الإمكانيات من قوى بشرية وإمكانيات مادية، وإذا كان دوره في حاضرنا المعاصر قد تراجع ـ إلى حدٍّ ما ـ لوجود المدارس، ووسائل الإعلام، فإن ذلك لا يعني اختفاء دوره، فدورُه قائم ولذا تجب العناية به، وتطويره بِنايةً وأهدافاً، مما يعيقه من القيام بوظيفته وأهدافه، بما يجعله قادرا على خدمة الحياة الإسلامية المعاصرة في إطار أهداف الإسلام»[2].

ولأجل أهمية المساجد هذه؛ فقد جعل الله تعالى مَن مَنعها أن تُؤدَّى فيها وظيفتُها أظلمَ الناس، إذِ المترتَّبُ على هذا المنع ظهورُ الإشراك بالله وعدمُ إنكاره، وشيوعُ الفواحش والمنكرات، وغير ذلك مما هو معلوم من تعطيل للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأجل ذلك وغيره جاء التعبير القرآني بالاستفهام الإنكاري التوبيخي الذي ينفي الظلم عن كل أحد إلا هذا الذي منع مساجد الله من وظيفتها، فقال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ {البقرة: 114}.

قال الفخر الرازي حول تفسيره لهذه الآية ومسائلها: «(المسألة الخامسة): السعي في تخريب المسجد قد يكون لوجهين: "أحدهما" منع المصلين والمتعبدين والمتعهدين له من دخوله فيكون ذلك تخريباً. "والثاني" بالهدم والتخريب، .. (المسألة السادسة):

(1) الأسس العلمية للدعوة الإسلامية دراسة تأصيلية على ضوء الواقع المعاصر.، د/ عبد الرحيم بن محمد المغذوي. ص: (759 ـ 761) باختصار وتصرف. ط دار الحضارة، الرياض. الثانية 1431هـ 2010م.

(2) من بحث للدكتور: علي خليل أبو العنين، بعنوان: (الأخلاق والقيم التربوية في الإسلام) ضمن موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم. إعداد مجموعة من المتخصصين، بإشراف الشيخ عبد الله بن حميد.ج1 ص: (172). ط دار الوسيلة جده، السعودية، 1418هـ 1998م.

ظاهر الآية يقتضي أن هذا الفعل أعظمُ أنواع الظلم، وفيه إشكال لأن الشرك ظلم على ما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾، مع أن الشرك أعظم من هذا الفعل وكذا الزنا وقتل النفس أعظم من هذا الفعل. (والجواب عنه): أقصى ما في الباب أنه عام دخله التخصيص فلا يقدح فيه»[1]. هذا من جهةٍ، ومن جهة أخرى ما وضَّحْتُه من الآثار المترتبة عليها من تعطيل للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ وإن كان الفخر الرازي قد ذكر نوعين من أنواع تخريب المساجد وهي أنواع حسيَّة، إلا أن هناك نوع آخر لا يقلُّ أهمية عن ذلك إن لم يكن أهمها:

وهو منعُ أثرها في المجتمع[2]. وإلا فما العبرة من وجود مسجد ومصلِّين ودعاة؛ ولكن هذا كلَّه جسد بلا روح، فالجسد الذي يُمارس حركاتِه وسكانتِه؛ ذِهابا وإياباً لا شك في أنه يحمل روحا تُحركه، أما إذا كان لا يستطيع ذلك فلا شك بأنه ميَّت وإن كان بين الأحياء هيكلاً؛ فسبحان من قال: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ﴾ {الأنعام: 122}.

فهو بغير الإسلام ميِّتٌ، وبه حيٌّ، وحياتُه هذه جعلت له نورا، وهذا النور يمشي به بين الناس. فكذلك ينبغي أن يكون المسجد في حياتنا؛ نور يمشي بين الناس يُضيء لهم الظلمات المدلهمَّة، ويُفرج عنهم الكروب الملمَّة. لا أن يكون كما عند الآخرين في دُورِ العبادة، ذاتِ المنظرِ البرَّاق البهيج .. ولكنها جوفاء.

---

(1) تفسير الفخر الرازي، المشتهر بالتفسير الكبير مفاتيح الغيب للإمام فخر الدين محمد الرازي، الشهير بخطيب الري ج4، ص: (11). باختصار، ط: دار الفكر بيروت. ط أولى 1401هـ 1981م

(2) شبيهٌ بهذا قول الله تعالى: ﴿ وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ﴾ {الحج: 45} قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره لها: «لا يستقى منها، ولا يردها أحد بعد كثرة وارديها والازدحام عليها» ج5، ص: (438). وفي تفسير الطبري: «عطلها أهلها: تركوها.. التي قد تركت .. لا أهل لها» جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تفسير الطبري، ج 16، ص: (591/590). تحقيق عبد المحسن التركي. ط دار هجر.2001م. وكثيرا ما نعى الله على هؤلاء الذين عطَّلوا حواسَّهم فلم يهتدوا بها إلى الإيمان؛ كقوله تعالى: ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ﴾، فلما كانوا كذلك معطِّلين لها؛ أصبحوا كما وصفهم الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ {الأعراف: 179}. وعلى كلٍّ فالمقصود من ذلك: أن تعطيلها لم يكن بهدمها ولكنه كان بمنعها عن وظيفتها وهي سُقيا الناس كما في مثال البئر المعطَّلة، والتفكُّر في آيات الله تعالى؛ ومن ثمّ الإيمان به، كما في مثال الحواس، فهي موجودة ولكنها لا تعمل.

هذا .. وليُعلم أن من رسالة المسجد: «**رفع المستوى الثقافي للأمة**؛ وذلك عن طريقين؛ الأول: تدبر ما يُتلى من القرآن في الصلوات الجهرية وخطب الجمعة، والقرآنُ كتاب يتحدث في العقائد والعبادات والأخلاق والقوانين والشئون المحلية والدولية، ويصفُ الكون ويَسردُ التواريخ مثلما يتحدث عن الله وصفاته وحقوقه سواء بسواء. وقد كان ذلك المصدر الأول للمعرفة عند السلف، .. وأما الطريق الثاني لتثقيف الأمة فهو الدروس التي انتظمت في ساحات المساجد، تتناول جميع العلوم، بل إن الشِّعر كان يُلقى في المسجد، وكان الصحابة يسمعون إلى حسان بن ثابت وهو يُنشد قصائده السياسية، ومعروف أن المدارس الفقهية الكبرى كانت في المساجد وأن الأئمة العِظام كانوا يَلقون تلامذتهم فيها، والفقه والإسلامي يحتوي على كل ما يهم البشرية من المهد إلى اللحد»[(1)].

ويدل على أهمية المساجد في هذا الموضوع ـ موضوع التحديات ـ أمرٌ آخر وهو: أن أعداءنا لا يتركون سبيلا من السبل يستطيعون من خلاله إبعادنا عنها إلا وسلكوه، فعن عائشة رضي الله عنها، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إنهم لا يحسدونا على شيء كما يحسدونا على يوم الجمعة التي هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى القبلة التي هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام: آمين)[(2)]، وهذه الأشياء الثلاثة على اختلافها إلا أنها تتعلق بالمساجد، وما هذا الحسد إلا صورة من صور حسدهم الأكبر الذي وضَّحه الله تعالى لنا وبينه؛ إذ قال: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا **حَسَدًا** مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ {البقرة: 109}، فلازم الأمر أنهم سيصدونهم عن المساجد والجماعات.

---

(1) مائة سؤال عن الإسلام؛ محمد الغزالي، الجزء الثاني (13: ما دور المسجد في الإسلام؟) ص: (97). هدية هيئة كبار العلماء، ضِمن منشورات مجلة الأزهر، عدد صفر (1439هـ). الجزء الثاني السنة (91).

(2) أخرجه أحمد في مسنده، واللفظ له، برقم: (6/ 135) وفي تحقيق شعيب الأرنؤوط برقم: (25029) قال: «حديث صحيح»، والبخاري في الأدب المفرد، باب: (فضل السلام) برقم: (988) ابن ماجة في سننه كتاب: (إقامة الصلاة)، باب: (الجهر بالتأمين)، برقم: (856). وقال في مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجة للإمام البوصيري: «هذا إسناده صحيح ورجاله ثقات، احتج مسلم بجميع رجاله»، تحقيق: خليل مأمون شيحة. ج1، ص: (466). دار المعرفة، بيروت لبنان.

ولأن الذي يتشبع بهذا الداء ـ داء الحسد ـ لا شك أنه سيسعى لتحقيق هدفه من زوال النعمة التي يَحسِدُ المحسودَ عليها؛ وهذا السعي إما أن يكون عن طريق: الأقوال، أو الأفعال، أو ـ عند عجزه عن الأقوال والأفعال ـ بالعين؛ إذ هي من جوارح الحسد الأصيلة[1].

فمن **الأقوال** التي ينفثون من خلالها حِقدَهم وحسدَهم؛ ما أسسه حكماؤهم في بروتكولاتهم قائلين: «وسيَفضح فلاسفتُنا كلَّ مساوئ الديانات الأممية ـ غير اليهودية ـ»[2]، وما من شكٍّ ـ ولو يسير ـ في أن الإسلام ليس فيه مساوئ؛ وإنما هي الشبهات التي يثيرونها عليه في عقائده وعباداته ومعاملاته وشعائره والهدف الأعظم من ذلك هو صرف المسلمين عن دينهم وشعائرهم. فإلقاء الشبه والشهوات أمام المساجد وروَّادِها، وتضخيمُ أخطاء المصلِّين وإذاعتُها، والتشهير بهم وكأن لم يكن في المخطئين أحدٌ غيرُهم، وتصوير المساجد بصورة تجعلها حجرَ عثْرة أمام التقدُّم والرقي؛ كما وُصفت قبل ذلك دور العبادة في الغرب من الكنائس التي أحكمتْ قبضتها على كلِّ شيءٍ بتعاليمها المحرفة وبقساوستها ورهبانها وأحبارها؛ فحاربتْ العلماء والأمراء وحاربت حتى الفطرة الإنسانية فكانت النتيجة؛ أن ثار أتباعها عليها فهجروها وجعلوها بذلك هيكلاً لا روح فيه ومظهراً حضاريا لا غير!!. فأرادوا بهذا الصنيع إلحاق المساجد بهذه الأماكن التي لا يُعبد فيها إلا الشيطان، والمقصود من كلِّ هذا هو صرف الناس عن المساجد.

وقد يكون **العمل** الذي يتبعه هؤلاء لزوال تلك النعمة من المحسود؛ موازيا ومساوياً في الظاهر ما عند المحسود، كما قام أبو عامر الراهب وجماعةٌ من المنافقين ببناء مسجد الضرار[3]، فهو مسجد بُني لصرف الناس عن مسجد النبي صلى الله عليه وسلم!! فكان جزاؤه الهدم والحرق.

---

(1) كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (العين حق)، أخرجه البخاري، ك: (الطب)، باب: (العين حق) برقم: (5740)، ومسلم في ك: (السلام)، باب: (الطب والرقى والمرضى) برقم: (2187، 2188 وفيه زيادة). وغيرهما.

(2) بروتوكولات حكماء صهيون، البرتوكول الرابع عشر. ص: (158). ط مكتبة الإيمان. المنصورة. مصر.

(3) يُنظر قصة هذا المسجد وسبب بنيانه وهدمه في تفسير ابن كثير ج4، ص: (210 ـ 217).

وأما عن **العين** وما يقوم مقامها من أدوات الحسد؛ فما قول الله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ {القلم: 51}[1] **عناّ ببعيد**، وكذلك خبرُ سِحْرِ النبي صلى الله عليه وسلم الذي تولى كِبره يهودي، بينه وبين المنافقين حِلفٌ؛ وهو لبيد بن الأعصم[2].

هذا .. ولقد تعددت صور عزوف الناس عن المساجد والرغبة عن العلم الذي يُدرس فيها؛ فمن هذه الصور:

1. عدم شهود الصلوات المكتوبات في جماعة أو حتى فرادى.
2. عدم الاهتمام بالمساجد؛ الاهتمام اللائق بها وبالرسالة التي تؤديها. فترميمها وتشييدها[3] وإبرازها بصورة جميلة أمام عيون الناظرين أمرٌ في الوجود ليس بالصورة المرجوة.
3. بُعد الفئات العُمرية الشبابية ـ (مرحلة ما قبل المراهقة ـ ومرحلة المراهقة ـ ومرحلة ما دون الأربعين) ـ؛ عن المساجد حتى أصبحت في غالب أمرها لكبار السن ممن أحيلوا على المعاش أو كادوا.
4. خُلوُ كثير من الأماكن ذات الكثافة السكانية العالية من المسلمين عنها.
5. وإذا ما تجاوزنا حدودَ المكان واللغةِ العربية والمحيطِ الإسلامي؛ إلى دولٍ ليس فيها شعار الإسلام ظاهراً؛ لوجدنا القوانين تُسنُّ لأجل منع الآذان من أن

(1) يُنظر تفسيرها في تفسير ابن كثير، ج8، ص: (202 ـ 207).

(2) أخرجه البخاري: كتاب: (بدء الخلق)، باب: (صفة إبليس وجنوده)، برقم: (3268)، وكتاب: (الطب)، بأرقام: (5763 ـ 5766) وكتاب: (الأدب)، باب: (إن الله يأمر بالعدل والإحسان .. وترك إثارة الشر على مسلم أو كافر)، برقم: (6063)، وكتاب: (الدعوات)، باب: (تكرير الدعاء) برقم: (6391)، وأخرجه مسلم: كتاب (السلام)، باب: (السحر) برقم: (2189). وابن ماجة: كتاب: (الطب)، باب: (السحر)، برقم: (3545) وأحمد في مسنده، بأرقام: (24300، 24347، 24348، 24650). وغيرهم.

(3) المقصود بالتشييد ليس هو ما نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم؛ إذ قال عليه السلام: (ما أمرت بتشييد المساجد)، أخرجه أبو داود في سننه، كتاب: الصلاة، باب: في بناء المساجد، برقم: (448)، ولكن المقصود هنا خلوها في كثير من الأحيان من مقومات الاستعمال الآدمي.

يُرفع، بل ومنع بنيان المساجد في هذه الأماكن. فكان هذا من صور عزوف الناس ـ الأقليات المسلمة هناك ـ عن بيوت الله تعالى.

فكان هذا الواقع المتعلق بالوسيلة الأولى والمباشرة للدعوة الإسلامية؛ يُشكِّل تحديا كبيراً، لا سيِّما ونحن نريد من الجماهير أن يلتفوا حولها ـ أي المساجد ـ، وأن يجعلوا ثقتهم في القائمين على أمرها، وأن تكون المساجد مصدرا أصيلاً من مصادر تكوينهم الثقافي.

المطلب الثالث: نُدرة الكوادر والمرجعيات العلمية.

صحَّ عَن رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إِنَّمَا النَّاسُ كَالْإِبِلِ الْمِائَةِ. لَا تكاد تجد فيها راحلة)[1]. فالناس من حيث الكثرة لا يعلم عددَهم إلا الله تعالى، وهذه الكثرة الهائلة لا يحمل همَّها ولا يكشف كروبَها إلا النذرُ اليسير؛ الذي إذا ما قُورن عدَدُهم بتلك الكثرة الهائلة ـ لا أقول ـ كانت النسبة ضعيفة أو ضئيلة؛ بل كادتْ أن تكون منعدمة، وهذا على عموم الناس.

وأما إذا جعلنا تلك النظرة خاصة بالمسلمين؛ فالأمر لا يخرج عن ذلك أيضا، فأهل الفضل، وأهل العلم، وأهل التقوى والورع؛ قليلون جدا بالنسبة لغيرهم. وهذا واقع ملموس ومشاهد لا شك فيه، فعندنا نُدرةٌ في هذا الأمر؛ فـ: «العلماء الذين هم عند أهل السنة ذرائع لمعرفة الحكم الشرعي، وطاعتهم مقيدة بهذا الاعتبار؛ إذ ليستْ لهم طاعة مطلقة ولا طاعة ذاتية، وليس لهم حق في التشريع المطلق، ولا يتجاوز دورهم حفظَ نصوص الوحي وفهمَها واستنباطَ الأحكام منها، والنظر في النوازل وبيان الحكم

(1) البخاري، كتاب: (الرقاق) باب: (رفع الأمانة) برقم: (6498) واللفظ له، ومسلم، كتاب (فضائل الصحابة)، باب: (الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة)، برقم: (2547) بلفظ: (... لا يجد الرجل فيها راحلة). وغيرهما.
قال ابن حجر في الفتح: «قال الخطابي: تأولوا هذا الحديث على وجهين: أحدهما: أن الناس في أحكام الدين سواء ... والثاني: أن أكثر الناس أهلُ نقص، وأما أهل الفضل فعددهم قليل جداً، فهم بمنزلة الراحلة في الإبل الحمولة، ومنه قوله تعالى: ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ ... وقال الأزهري: الراحلة عند العرب الذكر النجيب والأنثى النجيبة، وقال القرطبي: الذي يُناسب التمثيل أن الرجل الجواد الذي يحمل أثقال الناس والحمالات عنهم ويكشف كربهم عزيز الوجود كالراحلة في الإبل الكثيرة». فتح الباري ج14، ص: (662، 663) ط دار طيبة.

الشرعي فيها بالرد إلى نصوص الشريعة وقد يُصيبون وقد يُخطئون»[1]. فهذا الصنف من العلماء هو عندنا كما وصف النبي صلى الله عليه (لَا تكاد تجد فيها راحلة).

فإن المتتبع لتاريخ المسلمين الزاهر الباهر لا يجد عصرا من عصورهم قد خلا من هذه المرجعيات والكوادر العلمية الموثوق في عِلمها؛ فمثلا: إذا ما طوينا عهد النبي صلى الله عليه وسلم وعهد خلفائه الراشدين ـ إذ هو أمر موفور عندهم لا يجحده إلا مكابر، والمُستدلُّ عليه كمن يطلب الدليل على سطوع الشمس في وسط النهار ـ، إذا ما تجاوزنا ذلك وجدنا:

عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وسعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، وسليمان بن يسار، والقاسم بن محمد بن أبي بكر، ونافع مولى ابن عمر، وابن شهاب الزهري، ومجاهد بن جبر، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، وعمر بن عبد العزيز، ...

ثم .. وجدتَّ أمام عينيك بعد ذلك الأئمةَ أبا حنيفة ومالكا والشافعي وأحمد.

ثم .. البخاري ومسلما وأبا داود والترمذي وابن ماجة والدارمي والبيهقي.. وغيرهم من أئمة الحديث والفقه.

وإذا ما تجازونا الزمان شيئا ما، وجدنا علماء أجلاء على أكتافهم قامت للثقافة الإسلامية نهضةٌ عاليةٌ؛ أمثال: الجويني، والغزالي، والنووي، وابن تيمية وتلامذتهم، ثم ابن حجر العسقلاني، ثمَّ بدر الدين العيني ثم السيوطي والسخاوي والشوكاني[2].. وغيرهم كثير.

---

(1) الجهل والتخلف وغياب المرجعية، د/ فتحي محمد الزغبي، (أستاذ العقيدة والثقافة الإسلامية بجامعة الشارقة ـ الإمارات المحتدة) ص: (44)، وهو بحث مُقدَّم إلى مؤتمر مكة المكرمة الخامس عشر (الثقافة الإسلامية .. الأصالة والمعاصرة) برابطة العالم الإسلامي 1435هـ 2014م.

(2) أعرضتُ عن ترجمة هذه الأعلام؛ لأمرين:

أولهما: أغنت شهرتهم عن الترجمة بهم.

ثانيهما: حتى لا يخرج البحث عن مضمونه.

إن على الأمَّة بمجموعها أن تسعى في توفير مثل هذه الرموز الثقافية التي يرجع الناس إليها عند النوازل والمستجدات؛ إذ أنه من فروض الكفايات التي تأثم الأمة بالقعود عنها. فالناس في حاجة ماسَّة إلى من يُداوِي جراحاتهم الإيمانية والأخروية أكثر من الجراحات البدنية الدنيوية.

ولكي نتخيل حجم النُّدْرةِ التي نعيشها في هذا الجانب؛ نتخيل مثلا بلداً كمصر ـ حفظها الله وبلادَ المسلمين ـ بها عدد كبير من الجامعات ـ تقريبا لا تخلوا محافظة من محافظاتها عن جامعة ـ وكل جامعة بها كلية للطب والصيدلة أو أكثر من كلية، وفوْر تخرج هؤلاء الطلبة منها يتم تعيينهم؛ ومع هذا العدد الضخم نشتكي من قلة المستشفيات والأطباء وغير ذلك مما هو متعلق بهذا المجال وكلٌّ ذلك في علاج الأبدان[1]، وأما في علاج أمراض القلوب التي تؤثر على عقيدة الإنسان سلبا وإيجابا فإما إلى الجنة أو إلى النار؛ فهي جامعة واحدة ـ جامعة الأزهر ـ، تقوم بتعليم الدعاة في بعض كلياتها؛ وليس كل الخريجين من الكليات المخصصة لذلك يتم تعيينهم، وإنما يُعيَّن العدد القليل الذي لا يتناسب مع عدد الجماهير.

وهذا كله إذا كان الداعية نُموذجاً يُقتدى به ويُحتذى؛ ولم يكن كما نراه صادَّاً عن دعوته بأخلاقه وتعاملاته!!، أو يكون جاهلا بدعوته، وجاهلاً بدينه، أو متكالباً على الدنيا عازفاً عن الآخرة، ناظراً ومتطلعا لما في أيدي الناس، يسعى في وُدِّهم مؤْثِرا رضاهم على مرضات ربه تبارك وتعالى!!.

---

(1) نشرت جريدة اليوم السابع في مقال لها بعنوان: «مصر تواجه عجزا في "الأطباء".. النقابة: طبيب لكل 800 مواطن في مصر مقابل 350 لكل مواطن عالميا.. ونعانى عجزا بالمستشفيات.. و1800 قرية دون طبيب والأقصر بها أخصائي تخدير واحد.. و69 ألفا يعملون بالسعودية». بتاريخ (7 مارس 2015م)، وأوضح المقال بأن عدد الأطباء لا يتعدى (مائة ألف).

ولمعرفة الأمر الذي ذكرته هنا فإن عدد الدعاة في نفس البلد ـ مصر ـ في أحسن أحواله نصف عدد الأطباء. ومع ذلك فإن العجز في المجال الدعوي قد وصل إلى (50%) كما صرح بذلك الشيخ جابر طايع رئيس القطاع الديني بوزارة الأوقاف. فبذلك تكون نسبة الأئمة إلى الجماهير تقريبا (إمام لكل ألف وخمسمائة مواطن تقريباً)!!.

وأقول .. هل نرى بأعيننا داعيةً تصدَّى لدعوة الناس قد جمع مذهباً من المذاهب الفقهية المعتَمَدة عند أهل السنة والجماعة بأصوله وقواعده وفروعه ـ ولا أقول كلّ المذاهب ـ؟، هل ترى داعية جمع أحاديث الأحكام فضلاً عن الصحيحين ولا أقول الكتب الستة أو التسعة؟! هل ترى داعية حفظ القرآن وتفسيره ولا أقول كل القرآءات المتواترة؟! هل ترى داعية على علم كاف بعلوم الآلة من اللغة العربية ومصطلح الحديث والمنطق ـ ولا أقول متبحراً فيها ـ؟! هل ترى داعية على علم بتاريخ المسلمين منذ بداية الدعوة الإسلامية وإلى وقتنا هذا؟ هل ترى داعية نستطيع أن نَكِل إليه الردَّ على الشبهات التي تُثار حول الإسلام؟ هل ترى هذا الداعية .. أظنُّ أنك ستقول مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم (لا تكاد تجد فيها راحلة)!!

إننا في حاجة ماسّة إلى نُموذج كهذا الذي قصَّ الله علينا في القرآن الكريم؛ نموذج دعا قومه إلى عبادة الله واتباع سبيل المرسلين، وتحمل في سبيل ذلك المشاق، وأخذ يُقيم الحجج ويُفنِّد الشبه، .. هذا هو الذي قال الله عنه: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ {يس: 20 ـ27}.

ويظهر هذا الأمر في الأزمات واضحاً؛ إذِ الناسُ لا يجدون من يوجههم وِجهة صحيحة، لأن من يلجئون إليه في تلك الأزمة ليس أهلاً، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾{النساء: 83}، فنحن في حاجة ماسة إلى من يستنبط الحكم الشرعي عند حدوث النوازل وتوجيه الناس إلى ما فيه صلاح أمرهم.

إن هذا الأمر ـ نُدرة الكوادر والمرجعيات العلمية ـ قد ظهر أثره في صور مثَّلتْ أمام الدعاة المخلصين تحديّاً كبيراً؛ ومنها:

1. تصدَّر للدعوة وتعليم الناس قوم هُم إلى الجهل أقرب منه إلى العلم وأهله!!
2. نُفرة الناس من العلم الصحيح الصافي المنبع والفهم؛ فهم لم يسمعوه فضلا عن أن يألفوه.
3. الجهل المركب؛ الذي يتطلب من الداعية أوقاتاً مضنية حتى يُزيل ما علق بالأذهان أولاً ثم يجعل فيها بعد ذلك الأمرَ الصوابَ الصحيحَ.
4. فقدان الثقة عند الجماهير بالدعاة الذين هم كمثل الراحلة من بين الإبل المائة.
5. انتشار البدع والخرافات التي تفشت في المجتمع.
6. ضعف المناعة الدينية؛ بل وانعدامها عند كثير من الجماهير؛ وذلك إذا ما واجهوا شبهاتٍ تشكك في دينهم وثوابتهم.

وغير ذلك من الصور الواضحة التي ظهرت، وكان سببها هو هذا التحدي.

المطلب الرابع: الأفكار الهدامة.

ما تميَّز الإنسان من بين مخلوقات الله تعالى إلا بعقله[1] وحُسْنِ قوامه[2]، وقد لا يكون للقوام الحسن مزيَّة إذا أصيب صاحبه بما يُذهب عقله كلياً ـ كالجنون ـ أو جزئيا ـ كالإغماء والصرع ـ؛ فتراه مع هذه الأمراض كاشفاً عن سوأته، مُغيبا عن عالَمِه، مُضْحِكاً من حوله بهذيان حديثه. فعاد الأمر في أوَّله وآخره إلى العقل، فبه سما وارتفع عن درجة الحيوانية وصورها.

ولكن لابد من بيان: «أن العقل والوحي من عند الله تعالى، إلا أن العقل محدود بعالم الشهادة ولا دخل له في عالم الغيب، كما أنه تعتريه مؤثرات وتغشاه غواش، مما يجعله ينحرف عن الجادة، بينما الوحي يجمع بين عالم الغيب وعالم الشهادة، ولا يعتريه ما يعتري العقل، ولا يصاب بما يصاب به العقل، ومن هنا تأتي حاجة الإنسان إلى الوحي، فالوحي هو الهادي للعقل فيما ليس له القدرة على تحصيله ومعرفته والوصول إليه، وهو المسدِّد له في كل أحواله وظروفه وقضاياه، وعليه فإن العقل والوحي نعمتان عظيمتان أنعم الله تعالى بهما على الإنسان لهدايته وإسعاده في الدارين، فهما وسيلتان من وسائل المعرفة والهداية، فلا تعارض بين النقل الصحيح والعقل السليم، فلا يوجد مسلم إلا ويؤمن بالعقل كما يؤمن بالوحي، نعم .. العقل البشري قاصر وغير معصوم بينما الوحي كامل ومعصوم»[3]، فالعقل بغير هدىً من الله سبحانه وتعالى يسيرُ نحو الدركات. فالإنسان بغير وحي في ظلام يعيش؛ وإن كان معدودا من العقلاء، وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ـ وهو مَنْ هو في رجاحة عقله ورزانة فِكره ـ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا

(1) إذ هو مناط التكليف؛ في قول الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ﴾ {الأحزاب: 72}.

(2) إذ هو المُقسم عليه في قول الله تعالى: ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ﴾ {التين:1- 4}.

(3) من مقال بعنوان: (العلاقة التلازمية بين العقل والوحي ... للدكتور يوسف السرحني) بمجلة الحارة العمانية، على هذا الرابط: (http://alharah2.net/alharah/showthread.php?t=3022).

ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾ {الشورى: 53/52}.

إن الفهم الخاطئ لقضية التلازم بين الوحي والعقل؛ أدى إلى وقوع كثير في الأخطاء العقائدية والتعبدية والأخلاقية، وهذا إذا ما نظرنا إلى المحيط الإسلامي فحسب؛ الذي قال عنه الرسول صلى الله عليه وسلم: (وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة)[1]، وإذا توسَّعنا في النظرة؛ لوجدنا أممَ الأرض مختلفةً اختلافاً كلياً وجزئياً عن المنهج الإسلامي الذي عليه المسلمون، وهذا الاختلاف ما هو إلا نتيجةٌ حتميةٌ لاختلاف عقولهم، واختلافُ بُعدِها وقُربِها عن النبع الإلهي الصافي، وكلُّها أفكارٌ تخالف ما عليه أهل الحق من المسلمين، ويرونها كذلك هدَّامة، يجب الحذر منها.

وأمر هذه الأفكار من أخطر ما يكون على الساحة الإسلامية؛ حتى إذا لم يَسْعَ أصحابُها في نشرها وبسطها على الجماهير، فما بالنا إذا علمنا بأنهم لا يكلّون ولا يملون في نشر مقالاتهم وآرائهم، الأمر الذي يُحتِّم علينا أن نسعى في تحقيق أمنٍ فِكْرِي يُحصِّن شبابنا وقومنا منها؛ فإن من أهم أنواع الأمن؛ "الأمن الفكري": «بل هو لبُّ الأمن وركيزته؛ لأن الأمم والأمجاد والحضارات إنما تُقاس بعقول أبنائها وأفكارهم، لا بأجسادهم وقوالبهم، فإذا اطمأن الناس إلى ما عندهم من أصول وثوابت، وأمنوا على ما لديهم من قِيَمٍ ومُثلٍ ومبادئ، فقد تحقق لهم الأمن في أسمى صوره وأجلى

(1) أخرجه: أبو داود ك: (السنة)، باب: (شرح السنة)، برقم: (4596)، والترمذي، ك: (كتاب الإيمان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم)، باب: (ما جاء في افتراق هذه الأمة)، برقم: (2460) وقال: «وفي الباب عن سعد، وعبد الله بن عمرو، وعوف بن مالك وحديث أبي هريرة ـ حديث الباب ـ حديث حسن صحيح»، وابن ماجة: ك: (الفتن)، باب: (افتراق الأمم)، برقم: (3991). وغيرهم بزيادات وألفاظ متقاربة.
وقد تناول هذا الحديث ببيانٍ شاف كثير من العلماء منهم: الإمام عبد القاهر البغدادي (ت:429) في كتابه (الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم) ينظر بتحقيق: محمد عثمان الخشت (ص: 23 ـ 39)، ط: مكتبة ابن سينا القاهرة. وذكر أن اختلاف الفقهاء في مسائل الفروع ليس داخلاً في هذا الباب.

معانيه، وإذا تلوثت أفكارهم بمبادئ وافدةٍ، وأفكارٍ دخيلةٍ وثقافاتٍ مستوردةٍ، فقد جاس الخوف خلال ديارهم، ذلك الخوف المعنوي الذي يهدد كيانهم ويقضي على مقومات بقائهم، لذلك حرصت الشريعة الغراء على تعزيز الأمن الفكري لدى الأفراد والمجتمعات والأمم، وكان لها الدور المُجلَّى والقدح المعلَّى في ذلك عن طريق وسائل متعددة أسهمت في حمايته والحفاظ عليه من كل قرصنة فكرية، أو سمسرة ثقافية تهز مبادئه، أو تخدش قِيمه أو تمس ثوابته وعقيدته»[1].

ثم إن العقل: «إذا غُذّيَ بعقائد وأفكار ومعلومات فاسدة؛ يسوء تصوره، ويَفسدُ، ويَضلُ، ويُصبح أخطر من العقل الخالي من المعلومات، لأن هذا الأخير يُمكن أن يهيأ له مَن يُغذيه بالعقيدة السلمية والفكر الصحيح والمعلومات الصادقة، فيكون قبوله لها سهلا، بخلاف العقل الذي غُذي بمعاني فاسدة وتشرب بها وتمكنت منه، فإن انتزاع تلك المعاني الفاسدة منه وإحلال معاني صحيحة محلها ليس سهلاً، بل قد يكون من الصعوبة بمكان، وهذا واضح في أهل الملل المختلفة في العالم، وفي أصحاب العقول التي تمكنت منها التبعية العمياء، والتقليد الأعمى الذي عطّل عقولهم عن وظيفتها»[2].

وعليه .. فإن الناظر في المحيطِ الدعويِ حوله؛ يجد في هذا الباب أفكارا هدامة تُمثِّل عقبة كؤودا، وتحديًا من أصرح التحديَّات التي فرضت نفسها ليس على المستوى الدعوي فحسب بل على كافة المستويات. وكان من أبرزها ظهورا:

- **الإلحاد**[3].

---

(1) الأمن الفكري وأثر الشريعة الإسلامية في تعزيزه، ص: (7)، أ. د/ عبد الرحمن بن عبد العزيز السديس. من إصدارات الرئاسة العامة لشئون المسجد الحرام والمسجد النبوي؛ **إدارة الأمن الفكري**. (المملكة العربية السعودية).

(2) العقل .. دراسة مقاصدية في المحافظة عليه من حيث درء المفاسد والمضار عنه؛ (في ضوء تحديات الواقع المعاصر) ص: (310)، د/ حسن سالم مقبل أحمد الدوسي، (بحث منشور بمجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، العدد 72 لسنة 1429هـ 2008م.. جامعة الكويت).

(3) للتوسع في هذا الموضوع يُراجع كتب:

1. الخطر الشيوعي في بلاد الإسلام، د/ محمد شامة، ط: 1399هـ 1979م، مطبعة الجامعات دار أسامة.

وهو في اللغة: «الميلُ والجوْر»[1]، وفي الاصطلاح: «الشك في الله أو في أمر من المعتقدات الدينية»[2]، فهو فِكْرٌ مبناه على إنكار الذات الإلهية، أو على أقل الأحوال الشك فيها، وهو: «مذهب فلسفي يقوم على إنكار وجود الله سبحانه وتعالى، ويذهب إلى أن الكون بلا خالق، ويُعَدُّ أتباع العقلانية هم المؤسسين الحقيقيين للإلحاد، الذي يُنكر الحياة الآخرة، ويرى أن المادة أزليةٌ أبديةٌ، وأنه لا يوجد شيء اسمه معجزات الأنبياء؛ فذلك مما لا يقبله العلم في زعم الملحدين؛ الذين لا يعترفون أيضا بأيَّة مفاهيم أخلاقية، ولا بقيم الحق والعدل ولا بفكرة الروح، ولذا فإن التاريخ عند الملحدين هو صورة للجرائم والحماقات وخيبة الأمل وقصته لا تعني شيئاً، والإنسان مجرد مادّة تطبق عليه القوانين الطبيعية كافة»[3].

---

2. المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات وموقف المُسلم منها، د/ غالب بن علي عواجي، ج2 ص: (999 ـ 1018) المكتبة العصرية الذهبية. ط: 1427هـ.
3. حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، عباس محمود العقاد، ج 5 ص: (15 ـ 281) من موسوعة عباس محمود العقاد، ط دار الكتاب العربي، بيروت، ط أولى (1391هـ ـ 1971م).
4. الإلحاد (أسباب هذه الظاهرة وطُرق علاجها)؛ بقلم: عبد الرحمن عبد الخالق، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد. الرياض / المملكة العربية السعودية. 1404هـ.
5. الإلحاد (أسبابه، طبائعه، مفاسده، أسباب ظهوره، علاجه). محمد الخضر حُسين. مكتبة ابن تيمية الكويت وغيرها.
6. ويُنظر كذلك كِتابات ومحاضرات الشيخ م: عبد الله بن صالح العجيري، والدكتور: سامي عامري؛ أمثال: (شموع النهار، ميليشا الإلحاد، فمن خلق الله؟، مشكلة الشر، براهين وجود الله في النفس والعقل والعلم ...).
7. وينظر كذلك إصدارات مركز: براهين، ومركز تكوين. ومركز دلائل فمعظمها يُناقش هذه القضايا.

(1) يُنظر في هذه المادة اللغوية؛ لسان العرب لابن منظور. مادة: (لحد) ص: (4005).

(2) الموسوعة الإسلامية العامة، ص: (197)، من إصدارات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، بمصر إشراف: أ. د/ محمود حمدي زقزوق. ط: (1424هـ ـ 2003م). وجاء في مفردات الراغب الأصفهاني: «ألحد فلانٌ مال عن الحق، والإلحاد ضربان: إلحاد إلى الشرك بالله، وإلحاد إلى الشرك بالأسباب؛ فالأول ينافي الإيمان ويُبطله، والثاني يُوهِن عراه ولا يُبطله» ص: (452)، ط التوقيفية، مصر.

(3) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، ج2 ص: (803 ـ 807). الندوة العالمية للشباب الإسلامي، بإشراف د/ مانع بن حماد الجهني، ط: الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، الرابعة 1420هـ.

إن هذا الفكر الهدّام يقوم على شبهات يُلقيها أصحابُها أمام الجماهير السُّذج، الذين لا يستطيعون تمييزاً بين الحق والباطل، وهي شبهٌ ترتكز على بعض النقاط المتعلقة بقضايا العقيدة والسلوك؛ أمثال:

- مشكلة الشر[1].
- الإيمان بالغيبيات.
- الإيمان بالقضاء والقدر.
- حديث القرآن الكريم عن الإعجاز العلمي في خلق السموات والأرض والإنسان.
- الربط بين السلطة الدينية والدنيوية[2].
- ما يُقال من الشبهات عن المرأة في الإسلام[3].

ويعتمد أصحاب هذه الشبه حال إلقائها على الجماهير طُرقاً شتى؛ منها:

- **الحوار العقلي:** "ولو كانوا من أصحابه لما كانوا ملاحدة، فالإيمان والعقل لا يختلفان ولا يتعارضان"[4]. وقد حدث لي مع هذا الفكر الجدلي العقيم؛ الذي يريد له مجالاً في المجتمع المسلم حوارات[5]؛ منها:

قال لي أحدُهم ـ وكان طالباً بالجامعة ـ؛ وعلى علاقة قوية ببعض الملاحدة في بلده: يا شيخ هل المسلم العاصي الذي يرتكب جميع المحرمات ولا يدع منها شيئا، وأخلاقه بصورة لا تُرضي أحدا؛ هل هذا أفضل من غير المسلمين الذين يقومون بالأعمال الخيرة وأخلاقهم طيبة وينفعون مجتمعاتهم بالكثير ولا

(1) وقد تناولها بالتفصيل د: سامي عامري في كتابه (مشكلة الشر).

(2) وقد تناول من هذه الجزئيات (الثالثة والخامسة)؛ د/ محمد عبد الحكيم عثمان، في كتابه: جهود المفكرين المسلمين المحدثين في مقاومة التيار الإلحادي .. في الفصل الثاني والثالث، من الباب الثاني). ط: مكتبة المعارف، الرياض.

(3) وقد تناول ذلك الأمر بشيء من التفصيل والرد على بعض الملاحدة؛ د/ مصطفى محمود، في حواره؛ يُنظر: (حوار مع صديقي الملحد) له، (ص57 ـ 65) ط: دار العودة، سنة 1986م.

(4) وقد ألَّف شيخ الإسلام ابن تيمية كتابا في هذا الباب ماتعاً: (درء تعارض العقل والنقل) ط: جامعة الإمام محمد بن سعود، بتحقيق محمد رشاد سالم عام:1411هـ 1991م.

(5) ولا أنْسُبُ هذه الحوارات إلى ملاحدة؛ فهي حوارات مع بعض الشباب الذين تأثروا بما يسمعون أو يُلقى عليهم.

فرق بينه وبين المسلم إلا قول (لا إله إلا الله ومحمد رسول الله)!؟ قلت له: نعم. قال: فكيف؟ قلت له: اسمع.

وهذا مثلٌ لما بعده: (رجل مريض به كافة أنواع المرض ما بين ـ الكبد والقلب والسكر وجميع الأجهزة الداخلية عنده ليست على صورة صحيحة، .. وشخص آخر ليس في جسده أي مرض بل جسده في صورة هي من أحسن الصور غير أنه ميِّت) قلت له من الأفضل؟ فقال بلا شكٍ: الحي؛ فقلت له فكذلك عندنا في الإسلام شهادة التوحيد هي الروح، وإن كان يُصاحِبُ صاحبَها كثيرٌ من الأمراض؛ والآخر وهو الميت في حكم الشرع وإن كان جسده سليما فلا روح فيه وإن كان بين الأحياء معافى. وصدق الله إذ يقول: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾{الأنعام: 122}.

وقال آخر ـ وكان يُصلِّي معي في مسجدي ـ الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ﴾ {الرعد: 2}؛ فمن الآية هناك عمدٌ ولكننا لا نراها فالله ـ يضحك علينا " بتعبيره" ـ!! فقلت له سبحان الله! فما مرجع الضمير في "ترونها"؟ قال إلى العمد. قلت بل يعود إلى السماء، فكأن الله قال: خلقت السماء بغير عَمَدٍ كما ترون السماء بأعينكم. وعلى كلٍّ: فإذا كان الضمير يعود إلى العمد؛ فهل تؤمن بقانون الجاذبية الأرضية؟ قال: نعم. فقلت فلماذا لا تكون هذه الأعمدة التي لا نراها مثل تلك الجاذبية التي لا تراها وأنت تؤمن بها ويكون هذا أبلغ في الإعجاز والقدرة الإلهية!

وقال آخر ـ بعد كلام طويل عن قضية القضاء والقدر ـ الله يريد أن يعذبني؟ فقلت له: لماذا؟ قال: لأنه لا يريدني أن أصلي. فقلت له وما الذي أعملك هذه الإرادة، أو من أين علمت أن الله يريد بك ذلك؟. وسامحني سأقلب عليك السؤال: لماذا لا تُصلي وتقول الله أراد لي أن أصلي؟!، فلا تحتج بقدر الله تعالى على معصيتك؛ ولقد مرِض رجلٌ من أصحاب النبي صلى الله عليه

وسلم يُقال له أبو عبد الله، دخل عليه أصحابُه يعودُونَه، .. ـ وفيه ـ ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الله قبض بيمينه قبضة، وأخرى باليد الأخرى، وقال: هذه لهذه، وهذه لهذه، ولا أبالي) فلا أدري في أي القبضتين أنا[1]. فالواجب عليك هو العمل فحسب؛ لأنك لا تدري في أي القبضتين أنت؛ وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (اعملوا فكلٌّ مُيسر لما خُلِق له)[2].

فانظر إلى فهم الصحابة رضوان الله عليهم لأقوال النبي صلى الله عليه وسلم وعدم اتكالهم ـ سلباً أو إيجاباً ـ على ما علموه من هذه العقيدة الصحيحة[3].

ـ **يعتمدون على ترسيخ مفهوم الحرية المطلقة الغربية** التي لا تتقيد بضابط ولا يردعها رادع؛ وما هذا إلا لعلمهم أن النفس البشرية دائما تجنح إلى الشهوات وإلى المغريات، فَيُزينون للناس الرذيلة والفاحشة، ويُزينون كذلك حرية الفكر

---

(1) أخرجه أحمد في مسنده (4/ 176)، برقم: (17593، 17594) وقال محققوا طبعة دار الرسالة: «إسناده صحيح .. وفي الباب عن عبد الرحمن بن قتادة، برقم: (17660)، وعن معاذ بن جبل،(239/5)، وعن أبي الدرداء (441/6)» ج 29، ص: (134، 135). بتصرف. والمقصود "بهذه وهذه": (الجنة والنار).

(2) أخرجه البخاري في كتاب:(القدر) باب:(جف القلم على علم الله) برقم: (6596) وكتاب: (التفسير) تفسير سورة الليل، باب: (فسنيسره لليسرى)، برقم: (4949)، وكتاب: (التوحيد) باب: (ولقد يسرنا القرآن للذكر ..) برقم: (7551)، ومسلم؛ كتاب: (القدر)، باب: (كيفية الخلق الآدمي)، برقم: (2647)، وغيرهما.

(3) وقد دُعيت يوما ما: (1/ 11/ 2017م) إلى إلقاء محاضرة في مدرسة من مدارس اللغات بالمركز الجغرافي الذي أنا تابع له: (السنبلاوين)؛ وكانت هذه المحاضرة ضمن فاعليات برنامج : (الاتحادات الطلابية وترسيخ القيم الأخلاقية) من خلال التعاون بين إدارة التربية والتعليم والأوقاف؛ وكنتُ ممثلاً للأوقاف فيها؛ وقمت بإلقاء المحاضرة المتعلقة بذلك؛ وفي نهاية المحاضرة تلقينا بعض الأسئلة والتي كان **منها ـ بنصه ـ:** (س1: الإنسان مسير أم مخير، يعني حرٌّ وبيعمل اللي هو عايزه ولا بينفذ الأوامر اللي بتطلب منه؟ س2: هو ليه ربنا موجود من الأول أصلاً؟ وليه الدنيا دي مش فانيه؟ احنا ليه هانموت برده؟ ... على فكرة أنا مش ملحدة ومؤمنة بربنا وبالإسلام جداً")،

سؤال آخر ـ بنصه ـ: (ربنا من قبل ما نتولد وهو عارف احنا هنعمل أيه، وعارف هنموت ازاي، وكل حاجة مكتوبة. طب أنا أول ما اتولدت لحد ما أموت ماشي على نفس المكتوب ليا يعني بسمع كلامه وماشي على المكتوب ليا، في الآخر حاطط ليا نار وجنة؟ وازاي هخش النار وانا ماشي على اللي مكتوب ليا). وكان السؤال الأول لطالبة والأخير لطالب. فأجبت عليهما بما فتح الله تعالى عليَّ بالقليل من الكلام، إذ إدارة البرنامج لم تسمح بوقت كافٍ!! وعلى كلٍّ فلله الفضل والمنَّة؛ وهذه أسئلة تكشف عن ما يدور في أذهان جملة من الشباب المُثقَّف والذين هم من ذوي المكانة الاجتماعية المرموقة أو هكذا يُنظر إليهم (مدارس اللغات).

والاعتقاد والرأي والإبداع؛ وما الدين في سبيل ذلك ـ على قولهم ـ إلا حجر عثرة يقف أمام العقول وتحررها ـ وقد كذبوا ـ، فقد قال داعية من دعاة الإسلام يصف دينَه ورسالتَه في الحياة ـ وفيها المعنى الصحيح للحرية من خلال المنظور الإسلامي ـ «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»[1].

فالإسلام لم يأت إلا لإخراج الناس من عبادة شهواتهم وملذاتهم؛ ومن عبادة بعضهم بعضا، ومن تقديسهم لذواتهم وإعطائها حقّاً ومكانا فوق حقها؛ إلى عبادة الله الواحد الأحد الفرد الصمد سبحانه وتعالى.

ـ ويعتمدون كذلك على بعض **الشبهات التي تُثار حول الدين ككلٍّ**، وحول الدين الإسلامي خاصة[2].

ـ ويستغلون **الفراغ الفكري** لدى قطاع كبير من المسلمين الذين لا يعلمون من الدين إلا اسْمَهُ ورَسْمَهُ. إذ لم يأخذوا الدين إلا إرثاً عن آبائهم الأولين.

فهذا فكْر من الأفكار الهدامة التي لا يُتهاون بشأنها ولا بخطورتها، لأنه أصبح الآن يسير بين شبابنا سير النار في الهشيم؛ ومن لم يُعلن منهم أنه قد اعتنقه، فإنه قد تشرب بكثير من مبادئه. ويكفي لبيان خطورته ما واجهتُه أنا من حوارات مع شبابنا وأنا في مركز من مراكز الجمهورية النائية لا من القاهرة الكبرى ومحافظاتها؛ التي تنتشر فيها مثل هذه الأفكار بسهولة ويُسر[3].

وكذلك يدل على خطورته وانتشاره أن الأزهر الشريف قد أصدر في مجلته في عدد من أعدادها كتابا يتناول هذه الظاهرة تحت هذا العنوان: (حوار مع صديقي الملحد).

---

(1) البداية والنهاية .. ج7 أحداث السنة الرابعة عشرة.

(2) وسوف يأتي الحديث عنها كتحدٍّ من التحديات التي تواجه الدعوة الإسلامية في العصر الحاضر. وقد أحسن الأستاذ: أحمد يوسف السيد (المشرف على أكاديمية: صِناعة المُحاوِر .. وغيرها) في كتابه الماتع: (سابغات)؛ إذ وضع ما يُشبه الخريطة الذهنية لأبرز الشبهات التي تُثار حول الإسلام وشرائعه وعباداته.

(3) وقد أخبرت وأنا في قريتي ـ بمركز السنبلاوين، محافظة الدقهلية ـ أن عشرة من الشباب ممن ألحدوا؛ لهم موقع أو صفحة على الفيس يتواصلون من خلال ذلك، ولهم كذلك شقّةٌ يتقابلون فيها بالقاهرة.

- **التكفير.**

هو ذلك الداء العضال؛ الذي إذا ظهر في قوم استحل بعضهم دماء بعض، واستحلوا أخذ أموالهم، وانتهاك حرماتهم، وتألَّوْا على الله تعالى بما لا يعلمون؛ فحكم بعضهم على بعض بالخلود في النيران؛ فـ«الجزم بتكفير المعين وإخراجه من الإسلام خطره عظيم، وتترتب عليه آثار كثيرة، كانتفاء ولايته العامة على المسلمين، وانتفاء ولايته على ذريته، وتحريم زوجته عليه، وسقوط إرثه الذي يستحقه لو كان مسلماً[1]، وعدم حلِّ ذبيحته، وعدم جواز تغسيله والصلاة عليه إذا مات، وأنه لا يُدفن في مقابر المسلمين، وعدم جواز الاستغفار له، وما إلى ذلك من أحكام»[2]..

ولهذا ورد الوعيد الشديد فيمن كفّر مسلما؛ فلقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا يرمي رجلٌ رجلاً بالفسوق ولا يرميه بالكفر إلا ارتدت عليه، إن لم يكن صاحبه كذلك)[3]، وقال أيضاً: (ومن قذف مؤمنا بكفر فهو كقتله)[4].

فالمسلم الذي ثبت إيمانه بيقين لا يزول عنه هذا الوصف بأي نوع من أنواع الشك بل بيقينٍ كالذي ثبت إيمانه به؛ وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا فهو المسلم له ما لنا وعليه وما علينا)[5].

قال أبو جعفر الطحاوي رحمه الله: «لا يخرج الرجل من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه، ثم ما تيقن أنه ردة يُحكم بها، وما يُشك أنه ردّةٌ لا يُحكم بها إذ

---

(1) التوارث بين المسلمين وغيرهم فيه خلافات مذهبيه كثيرة، تُراجع في كتب الفرائض.

(2) ضوابط التكفير عند أهل السنة والجماعة، ص: (9) تأليف: عبد الله بن محمد القرني، ط: دار الرسالة.

(3) أخرجه البخاري، كتاب (الأدب)، باب: (ما يُنهى من السباب واللعن)، برقم: (6045). وأخرجه مسلم، كتاب: (الإيمان)، باب: (بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم يا كافر) برقم (60).

(4) أخرجه البخاري، كتاب: (الأدب)، باب: (ما يُنهى من السباب واللعن)، برقم: (6047). وأخرجه مسلم، كتاب (الإيمان)، باب: (غِلظ تحريم قتل الإنسان نفسه..)، برقم: (110) ولكنه بلفظ (اللعن).

(5) أخرجه البخاري، ك: (الصلاة)، باب: (فضل استقبال القبلة..)، برقم (391).

الإسلام الثابت لا يزول بشك»[1]، وقال القرطبي رحمه الله: «وليس قوله تعالى: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ بموجب أن يكفر الإنسان وهو لا يعلم، فكما لا يكون الكافر مؤمنا إلا باختياره الإيمان على الكفر، كذلك لا يكون المؤمن كافراً من حيث لا يقصد الكفر ولا يختاره بإجماع، كذلك لا يكون الكافر كافرا من حيث لا يعلم»[2].

فيجب على مَن علم هذه الأمور المترتبة على هذا الحكم؛ أن يُحجم نفسَه عن ذلك، فإن الله سبحانه وتعالى سيسأله عن تكفيره أخاه، ولن يسأله عن عدم تكفيره إياه. فهذا الحكم وغيره؛ من التفسيق والتبديع والتضليل كلها أحكام شرعية ليست لآحاد الناس ولا إلى غوغائهم، وإنما ذلك إلى العلماء العاملين، العالمين مرادَ الله تعالى ومرادَ رسوله صلى الله عليه وسلم[3]. فإن الشخص قد يفعل الأمر الكفري وعنده من الموانع التي لا يجوز معها إطلاق هذا الحكم عليه؛ كأن يكون: (مخطأ، جاهلاً، عاجزاً، مكرهاً، متأولاً لأمر من أمور الشريعة)[4].

ثم إن هذا الفكر التكفيري في واقعنا المعاصر؛ قد اعتمد على بعض الشبهات والافتراءات التي لا تثبت أمام النقد الصحيح. ومن خلال هذه الشبه قاموا

---

(1) شرح العقيدة الطحاوية في العقيدة السلفية، لابن أبي العز الحنفي، ص: 267 تحقيق احمد بن علي، ط: دار الحديث القاهرة. مع قواعد أهل السنة في معاملة أهل القبلة ص: (5)، عثمان عبد السلام نوح، ط: الإيمان، الإسكندرية.

(2) تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، ج19، ص: (363). التركي.

(3) كأن يكون حاله كحال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في مناظرته للخوارج وإزالة الشبه التي من أجلها قالوا ما قالوا، وفعلوا ما فعلوا. يُنظر في هذه المناظرة وما استنبط منها: (أنوار المسارج .. بالفوائد المستنبطة من مناظرة حبر الأمة ابن عباس للخوارج، تأليف: علي بن حسن عبد الحميد الأثري، دار الشرعة والمنهاج.

(4) يُنظر في بيان هذه الموانع:

1. **منهج ابن تيمية في مسألة التكفير**. (ج1، ص 229 ـ 270) د/ عبد المجيد بن سالم بن عبد الله المشعبي، ط دار أضواء السلف، 1418هـ 1997م. المملكة العربية السعودية.
2. **ضوابط تكفير المعين**، د/ محمد سعيد رسلان. دار الفرقان، ط أولى: (2009م).

بأعمال من التخريب، والتدمير، والعنف، والإرهاب[1]، هي عبارة عن أثرٍ لما يعتقدونه في مجتمعاتهم، وفي إخوانهم[2].

فالحذرَ الحذرَ من هذا الفكر المنحرف الهدَّام، الذي أودى بحياة كثير من الأبرياء؛ لا سيما في عصر عصفت فيه الأحداث السياسية بعقول الكثيرين.

إن هذا الفكر بما يحتوي عليه من عقائد باطلة، وشبهات فاسدة كاسدة؛ شكَّل تحديا من أكبر التحديات أمام الساحة الدعوية، وكيف لا يكون كذلك؟ وهو يعتمد اعتمادا كلياً في نشر شبهاته وافتراءاته على أقوال من الكتاب والسنة!!؛ ليجعل له بذلك طريقا إلى القلوب والنفوس التي فُطِرت على حبِّ الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم؛ ولكنها لا تستطيع الجمع بين الأدلة التي ظاهرها التعارض، ولا علم لها بقواعد الشريعة الكلية والخاصة، وأحكام الناسخ والمنسوخ. فهذا الفكر اعتماده الأكثر على الجانب التشريعي الإسلامي، ولذلك كان تحدياً من التحديات الصعبة التي تواجه الدعوة الإسلامية.

- **الإرجاء.**

وذلك أيضا من الأفكار التي أصيب بها كثير من المسلمين؛ على مستوى الأفراد والجماعات. حتى إن كثيرا منهم قد أخَّر الصلاة والزكاة وأعمال الإسلام العِظام؛ اتكالا منهم على هذا الفكر؛ وإن لم يعلموه نظريا؛ فقد قاموا به عملاً.

---

(1) يُنظر في **تعريفه**؛ ما قرره المجمع الفقهي التابع لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة في دورته السادسة عشر (1422هـ)؛ فقد جاء فيه: « الإرهاب: هو العدوان الذي يمارسه أفرادٌ أو جماعاتٌ أو دول؛ بغياً على الإنسان: (دينه، ودمه، وعقله، وماله، وعِرضه)، ويشمل صنوف التخويف والأذى والتهديد والقتل بغير حقٍّ، وما يتصل بصور الحِرابة وإخافة السبيل، وقطع الطريق، وكلّ فعل من أفعال العنف أو التهديد، يقع تنفيذا لمشروع إجرامي فردي أو جماعي، ويهدف إلى إلقاء الرعب بين الناس، أو ترويعهم بإيذائهم، أو تعريض حياتهم أو حريتهم أو أمنهم أو أحوالهم للخطر، ومن صنوفه إلحاق الضرر بالبيئة أو بأحد المرافق والأملاك العامة أو الخاصة، أو تعريض أحد الموارد الوطنية أو الطبيعية للخطر؛ فكل هذا من صور الفساد في الأرض التي نهى الله سبحانه وتعالى المسلمين عنها في قوله: ﴿وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ {القصص: 77}». قرارات المجمع، الإصدار الثالث: (ص: 401).

(2) يُنظر في ذلك: (**القصة الكاملة لخوارج العصر**"استقراء لأكثر من ألفي كتاب ورسالة ومقال لمنظري خوارج العصر") تأليف د/ إبراهيم المحيميد، دار الإمام مسلم للنشر والتوزيع، المدينة المنورة، السعودية.

«فالإرجاء: التأخير؛ ومنه سميت المرجئة، وهم: صنف من المسلمين يقولون: الإيمان قول بلا عمل، كأنهم قدموا القول وأرجئوا العمل ـ أي أخَّروه ـ لأنهم يرون؛ أنهم: لو لم يصلوا ولم يصوموا لنجّاهم إيمانهم»[1]. وقد تناول كثير من العلماء توضيح مذهبهم وفِرقهم والتحذير منهم وبيان خطورتهم[2]؛ فيقول الإمام وكيع بن الجراح: «أهل السنة يقولون: الإيمان قول وعمل، والمرجئة يقولون: إن الإيمان قولٌ بلا عمل، والجهمية يقولون إن الإيمان المعرفة»[3]، ويقول الفضيل بن عياض: «أهل الإرجاء يقولون: الإيمان قول بلا عمل، وتقول الجهمية الإيمان المعرفة بلا قول ولا عمل، ويقول أهل السنة: الإيمان المعرفة والقول والعمل .. وقال أيضاً: وقال أصحاب الرأي: ليس الصلاة ولا الزكاة، ولا شيء من الفرائض من الإيمان»[4]. وفي تحقيق ماتع عن هذه القضية؛ يقول أبو عبيد القاسم بن سلَّام: «وَإِنَّا رَدَدْنَا الأمرَ إِلَى مَا ابْتَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنْزَلَ بِهِ كِتَابَهُ، فوجدناه قد جعلَ بَدأُ الْإِيمَانِ شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَقَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَكَّةَ بَعْدَ النُّبُوَّةِ عَشْرَ سِنِينَ، أَوْ بِضْعَ عَشَرَ سَنَةً يَدْعُو إِلَى هَذِهِ الشَّهَادَةِ خَاصَّةً، وَلَيْسَ الْإِيمَانُ الْمُفْتَرَضُ عَلَى الْعِبَادِ يَوْمَئِذٍ سِوَاهَا، فَمَنْ أَجَابَ إِلَيْهَا كَانَ مُؤْمِنًا، لَا يَلْزَمُهُ اسمٌ فِي الدِّينِ غَيْرُهُ، وَلَيْسَ يَجِبُ عَلَيْهِمْ زكاةٌ، وَلَا صيامٌ، وَلَا غَيْرُ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الدِّينِ، وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا التَّخْفِيفُ عَنِ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ ـ فِيمَا يَرْوِيهِ الْعُلَمَاءُ رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ لِعِبَادِهِ، ورِفقاً بِهِمْ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا حَدِيثَ عهدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ وَجَفَائِهَا، وَلَوْ حَمَّلَهُمُ الْفَرَائِضَ كُلَّهَا مَعًا نَفَرَتْ مِنْهُ قُلُوبُهُمْ، وَثَقُلَتْ عَلَى أَبْدَانِهِمْ، فَجَعَلَ ذَلِكَ الإقرارَ بِالْأَلْسُنِ وَحْدَهَا هُوَ الْإِيمَانَ الْمُفْتَرَضَ عَلَى النَّاسِ

(1) لسان العرب لابن منظور، مادة (رجأ)، ص: (1583).

(2) للمرجئة فرق ومقالات مختلفة ؛ ذكر بعضها: عبد القاهر البغدادي في كتابه الفَرق بين الفِرق ص: (38).

(3) الإيمان؛ للحافظ محمد بن ابي عمر العدني، تحقيق: حمد الحربي، ط: الدر السلفية الكويت. رقم: (29).

(4) السنة؛ للحافظ عبد الله بن أحمد بن حنبل، تحقيق د/ محمد القحطاني، الطبعة الأولى: 1406هـ. دار ابن القيم ، الدمام السعودية، (1/ 347 رقم 741، 1/ 376، رقم: 818).

يومئذٍ، فَكَانُوا عَلَى ذَلِكَ إِقَامَتَهُمْ بِمَكَّةَ كُلِّهَا، وَبِضْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا بِالْمَدِينَةِ بَعْدَ الْهِجْرَةِ ... فَلَوْ أَنَّهُمْ عِنْدَ تحويلِ الْقِبْلَةِ إِلَى الْكَعْبَةِ أَبَوْا أَنْ يُصلُّوا إِلَيْهَا، وَتَمَسَّكُوا بِذَلِكَ الإيمانِ الَّذِي لَزِمَهُمُ اسمُه، وَالْقِبْلَةُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا، لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مُغْنِيًا عَنْهُمْ شَيْئًا، وَلَكَانَ فِيهِ نقضٌ لِإِقْرَارِهِمْ، لِأَنَّ الطَّاعَةَ الْأُولَى لَيْسَتْ بِأَحَقَّ بِاسْمِ الْإِيمَانِ مِنَ الطَّاعَةِ الثَّانِيَةِ، فَلَمَّا أَجَابُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِلَى قَبُولِ الصَّلَاةِ كَإِجَابَتِهِمْ إِلَى الْإِقْرَارِ، صَارَا جَمِيعًا مَعًا هُمَا يَوْمَئِذٍ الْإِيمَانُ، إِذْ أُضِيفَتِ الصلاةُ إِلَى الإقرارِ ... فَلَبِثُوا بِذَلِكَ بُرهةً مِنْ دَهْرِهِمْ، فَلَمَّا أَنْ دَارُوا إِلَى الصَّلَاةِ مُسَارَعَةً، وَانْشَرَحَتْ لَهَا صدُورهم، أَنْزَلَ اللَّهُ فَرْضَ الزَّكَاةِ فِي أَيْمَانِهِمْ إِلَى مَا قَبْلَهَا فَلَوْ أَنَّهُمْ مُمْتَنِعُونَ مِنَ الزَّكَاةِ عِنْدَ الْإِقْرَارِ، وَأَعْطُوهُ ذَلِكَ بِالْأَلْسِنَةِ، وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ غيرَ أَنَّهُمْ مُمْتَنِعُونَ مِنَ الزَّكَاةِ كَانَ ذَلِكَ مُزيلاً لِمَا قَبْلَهُ، وَنَاقِضًا لِلْإِقْرَارِ وَالصَّلَاةِ، كَمَا كان إباء الصَّلَاةِ قَبْلَ ذَلِكَ نَاقِضًا لِمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْإِقْرَارِ.

وَالْمُصَدِّقُ لِهَذَا جِهَادُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ـ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ ـ بِالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ عَلَى مَنْعِ الْعَرَبِ الزَّكَاةَ، كَجِهَادِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَهْلَ الشِّرْكِ سَوَاءً، لَا فَرْقَ بَيْنَهَا فِي سَفْكِ الدِّمَاءِ، وَسَبْيِ الذُّرِّيَّةِ، وَاغْتِنَامِ الْمَالِ، فَإِنَّمَا كَانُوا مَانِعِينَ لَهَا غَيْرَ جَاحِدِينَ بِهَا، ثُمَّ كَذَلِكَ كَانَتْ شرائعُ الْإِسْلَامِ كُلُّهَا، كُلَّمَا نَزَلَتْ شَرِيعَةٌ صَارَتْ مُضَافَةً إِلَى مَا قَبْلَهَا لَاحِقَةً بِهِ، وَيَشْمَلُهَا جَمِيعًا اسْمُ الْإِيمَانِ فَيُقَالُ لِأَهْلِهِ مُؤْمِنُونَ»[1].

وبعد هذا العرض لهذه العقيدة وتفنيدها بشيء يسير من التفصيل؛ فإن الناظر في حال الناس يجد ذلك الأمر واضحاً جليا في أعمالهم ـ إلا من رحم الله وعصم ـ ، فكثير من الناس تركوا بيوت الله تعالى، وتركوا أوامره ولم ينتهوا عن محارمه؛ وهذا كلُّه اتكالاً على عفو الله وسعة رحمته، ودليلهم في ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ {الأعراف: 156}، بل وغلا بعضهم وقال

(1) كتاب الإيمان (معالمه، وسننه، واستكماله، ودرجاته)، ص: (10ـ 12) باختصار، تأليف: أبو عبيد القاسم بن سلام (ت: 224هـ). تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، ط: المكتب الإسلامي، الثانية 1403هـ 1983م.

ـ زعما ـ إن بيني وبين الله حالةً أسقطت كل الفرائض[1]؛ فما أشبه قول هؤلاء بقول سابقيهم وسلفهم؛ (لا يضر مع الإيمان ذنب!!). وقد ظهر ذلك الفكر الهدَّام في مظاهر شتى؛ فمن أبرزها في الواقع المعاصر:

1. تعريف الإيمان بأنه "التصديق". وأن الأعمال شرطُ كمال في الإيمان وليست شرطَ صحة. وأن ترك العمل نقص في الإيمان وليس إبطالا له.
2. التهوين من الالتزام بأحكام الشرع الظاهرة بحجة أن الإيمان في القلب.
3. الاضطراب في مفهوم لا إله إلا الله. وهذا لأن المرجئ أخرج أعماله من مسمى الإيمان، وجعل معناها مقصورا على أفعال الله تعالى من الخلق والرزق .. . ولا علاقة لأفعاله وعبادته بها!!.
4. وغير ذلك من هذه المظاهر[2].

فمما لا شك فيه أن تلك المظاهر قد شكلت تحديا من التحديات المريرة التي كانت سببا في ابتعاد كثير من الناس عن طاعة الله تعالى.

(1) قال الغزالي في بعض كتبه الأصولية: «لو زعم زاعم أن بينه وبين الله تبارك وتعالى حالة أسقطت عنه الصلاة، وأحلت له شرب الخمر، وأكل مال السلطان، كما زعمه بعض الصوفية؛ فلا شك في وُجوب قتله، وقَتْلٌ مثله أفضل من قتل مائة كافر؛ لأن ضرره أكثر» النجم الوهاج في شرح المنهاج؛ ج2 ص: (593). تأليف: أبو البقاء محمد بن موسى الدميري، ط: دار المنهاج (أولى: 1425هـ 2004م) جدة. السعودية.

(2) يُنظر في هذه المظاهر وغيرها: (تسرب المفاهيم الإرجائية في الواقع المعاصر)، تأليف: سعد بن بجاد العتيبي. مركز البيان للبحوث والدراسات. إصدار رقم: (198).

- **التصورات الخاطئة عن الإسلام.**

ما أحسن قول الله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ {المائدة: 3}، ولكن كثيراً من المسلمين ممن تشعبت بهم الأفكار وتفرقت بهم الأهواء؛ فهموا هذه الآية بمعانٍ شتى، وكلٌّ قد فهما على أساسٍ قد اعتقده سابقا؛ فكما وضَّحنا في ظاهرتي التفكير والإرجاء. كذلك الأمر مع غيرهما من الأفكار والعقائد الباطلة:

فهاك المعتزلي قد فهم الإسلام باعتزاليته عقيدة وسلوكاً، وآخر قد فهم الإسلام برافضيته، وآخر قد فهمه بقدريَّته وجبريته، وآخر قد فهمه برأسماليته، وآخر قد فهمه باشتراكيته وشيوعيته، وآخر قد فهمه بلبراليته وحريته، وآخر قد فهمه بقوميته، وآخر قد فهمه بجهميَّته .. وصور أخرى كثيرة فهمَ أصحابها الإسلام من خلالها!! وما من شكٍّ ولو قليل أن كل هذه الأفكار والتصورات؛ من التحديات التي تواجهها الدعوة الإسلامية الآن، وإن تغيرت مسمياتها وأشكالها عن ذي قبل؛ فالشكل والاسم لا يُغير من المضمون ولا من حقيقة الشيء.

والمجني عليه في هذه التصورات الخاطئة هو أحد شيئين؛ **أولهما:** الإسلام؛ والضرر الواقع عليه في صدِّ الناس عنه لا إليه، فالله تعالى ناصر دينه ولو كره الكافرون. **وثانيهما:** الجماهير التي لا تستطيع تمييزا بين الحق والباطل.

فهذه الأفكار وهذه التصورات التي مرَّ ذِكرها علينا في هذه الكلمات وغيرها؛ الواحد منها بمفرده يُشكِّلُ تحديا كبيرا؛ فما بالنا إذا ما اجتمع آخر معه، أو آخرون؟!!. فلا شكّ في صعوبة الأمر وخطورته على الدعوة أو الداعية؛ أو عليهما معاً.

المطلب الخامس: الجهل والتخلف.

الجهل: «الجيم والهاء واللام أصلان، أحدهما: خلاف العلم، والآخر: الخِفَّة وخلاف الطمأنينة»[1]، فهو: «نقيض العلم[2]، .. قال ابن جنِّي: قالوا جهلاء كما قالوا علماء؛ حملاً له على ضدِّه»[3]، قال ابن نجيم الحنفي: «حقيقة الجهل: عدم العلم بما من شأنه أن يكون معلوما، فإن قَارَن اعتقادَ النقيض، أي الشعور بالشيء على خلاف ما هو به فهو الجهل المركَّب، فإن عُدِم الشعور بذلك فهو الجهلُ البسيط»[4]، وقد جاء استخدام هذه اللفظة بمشتقاتها في القرآن الكريم على معانٍ متعددة[5].

أما **التخلف:** فهو ضدّ التقدم، يُقال: «خَلْفُ: ضدُّ القدَّام، .. خَلَفَ: ضد تقدَّمَ»[6]، وعلى كلٍّ فإذا كان التقدُّم الحضاري هو: «حركة المجتمع إلى الأمام .. فإن التخلف؛ هو: حركة جماعية للخلف في مجال الوسائل والأهداف السابقة، أو انعدام الحركة فيهما على الإطلاق»[7].

فهذان مرضان من الأمراض التي تعصف بأي أمة من الأمم، وتقضي كذلك على البقية المتبقية فيها. وأخطرهما؛ هو الجهل، وأقبح صوره؛ هو الجهل المركب، الذي يتطلب في الخطاب الدعوي جهدا كبيرا؛ إذِ الداعية لابد وأن يُزيل ما علق بالأذهان من الصورة الخاطئة أولاً ثم بعدُ؛ يضيف الصورةَ الصحيحة.

---

(1) معجم مقاييس اللغة لابن فارس، ج1 ص: (489).

(2) وهذا هو أصل المادة؛ إذ يقول الراغب الأصفهاني: « الجهل على ثلاثة أضرب: الأول: خلو النفس من العلم، هذا هو الأصل». المفردات؛ مادة: (جهل) ص: (109).

(3) لسان العرب لابن منظور (مادة: جهل) ص: (713).

(4) يُنظر: الأشباه والنظائر لابن نجيم الحنفي ص: (303)، نقلاً عن (نضرة النعيم ج9، ص: (4367).

(5) أمثال: (الطيش والسفه، الخالين من المعرفة، الحالة التي كانت عليها الأمة قبل النبوة)، يُنظر معجم ألفاظ القرآن الكريم، ج1، ص: (252). إصدار مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مصر. (1409هـ - 1989م).

(6) المفردات في غريب القرآن، الأصفهاني، (مادة: خلف) ص: (162).

(7) الجهل والتخلف وغياب المرجعية، ص: (23 - 26 باختصار). د/ فتحي محمد الزغبي (بحث مقدم لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة المؤتمر الخامس عشر بعنوان: الثقافة الإسلامية .. الأصالة والمعاصرة).

إننا ونحن في عصرٍ كهذا الذي نعيشه؛ والذي يُشبه في سرعة تقدُّمه وتطوره سرعة الصواريخ؛ نجد من أهلنا وذوي جلدتنا ومِلَّتنا تخلفاً ليس له مثيل، وهذا في كل الوسائل والمجالات؛ من الحياة العلمية والعملية والاقتصادية والأخلاقية والقانونية والإعلامية والسياسية .. ـ وحدِّث ما شئت عن باقي النواحي ـ؛ ففي ذلك كله ترى عجبا عُجاباً، وتتساءل: هل هذه أمَّةٌ أراد الله لها الريادة وجعلها خير أمة أخرجت للناس؟!.

إن هذا الواقع بما يُمليه على الناس من ظروف وعقبات ليؤثر تأثيراً بليغا على الدعوة والداعية؛ بحث لا ينتفعون بموعظة ولا بنصيحة، فإذا ما حدّثهم الداعية عن العقيدة والأخلاق والعبادات كانوا في منأى بعيدٍ كلَّ البعد عما يُمليه عليهم هذا الداعية فقد ربطوا قولَه المثاليَ بواقعهم؛ وشتان ما بينهما. فأصبحوا بذلك على درجة كبيرة من الانحدار في الجوانب العلمية والأخلاقية وغيرها؛ حتى في مقومات ثقافتهم وهويتهم الإسلامية فضلاً عن العلم الذي يُسميه البعض علما دنيوياً.

فكثير من المسلمين لا يعلم عن **دينه** ـ بعقيدته، وشريعته، وأخلاقه ـ ولا عن **لغتهِ ـ** اللغةِ العربيةِ ـ التي نزل بها القرآن؛ حتى أصبح أعجمياً عنها وإن كان معدودا من أهلها ـ ولا يعلم كذلك عن **تاريخه** المجيد؛ تاريخِ أمته الإسلامية ـ الذي هو منبع شرفه وعِزَّته ـ؛ لا يعلمون من تلك الأمور ما لا يسع أحدَهم جهلُه، فأصبحوا غرباء عن هُويَّتهم بمقوماتها، بل وانقلبت تلك الغرابة إلى عداوة! وكيف لا؟ والإنسان عدُوُ ما يجهل[1].

(1) وقد ذكرت شيئا يسيرا من التفصيل في هذا الجانب حول مناهج الثقافة الإسلامية الأساسية من "الدين واللغة العربية والتاريخ الإسلامي" بمقررات التربية والتعليم؛ ومدى تلبيتها لحاجات أبنائنا فيها؛ فكانت النتائجُ غيرَ مرضيةٍ، وكان أبناؤنا يخرجون من تلك المراحل التعليمية ـ الابتدائية إلى الثانوية ـ لا يعلمون شيئا عن ذلك؛ وإن علموا فهي معلومات مشوشة، ومشوهة، ومهمَّشة. وذلك في دراستي لنيل درجة العالمية "الدكتوراة" بجامعة الأزهر؛ والتي كانت بعنوان: (الدين واللغة العربية والتاريخ الإسلامي، في مقررات التربية والتعليم، بجمهورية مصر العربية، عرض ودراسة في ضوء الدعوة الإسلامية في الفترة من 1952 ـ حتى نهاية ـ 2011م) وقد أجيزت بمرتبة الشرف الأولى، عام: 2015م. وهي منشورة على الشبكة الدولية "الإنترنت" على موقع (صيد الفوائد، وطريق الإسلام) ويُنظر كذلك

ونحن في هذا الصدد أيضاً؛ لا يغيب عنا تلك الأمية والجهالة التي يعيشها المجتمع العربي والإسلامي؛ فإن الناظر في نِسْبة الأمية في أقطاره يجدها بصورة مُحزنة، بينما هذه النسبة تكاد تكون قليلة جداً بل ومنعدمة في الأقطار الأوربية والأمريكية[1]. وإضافة إلى ذلك فإن وضع القراءة عندنا أمرها مشينٌ جداً؛ فبينما تجد الشاب الأوربي يقرأ في السنة أكثر من (35 كتابا)، تجد أن الشباب العربي ـ كثيرا منهم ـ يقرأ كتابا واحداً في السنة، وقد أجرت شركة "سينوفات المتعددة الجنسيات لأبحاث السوق" بحثا في عام (2008م)، جاء فيه أن المواطن المصري والمغربي يقضيان: (40 دقيقة يوميا) في قراءة الصحف والمجلات، مقابل (35 دقيقة في تونس)، مقابل: (34 في السعودية)، مقابل: (31 في لبنان)[2]. وليت هذه الدقائق التي تُصرف في القراءة النافعة في علوم الشريعة الإسلامية وديننا الحنيف؛ لا بل صُرِفت ـ كما يقول د/ نصر فريد واصل[3] ـ في الروايات الماجنة والكتب التافهة. فنتج عن ذلك داءٌ عضال؛ أدى إلى الجهل بتعاليم الإسلام.

في الثقافة الإسلامية المقومات العوائق البدائل؛ د/ عبد الله الجباري، ص (13 ـ 20)؛ وذلك في حديثه عن التشويه والتشويش والتهميش والتجهيل لمقومات الثقافة الإسلامية. من بحوث مؤتمر: الثقافة الإسلامية الأصالة والمعاصرة.

(1) ذكرت منظمة الإلسكو أن نسبة الأمية في المجتمع الأمريكي (صفر)، وفي المجتمع الأوربي (3%)، بينما الدول العربية تتصدر المرتبة قبل الأخيرة عالميا من حيث انتشار الأمية؛ حيث تتقدم على الدول الإفريقية. يُنظر:(الثقافة الإسلامية؛ التحديات الخارجية والداخلية وسبل المواجهة، ص: (19، 20) أ/ سيدة محمود محمد، وهو ضمن بحوث مؤتمر "الثقافة الإسلامية .. الأصالة والمعاصرة" بمكة المكرمة، رابطة العالم الإسلامي، 1435هـ.

وجدير بالذكر أن نذكر ما نشرته جريدة الأهرام القاهرية في عدديْها؛ **الأول بعنوان:** (الأمم المتحدة: **مصر من أكبر 10 دول تعانى الأمية**، عدد الجمعة: (10/ صفر/ 1435هـ، 13/ ديسمبر/ 2013م)، **الثاني بعنوان: (نسبة الأمية في الوطن العربي مخيفة**، عدد الأحد: (8 ربيع أول/ 1434هـ، 20/ يناير/ 2013م). وإن كان الأخير منهما ـ وهو تقرير صادر عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم "ألكسوا" ـ جعل نسبة الأمية ربع سكان الوطن العربي، ومن أسباب انتشارها؛ الدين!!).

(2) نقل هذه الإحصائيات؛ الباحثُ عبد الله شريف (دار الإعلام العربية ـ القاهرة)، نقلاً عن أ.د/ نبيل السمالوطي، نائب رئيس جمعة الأزهر. يُنظر مجلة الوعي الإسلامي، العدد: (630)، صفر / 1439هـ)، ص: (40، 41).

(3) المصدر السابق، ص: (41).

هذا الداء الذي قد خيَّم غمامُه على عقول كثير من أبنائنا؛ يصعب معه أن يكون مصابوه في منأى عن الأفكار المنحرفة والمضللة، فهُم عرضةٌ لأي جرثومة من تلك الجراثيم التي تجعلهم أسرى لأصحاب هذه الأفكار. هذه واحدة.

وأخرى .. فإن من أصيب بهذا الداء ـ داء الأمية والتخلف ـ لن يعلم عن الله تعالى ولا عن رسوله صلى الله عليه وسلم مرادَهما؛ ولن يكون في إيمانه وعبادته إلا مقلِّدا، وكفى بهذه مذمة إذ يكون في سبب نجاته دنيا وأخرى مقلداً غيره؛ فإن كان هذا الغير سليما في اعتقاده نفعَه ذلك إجمالاً، والتفصيليات والجزئيات موكولة إلى العلماء، أما المقلد فلا.

وأخرى .. فإن كثيرا من الناس ـ أقصد غيرَ المسلمين ـ يربطون واقع المسلمين بعقيدتهم ودينهم؛ قائلين متسائلين إذا كان هذا هو دينكم الذي تقولون عنه كذا وكذا .. فما بال واقعكم الذي أصابكم فيه التخلف والجهل .. فهل هذه تعاليمه؟! فإن تخلف المسلمين وجهلهم قد سوَّغ لكثير من الناس اتِّهام الإسلام ديناً ودنيا.

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن الحالة الأمَّية هذه؛ بأن العلم سيُرفع، وأن الجهل سينزل؛ كعلامة من العلامات الصغرى لقيام الساعة، فقال: (إن بين يدي الساعة لأيّاما ينزل فيها الجهل، ويُرفع فيها العلم، ويكثر فيها الهرْج؛ والهرج القتل)[1]. فإذا ما نزل الجهل، ورُفِع العلم بقبض أهله وحملته، فما على البقية المتبقية منهم ـ أعني العلماء ـ إلا أن تمتثل قول الله تعالى عن عبادِه: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ {الفرقان: 35}.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: (الفتن)، باب: (ظهور الفتن)، برقم: (7062 ـ 7064، 7066)، وأخرجه مسلم في كتاب: (العلم)، باب: (رفع العلم وقبضه، وظهور الفتن ..)، برقم: (2672). وغيرهما.

المطلب السادس: الإعلام (الإعلان)[1] .. وتشكيل الرأي العام.

من الممكن أن نُعرِّف الإعلام بأنه: «إيصال معلومة معينة إلى المُتلقِّي لهدف معين، بأسلوب معين؛ يخدم ذلك الهدف، ويتوقع منه أن يُؤثر في المُتلقي، ويُغير من ردود فعله»[2]، و«الإعلام في الأصل: تزويد الجماهير بالمعلومات السليمة والحقائق الثابتة التي تساعدهم في تكوين رأي عام صائب في قضية من القضايا أو واقعة من الوقائع»[3]، فثمَّت علاقة واضحة تمام الوضوح بين الجانب الإعلامي وتكوين الرأي العام لأي قضية من القضايا. إذ أن كثيرا من الناس يبني أفكارَه ومعلوماتِه وثقافتَه عن طريق الإعلام ـ المقروء أو المسموع أو المشاهد ـ بغض النظر عن كون هذا الإعلام صادقا أو كاذبا. فالإعلام هو عمدتُهم في تكوين تلك الثقافة؛ لا سيَّما ونحن في عصر قد عزف كثير من أبنائه عن القراءة والاطلاع.

فأمرُ الإعلام هذا من أخطر الأمور المكوِّنة لآراء الناس واعتقاداتهم؛ ومن ثمَّ ما يُبنى عليها من ردود الأفعال، ولذلك كانت عقوبة الذي يكذب الكذبة فتحمل عنه في الآفاق عقوبةً شديدةً؛ إذ قال النبي صلى الله عليه وسلم: (رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أتياني، ..

---

(1) أجد في نفسي راحة إذا استعملت لفظة الإعلان بدلاً من الإعلام؛ وذلك لأن الكلمة أصلها: (علن) والراغب الأصفهاني في مفرداته يقول عنها: «العلانية ضدُّ السر، وأكثر ما يقال ذلك في المعاني دون الأعيان» ص: (349)، وقال الفيروز آبادي: «والإعلان: المجاهرة» القاموس المحيط، مادة (علن) ص: (1216)، وجاء عن هذه المادة أيضاً في المعجم الوسيط (ص: 625)، والمعجم الوجيز ص: (432): «الإعلان: إظهار الشيء بنشره في الصحف ونحوها»؛ ومن المعاني التي هي أكثر استخداما في هذه اللفظة؛ ما يكون صحيحا وما يكون باطلاً، ومنها ما يكون كذبا وصدقاً.. وغير ذلك، وهذا هو واقع الإعلام (الإعلان) العصري، وأما **الإعلام** فأصل المادة من (علم)؛ ومعناها: «إدراك الشيء بحقيقته» فغالب استعمالها في الحقائق أو المعاني الصادقة والله أعلم. ولعلَّ قائلاً قال: «**الإعلان**: هو وسيلة اتصال غير شخصية، مدفوعة الأجر، ويمكن التحكم بالرسالة الاعلانية، هدفها إثارة الطلب (خلق الرغبة والطلب)، اغراضه اقتصادية (زيادة المبيعات)، يوضح الجانب الايجابي فقط للسلعة. **الإعلام**: وسيلة لنشر الحقائق والمعلومات والأخبار بين الجمهور بهدف تنمية الوعي السياسي والاجتماعي». ولكنني استخدمت الإعلام بدلاً عن الإعلان؛ اتباعاً للعرف السائد بين المصنفين والباحثين.

(2) الإعلام الإسلامي رسالة وهدف؛ ص: (29). تأليف: سمير بن جميل راضي. رابطة العالم الإسلامي، عدد (172).

(3) وسائل الإعلام والأزمة الثقافية في بلدان العالم الإسلامي، ص: (22)، د/ رضا عبد الواحد أمين، ضمن أبحاث مؤتمر الثقافة الإسلامية .. الأصالة والمعاصرة. رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة 1435هـ.

قَالا: الَّذِى رَأَيْتَهُ يُشَقُّ شِدْقُهُ، فَكَذَّابٌ يَكْذِبُ بِالْكَذْبَةِ، تُحْمَلُ عَنْهُ حَتَّى تَبْلُغَ الآفَاقَ، فَيُصْنَعُ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)[1].

إن الإعلام بكلِّ أنواعه الآن؛ أصبح من أساسيات المجتمع الذي نعيش فيه، فلقد دخل في كل غرفة من غرفات بيوتنا، بل ولم يقف الأمر عند ذلك فأصبح رفيقاً لنا في حِلِّنا وترحالنا؛ فلذلك أصبح من الأمور التي لابد من الحديث عنها وتوجيهها الوِجهة الصحيحة، فهو الذي يبني في البلاد وكذلك يُخرِّب، وهو كذلك أداة ذو حدَّين؛ فعن طريقه يَتعلم المجتمعُ الشيءَ ونقيضَه في آن واحد، فالإعلام: «سمةٌ بارزةٌ لهذا العصر وبخاصة السنوات الثلاثين الأخيرة من هذا القرن؛ فقد قوي الإعلام واشتدت سَطوته حيث برز قوةً جبَّارةً تؤثر تأثيراً مباشراً في الأحداث، بل وتستطيع من خلال هذا التأثير أن تهز أي مؤسسة هزَّاً عنيفا قد يُسقطها .. فأصبح قوةً لا يُستهان بها في توجِّيه الرأي العام، وتتسلط على السياسة والاقتصاد؛ لذلك حرصت كثير من الدول على توجيه سياسة الإعلام وتجنيده لخدمة أهدافها وتسريب الأفكار والآراء والمعتقدات عبر قنواته المختلفة»[2].

ولأجل ذلك فإن المادة الإعلامية المعروضة على الجماهير لابد وأن يُراعى فيها أمور؛ هذه الأمور لا تخرج عن المصداقية وعن الأخلاق الإسلامية بشكل عام، فـ«الإسلام يرفض الفلسفة الإعلامية التي لا أصول ولا قواعد ولا ضوابط لها تحكم طبيعةَ عملِها، والتي تكرس الصراع والفوضى واللامبالاة، وتُعَرِّض المجتمعات الإسلامية للدمار، ويرفض الإسلام أيضا القهر الفكري والثقافي كما في بعض

(1) جزء من حديث أخرجه البخاري، كتاب: (التعبير)، باب: (تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح)، برقم: (7047).

(2) الإعلام الإسلامي رسالة وهدف؛ ص: (16، 17 بتصرف). تأليف: سمير راضي. ثم ضرب المؤلف أمثلة لذلك بدوْر الإعلام في حرب فيتنام وإنهائها، والانقلاب على الرئيس السوفييتي جورباتشوف، ومظاهرات بكين .. وغيرها.

الفلسفات القائمة، ويُعطي حق التعبير وحرية النشر ضِمن الثوابت والمقاصد بصورة متزنة»[1].

وعليه .. فإن الناظر في مجتمعاتنا نحن المسلمين؛ يرى الأمر بخلاف ما كان ينبغي أن يكون عليه، فإذا ما نظر الناظر إلى حال الإعلام وما يُلقى من خلاله على الجماهير؛ رأيت عجبا عجابا وتملَّكتْك الدهشة والذهول، فهذا فيلم أو مسلسل أو مسرحية، أو برنامج .. وغيرها؛ وما هي إلا قنوات تُعرِّض المجتمعات للخراب والدمار وتُعلِّم الأولاد ـ بنين وبنات ـ أمور الاختلاط، والموضة، والاقتداء باللاعبين واللاعبات، والممثلين والممثلات، وتعلمهم كذلك السرقة، والنفاق، والتهاون بالمعصية، وكلَّ أنواع الإجرام..، أو البرامج المُذاعة التي تُرسِّخ في عقول كثير من المسلمين أمورا مخالفة لدينهم، عن طريق إعلامي أو مذيع يلقي على الناس فِكْرَهُ أو الهدف المُراد نشره إلقاءً جبريا وقسريا.

إن هذه الأمور بمجموعها تشكِّل ـ بل شكَّلت ـ رأياً عاما لجميع الأعمار والأطياف التي يتكون منها أيُّ مجتمع؛ ومع هذا الرأي يصعب على الداعية أن يواجه هذا التيار الجارف من هذه الآراء العامة، التي كونت المجتمعَ وثقافتَه[2]. خاصة وأن الإعلام الحديث يستخدم قاعدته المشهورة: "ما تكرر .. تقرر".

فمما لا شك فيه أن للإعلام دوره الفعَّال في صياغة الثقافة العامة للمجتمع وتوجيهها نحو الوِجهة التي يريدها محركوه. ومن ثمّ كان ذلك في حدِّ ذاته عائقا كبيرا في وجه الدعوة الإسلامية.

---

(1) الإعلام الإسلامي في البناء العقائدي ومواجهة تحديات الدعوة، ص: (8)، د/ محسن عبود كشكول، رئيس قسم الصحافة في الجامعة العراقية، وهو بحث مقدم ضمن أبحاث مؤتمر الثقافة الإسلامية .. الأصالة والمعاصرة. الذي نظمته رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة (1435هـ).

(2) ينظر في تأثير الإعلام ـ كوسيلة من وسائل الاتصال الجماهيري ـ على الرأي العام وتكوينه في: مدخل إلى الرأي العام والمنظور الإسلامي، د/ سعيد إسماعيل صيني، ص: (139 ـ 166) ط: مؤسسة الرسالة.

المطلب السابع: شبهات المشككين حول الإسلام ومناهجه.

الشبهة: «هي ما يُثير الشك والارتياب في صدق الداعي وحقيقة ما يدعوا إليه؛ فتمنع المدعوَّ من رؤية الحق والاستجابة له، أو تؤخر هذه الاستجابة. كما أنه غالبا ما ترتبط إثارة الشبهة بعادة موروثة، أو مصلحة قائمة، أو شهوة دنيوية، أو حمية جاهلية، أو سوء ظنٍ، أو غبشٍ في الرؤية؛ فتتأثر النفوس الضعيفة المتصلة بهذه الأشياء، وتجعلها حجة وبرهانا تدفع به الحق»[1].

فإثارة هذه الشبهات بصورة عامة على الجماهير المسلمة وبخاصة الشباب، ثم عدَم دحضها بصورة قوية؛ يجعل هذه الجماهير في حالات من حالات الشك في دينهم وثوابت إيمانهم؛ بل ويجعلهم في حرجٍ من تعاليم دينهم والانتساب إليه وكرههم له[2]، وهذا إذا ما اقتصر الأمر على مجرد الشكِّ والارتياب فقط، ولم يتعدَّ إلى ما فوق ذلك بمحاربة الحق ودفعه. فـ «إن أخشى ما نخشاه أن لا يكون المسلم على مستوى التحديَّات؛ فتراه أُذنا صاغية لكل تهمة، وليس هذا فحسب، بل الأخطر من ذلك أن يتشرب هذه الشبهةَ ويُصدِّقها، وأن تسقر في قلبه وعقله، وعندها تكون المصيبة»[3]، هذا وقد شبَّه النبي صلى الله عليه وسلم عرْضَ الفتن على القلوب وتأثُّرَها بها أو عدم تأثرها بكلام بليغ؛ فقال: (تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا[4] فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتْ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتْ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى

(1) للدعاة فقط، جاسم مهلهل، ص: (89). نقلاً عن: (في قفص الاتهام، منهجية التعامل مع الشبهات وقواعد دحضها، د/ علي الحمادي، ص: (11) دار ابن حزم.

(2) وفي هذه الجزئية أذكِّر بآية وحديث؛ أما الآية فقول الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ {الأعراف: 2}، والحديث رواه الإمام أحمد (قال النبي صلى الله عليه وسلم لرجل من بني النجار أسلم، فقال الرجل أجدني كارها؛ فقال: أسلم ولو كنت كارها)، المسند: برقم:(12061)، فعلى المرء أن لا يكون في صدره حرج أو كُرْهٌ من تعاليم دينه؛ وإن كان ثمَّت شبهة فلا تؤثر على إيمانه وعقيدته لأن أمر الشبهة حتما إلى زوال، وسوف يكون مكانها بإذن الله يقين لا يتزعزع.

(3) المصدر السابق في قفص الاتهام؛ ص: (48).

(4) وقد ضُبطت في بعض الروايات (عَودا عوّدا) من العوْد المرة بعد الأخرى.

قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ)[1].

وكمثال واقعي للشبهة وأثرها في نفوس الجماهير؛ وكونها عقبة كؤودا في ثباتهم على المنهج القويم؛ لو أن بلدا من البلدان أعلنت عن استقبالها شخصا مهمَّاً في يوم من الأيام، وأخذ الإعلام يَذكر عن هذه الشخصية منكرات، وأساطير، وسيئات كثيرة لا حصر لها، وصورا لفساده وإضراره للمجتمعات .. وغير ذلك؛ فلا شك بأن الجماهير ستبني حكما عليه دون أن يروه، حتى وإن كان هذا الشخص مظلوما، وأن كلَّ ما أشيع عليه إنما هو محض افتراء وشُبَهٍ لا دليل عليها[2].

ولنضرب لذلك مثلاً نعيشه في المحيط الدعوي وكان له أثر سلبي كبير .. إثارة الشبه على سنة النبي صلى الله عليه وسلم؛ من حيث صحة نسبتها إليه، ومن حيث موافقتها للعقول، ومن حيث عدالة نَقَلَتِها، ومن حيث تاريخها وتدوينها، ومن حيث أشهر دواوينها .. وغير ذلك، جعل جمعاً كثيرا من الجماهير تشكُّ فيها، ولا تعتقد فيها اعتقادا سليما، وهذا بجهلٍ منهم أولاً، وهذا الجهل جعلهم يتأثرون بالشبه المُلْقَاةِ عليهم؛ فكانوا فريسة وضحية لمروجي هذه الشبهات.

فالضحية هي الجماهير التي لا تتمكن من دفع تلك الشبهات المثارة، لأن قلوبهم ليست على الصورة الإيمانية التي هي كالزجاج الأملس الذي يدفع الشبهة بصلابته ويراها بصفائه فلا تضره[3]، فكثيرٌ من الناس ليسوا على علمٍ وإيمان قويٍّ يدفعون بهما هذه الشُّبَه، وإنما هم على صورتين من الجهل؛ إمَّا بسيط، وإما مركب .. **هذه واحدة.**

(1) أخرجه مسلم كتاب الإيمان، باب: (الفتن التي تموج موج البحر)، برقم: (231).

(2) مُسْتخلص من محاضرة للدكتور عبد العزيز الطريفي؛ بعنوان: (الشبهات وأثرها على الثبات).

(3) وهذه وصية وصى بها ابنُ تيمية تلميذَه ابنَ القيم فانتفع بها انتفاعا بليغاً.

وأخرى .. كثير من الذين يتصدَّوْن لقرْع هذه الشبهات إمَّا أنهم يدفعونها بشبهات مثلها أو أقلَّ منها أو أخطر؛ فيعالجون مرضا ويتركون آخر[1]، وإما أن يكونوا كذلك على علمٍ ليس كافياً بما نُصِّبوا لأجله؛ فيَظهرون بمظهر العاجز عن دفع هذه الشبهة، فازدادت الشبهة على أيديهم قوةً برغم ضعفها ووهانتها!![2].

ومن طبيعة الشبهات أن الواحدة منها إذا تمكنت من القلب وأُشربها حتى اختلطت بمادة حياته وإيمانه جَلبتْ إليها أخرى؛ حتى تصير هذه الشبهات في قلب صاحبها كالسلسلة التي أحاطت بعنقه وستؤدي يوما ما إلى حتفه وهلاكه.

ثم إن إثارة مثل هذه الشبهات من شأنها أن تؤخِّر مسيرة البناء الدعوي؛ بحيث تجعل الدعاةَ دائما في موضع الدفاع، فلا يتفرغون إلى البحث ولا إلى التصنيف ولا إلى تعليم الناس الفقه والحديث والتفسير وسائر علوم الإسلام .. بل تجعلهم دائما في هذا الموقف .. وقديما قالوا: الهجوم خير وسيلة للدفاع .. وقيل أيضا: لو سكت جاهلٌ لاستراح عالمٌ.

وأمْر الشبهات من الأمور التي لا يمَلُّ أعداؤنا[3] من إلقائها على المسلمين؛ فلقد كان الشيطان يلقيها على الصحابة رضي الله عنهم ـ ولن يزال هذا دأبه مع تابعيهم ـ، فلقد جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إني أُحدِّث نفسي

---

(1) ولنضرب لهؤلاء مثلاً بالمعتزلة؛ الذين تصدُّوا كثيرا للمتفلسفة ونقدوا ونقضوا شبههم وما ذهبوا إليه، ولكن .. كان ذلك على طريقتهم. ومثلاً آخر بمن يرد على الجبرية القائلين بمسألة الجبر بأن الأمر أنف وأن الإنسان يخلق فعل نفسه والحق إنما هو ليس مع هؤلاء ولا أولاء، وإنما الحق دائما وسطٌ بين رذيلتين.

(2) وهذه صورة نراها متكررة جداً على شاشات التلفاز .. فالله المستعان.

(3) وأقصد بهم: أعداءَ المنهج الإسلامي الصحيح؛ وفي مقدمتهم الشيطان الرجيم، وكالملاحدة واليهود والنصارى والمنافقين واللبراليين والعلمانيين والتكفيريين ومن على شاكلتهم ـ لا كثَّر الله سوادهم ـ. والله سبحانه وتعالى يقول عن حال أولئك؛ ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ **فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ** ۗ﴾.{آل عمران: 7}.

بالشيء لأن أخِرَّ من السماء أحبُّ إلي من أن أتكلم به. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الحمد لله الذي ردّ كيده إلى الوسوسة[1].

ومثل قول النبي صلى الله عليه وسلم أيضا: (يأتي الشيطانُ أحدَكم فيقول: من خلق كذا، من خلق كذا؟ حتى يقول من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته)[2]، وقد قال ابن حجر رحمه الله تعالى في شرحه لهذا الحديث: «قال الخطابي وجه هذا الحديث أن الشيطان إذا وسوس بذلك فاستعاذ الشخص بالله منه، وكف عن مطاولته في ذلك؛ اندفع، وهذا بخلاف ما لو تعرض أحد من البشر بذلك فإنه يمكن قطعه بالحجة والبرهان، قال: والفرق بينهما أن الآدمي يقع منه الكلام بالسؤال والجواب والحال معه محصور فإذا راعى الطريقة وأصاب الحجة انقطع، وأما الشيطان فليس لوسوسته انتهاء، بل كلما أُلزم حجة زاغ إلى غيرها، إلى أن يُفضي بالمرء إلى الحيرة نعوذ بالله من ذلك. قال الخطابي: على أن قوله من خلق ربك كلام متهافت ينقض آخرُه أولَه لأن الخالق يستحيل أن يكون مخلوقا، ثم لو كان السؤال متجها لاستلزم التسلسل وهو محال، وقد أثبت العقل أن المحدثات مفتقرة إلى مُحدِث فلو كان هو مفتقراً إلى محدث لكان من المحدثات. انتهى»[3].

فمن الشبهات مَن تصدُر عن الشياطين؛ ولا تعْدُ حدَّ الوسوسة، ومنها ما يصدر عن أتباع الشياطين من الإنس. ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيّٖ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ﴾ {الأنعام: 112} ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ {النور: 21}، وكذلك من الشبهات

(1) أخرجه أحمد في مسنده، برقم: (2097). وعند مسلم في صحيحه بمعناه عن أبي هريرة في كتاب: (الإيمان)، باب: (بيان الوسوسة في الإيمان)، برقم: (209). وعند أبي داود في سننه عن أبي هريرة، كتاب: (الأدب)، باب: (في رد الوسوسة)، برقم: (5112).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: (بدء الخلق)، باب: (صفة إبليس وجنوده)، برقم: (3267). ومسلمٌ في صحيحه، كتاب: (الإيمان)، باب: (بيان الوسوسة من الإيمان)، برقم: (214).

(3) فتح الباري لابن حجر العسقلاني، ج 6، ص: (392، 393). ولكن ابن حجر ضعَّف ما ذهب إليه الخطابي من التفرقة بين وسوسة الإنس والشياطين.

من تحتاج في دفعها إلى الاستعاذة من الشيطان والانتهاء عن مجاراته فيها، ومنها ما تحتاج إلى إقامة الحجة والبراهين الدامغة في دحضها، فلكُلٍّ مقامه ومقاله.

وهذه الشبهات التي أثيرت على الإسلام؛ إنما وُجهت إلى كتابه ـ القرآن الكريم ـ تارة، أو إلى رسوله صلى الله عليه وسلم أخرى، أو إلى تعاليمه وشرائعه حينا آخر.. ولكنها بفضل الله تعالى، ثم بالنقد العلمي المبني على قوة في العقيدة وثباتٍ في المنهج وشموليته؛ كانت كلُّها هباءً منثورا.

المطلب الثامن: الدولة الدينية (الوصل الثيوقراطي).

الثيوقراطيّة، هي: «مذهب يقوم على تعليل السلطة السياسيَّة لدى الجماعة على أساس الاعتقاد الدينيّ، ومنها نظريّة (الحق الإلهيّ) في الحكم، والتي تعتبر أن الله عز وجل مصدر للسلطة، وأن الحاكم بمثابة ظلّ لله على الأرض، وتقوم الثيوقراطيّة على أساس العنصريّة»[1]. فيرى أتباع هذا المذهب أن لا سلطان للسلطة الدنيوية وإنما يجب أن يكون تابعاً للعنصر الديني فقط.

وكان لهذا النظام الحاكم صور متكررة في الأزمان الماضية والمعاصرة كذلك؛ أمثال طغيان الحكم الكنسي في العصور الوسطى الأوربية المظلمة؛ والذي قامت عليه الثورة الفرنسية[2]، ثم بعد ذلك ولا زال الحكم في الدولة اليهودية الإسرائيلية، ثم في دولة الأئمة الاثني عشرية؛ الدولة الإيرانية ونظامها في ولاية الفقيه ولا زالت.

فكل هذه الصور استغلت الدين، واتخذته وسيلة للسيطرة والتحكم، في إطار نظامِ حُكمٍ ثيوقراطي واضح، حيث السيطرة المطلقة لرجال الكهنوت اليهودي والكنسي، ولفقهاء الشيعة خريجي الحوزات العلمية؛ إذ تُسند إليهم الوظائف المهمة، فهُم في هذا

(1) معجم اللغة العربية المعاصرة، ص: (337)، تأليف: د/ أحمد مختار عمر "مع فريق عمل"، ط: عالم الكتب.

(2) ينظر في بيانها وأسبابها. كتاب: (العلمانية، د/ سفر الحوالي ص: (165 ـ 176)، ط: دار الهجرة.

النظام أعلى جهة مختصة في شئون السياسة، كما أن جميع السلطات تُركَّز في أيديهم[1].

وهذا الأمر جعل قطاعاً كبيراً ـ إن لم يكن هو الغالب ـ من المسلمين؛ ينظرون نظرة كتلك النظرة الكهنوتية التي واجهها رجال الدين من اليهود والنصارى؛ وذلك لأن هذا القطاع ما غابت عنه هذه الصور التاريخية للحكم الثيوقراطي، فأخذ يقيس هذه التعاليم الإسلامية التي يُنادي بها الدعاة بتلك النظم التي كانت أو لا زالت. وهو مخطئ في ذلك كل الخطأ؛ إذ الإسلام في دعوته للتحاكم إلى الله تعالى وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم؛ منهجه كما في قول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ {النساء: 59}، إنما يدعوا إلى تطبيق وحيٍ إلهي معصوم، لا إلى رأيٍ شخصي أو اجتهاد طائفي، وحتى في قضية الفهم للنصوص الشرعية فإنما هو منوط بتحقيق مراد الله ورسوله؛ ولقد أحسن إمامنا الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ إذ قال: «آمنت بالله، وبما جاء عن الله، على مراد الله، وآمنت برسول الله، وبما جاء عن رسول الله، على مراد رسول»[2]. فكما نؤمن بعصمة النص الإلهي؛ لا بد وأن نسعى في تحقيقه كما أراده الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، فالقاعدة حينئذ؛ هي أن العالِمَ عندنا في الإسلام ـ في المنهج الحق ـ مبلغٌ عن الله تعالى مراده، وليس مرادُ الله تعالى حِكراً على هذا الرجل بحيث لا يُراجع في كلامه، بل يستطيع أدنى آحاد الأمة أن يَردَّ على العالم خطأه، ولو كان هذا الخطأ

(1) الثقافة الإسلامية .. المقومات والعوائق، والبدائل. ص: (13 بتصرف وإضافة)، د/ عبد الله الجباري.

(2) ذكرها ابن قدامة عن الشافعي ـ رحمهما الله ـ ؛ يُنظر: شرح لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين، ص: (89)، دار طيبة للنشر والتوزيع..

صادرا من أعلاها منزلة في الدين أو الدنيا[1]، ولذلك فـ«ليس أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ويؤخذ من قوله ويُترك»[2].

المطلب التاسع: الوَهن .. حبُّ الدنيا وكراهيةُ الموت.

من التحدِّيات التي تواجه الدعوة الإسلامية عُموما والداعية خصوصاً؛ أنه إذا ما حدَّث الداعيةُ مدعوِّيه عن أمرٍ من الأمور التعبدية ـ معقولة المعنى أو غير معقولة ـ طرأتْ على أذهانهم أو على عقولهم علامات استفهام؛ كوَّنتْ حواجز في عدم امتثالهم لهذه العبادة، وأبرز هذه العلامات لها رابط ومتعلَّقٌ بدنيا يتنعمون فيها ويتمسكون بها وكأنهم ما خُلقُوا إلا لها؛ فيفكِّرون في وظيفتهم وأموالهم، وَوَجَاهتهم ومكانتهم الاجتماعية ..، ويزداد الأمر سوءاً واشمئزازاً؛ إذا ما حدَّثهم الداعية عن الموت وما بعده من الحسرات والزفرات والحِساب والصراط وقالوا بلسان حالهم: لماذا يُنغّصُ علينا هذا الرجلُ حياتَنا وأفراحنَا ولهونَا ولعِبنَا، وهل جاء هذا الرجل يُذكرنا بتلك الحال التي تأكل فيها الديدانُ أبداننَا وما لنا وللشجاع الأقرع أو لمنكر ونكير.. فما هذا الخطاب؟!

أحبَّتي .. هذا الداء العضال: قد حدد معالمَه النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم فقال: (يوشك الأمم أن تداعى عليكم، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. فقال قائل: ومِن قلَّةٍ نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذٍ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السَّيل، ولينزعنَّ الله مِن صدور عدوِّكم المهابةَ منكم، وليقذفنَّ الله في قلوبكم الوَهَن. فقال قائل: يا رسول الله، وما الوَهن؟ قال: حبُّ الدُّنيا، وكراهية الموت)[3].

---

(1) كما في قصة المرأة التي راجعت عمر ـ رضي الله عنه ـ في مهور النساء، وقال قَوْلته المشهورة: «أصابت امرأة وأخطأ عمر ـ أو قال ـ كل الناس أفقه من عمر» تفسير ابن كثير ج2 ص: (242، 243).

(2) أسند هذه المقالة إلى مجاهدٍ ـ رحمه الله ـ ابنُ عبد البر؛ في جامع بيان العلم وفضله، برقم: (1765). بتحقيق أبي الأشبال الزهيري، ط: دار ابن الجوزي.

(3) أخرجه أبو داود في سننه من حديث ثوبان رضي الله عنه، ك: (الملاحم)، باب: (تداعي الأمم على الإسلام)، برقم: (4297)، وأحمد في مسنده برقم: (22397)، ومن رواية أبي هريرة في المسند برقم: (8713) وفيه أن الوهن هو: (حبُّكم الدنيا وكراهيتُكم القتال).

وفي توصيفٍ نّبوي وتمثيلٍ رائع لأكبر أسباب بُعد الناس عن دينهم؛ يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (ما ذِئبانِ جائعانِ أُرْسِلا في غنَمٍ، بأفسدَ لَها من حِرصِ المَرءِ علَى المالِ والشَّرَفِ لدينِهِ)[1].

وقد جاء الوهن في القرآن الكريم في مواطن كلُّها يتعلق بأمر من أمور الدنيا؛ فإذا ما مسَّ المسلمين قرْحٌ في دنياهم فلا وهن ولا حُزن؛ لأن هذا هو حال المؤمنين الصادقين المتبعين للرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ {آل عمران}، ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ {آل عمران: 149}، وكذلك إذا ما استمسك الكافرون بالدنيا ـ وهي حظُّهم ـ فلا يُطلب منا إلا أن نكون من المؤمنين الأتقياء الأوفياء، وفي هذا السبيل لا نَهِن وندعوا إلى السلم جبناً وخوفا وهلعاً ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ٣٥ إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ﴾ {محمد: 35، 36}.

ولكن .. هل المطلوبُ في الخطاب الدعوي تنفيرُ الناس من الدنيا وتبغيضُهم فيها؛ فيكونوا في منأى عن مُجريات الحياة أو يكونوا في زاوية من زواياها فلا يكونوا فاعلين مؤثِّرين بل متأثِّرين وفقط؟!.

أقول ليس هذا مطلوباً؛ فإن الناظر في هذه النصوص يجد فيها أمراً ظاهرا وهو تعلُّق الحكم فيها على أحوال وأوصاف قلبية ووُجدانية، فالحب، والحرص، والشرف، وكراهية الموت إنما هي أوصاف لمتعلقات قلبية فلا تُنافي تطلُّب الحياة الطيبة؛ والتي قال الله تعالى عنها: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ

(1) أخرجه الترمذي في سننه، ك: (أبواب الزهد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم)، برقم: (2376).والدارمي؛ ك: (الرقاق)، باب: (ما ذئبان جائعان) برقم: (2772)، وأحمد في المسند برقم: (15784، 15794) وقد أفرد ابن رجب الحنبلي هذا الحديث بالشرح في رسالة مفيدة.

طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ {النحل: 97}، وكذلك لا يمنع هذا أن يسأل النبي صلى الله عليه وسلم ربه: العافية في بدنه وبصره وسمعه ولا أن يسأله صلاح دنياه وآخرته ولا أن يستعيذ به من البرص والجنون والجذام وسيء الأسقام، ولا أن يدعو لأحد أصحابه بكثرة المال والولد[1]. وكذلك لا يُنافي هذا عند أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن يُجهِّز أحدهم ثلث جيش العسرة ويكون حييا تستحي منه الملائكة وهو عثمان رضي الله عنه. وليس كما نرى عند الكثيرين من أبناء الدنيا الذين يُطغيهم الغنى.

أحبَّتي إن المطلوب هو أن نُعمِّر الحياة بطاعة الله تعالى أولاً؛ مُتَّخذين في سبيل ذلك كل الإمكانات التي أباحها الله تعالى لنا؛ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ {الجاثية} فالدنيا ليست مركزَ الدائرة في أولوياتنا بل هي وسيلة إلى المركزية التي لا غِنى لنا عنها في حياتنا ألا وهي **(الله جل جلاله وتقدَّست أسماؤه)**.

فالاستخلاف والاستعمار الإنسانيُّ الذيْن جاء بهما النصُّ الإلهيُّ؛ فيهما إشارات واضحة إلى هذا المعنى التعبُّدي وليس المعنى المادي؛ فقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ {البقرة: 30} ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ﴾ {هود: 61}. ويوضِّح هذا المعنى أكثر ما جاء في شأن المساجد من الأمر بتعميرها والنهي عن ضدِّه وهو التخريب. فقال:﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا

(1) وقد وردت بذلك الأحاديث الصحاح عن النبي صلى الله عليه وسلم.

ٱللَّهَ﴾ {التوبة: 18} ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ ﴾ {البقرة: 114}.

عودا إلى الوهن والذي عرَّفه النبي صلى الله عليه وسلم بحب الدنيا وكراهية الموت؛ والذي يدل بجميع مفرداته ومُشتقاته في كتاب الله تعالى على: «ضعفٌ من حيث الخَلْقُ أو الخُلُق» وقيل: «الضعفُ في العمل والأمر، وكذلك في العَظم ونحوه»[1]. فينبغي علينا أن نسعى في إزاحة أي وصف من الأوصاف التي قد تكون سببا في وصفنا بهذا الوسم أو ذاك الرسم.

المطلب العاشر: التقليد الأعمى للمتبوعين.

داءٌ عضال؛ هو هذا الداء الذي لم يكن أمام الأنبياء إلا هو؛ فهو الحجة لدى من عبدوا غير الله تعالى، وهو الحجة كذلك في استحلال ما حرَّم الله تعالى؛ فقد قال ربي عز وجل عنهم: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ {الزخرف}. وقال في حجتهم الوحيدة الواهية في مواجهة أنبيائهم تبريراً لعبادة الأصنام: ﴿قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ {الأنبياء: 53} ﴿قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ {الشعراء: 74}. وهي كذلك الصنم الذي يلجأ إليه المتكبرون فِرارا من الانقياد للوحي والرسالة؛ فقد قال الله تعالى واصفاً هذه النفسية: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ {يونس}.

وطالما أنها حجَّة بهذه المنزلة عند أتباعها فلابد من بيان مكانتها شرعاً وعقلاً؛ وهل لها حجم يجعل لها ثقلاً تُوزن به، أم أنها سراب لا ينفع من يلهث وراءه عطشا

(1) يُنظر مادة: (وهن). مفردات الراغب الأصفهاني؛ ولسان العرب لابن منظور، ويُنظر كذلك مادة: (و هـ ن) من معجم ألفاظ القرآن الكريم. مجمع اللغة العربية ص: (1210، 1211) جمهورية مصر العربية، ط: (1409).

فليس له إلا الركض ومن ثمَّ فلا موت ولا حياة؛ فَهُم بركضهم هذا قد حجزوا مقاعد في سقر عافانا الله وإياكم منها؛ فما هي مكانتها تلك!؟

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠﴾ {البقرة} ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٠٤﴾ {المائدة} ولكن: هل كل المتوارَث عن الآباء والأجداد يُعمَّمُ عليه هذا الحكم؟ بالطبع لا؛ فليس هذا هو منهجٌ للإسلام؛ فإذا كان الحق مع أي أحد فهو الحق ولا يشوبه أنه مع هذا أو ذاك، ولعل الاستثناء الوارد في قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام دليل على ذلك، إذ قال عليه الصلاة والسلام: ﴿قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ٧٥ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ٧٦ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ {الشعراء}؛ فإذا كان الاستثناء متصلاً فيكون المعنى أنني بريء من كل معبود عبدتموه **مع الله تعالى واتخذتموه شريكا معه**؛ فيكون اعتقادهم كاعتقاد كفار قريش الذين قالوا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى. وأما إذا قلنا بأن الاستثناء منقطِعٌ فلا يتوجه إليه هذا المعنى ويكون بمعنى لا أعبد آلهتكم هذه لكن أعبدُ ربَّ العالمين الذي خلقني ... هو معبودي سبحانه وتعالى[1]. فإذا كان عند الآباء حق فثمَّت هو؛ وإلا فلا، وهل العقل الذي يُحجم صاحبَه عن أيِّ أذى، ألا يدله على عجز هذه الأصنام وأنها لا تهب الحياة لأحد ولا تستطيع سلبها، ولا تسمع ولا تُبصر ولا تنفع ولا تضر ولا تُعطي ولا تمنع؛ بل ولا تستطيع دفع الشر عنها ولو بأدنى مراتبه، فهل الآباء الذين علَّقوا آمالهم وأحلامهم وأرزاقهم بل وأرواحهم بآلهة هذا شأنها يُعدَّوْن من العقلاء!!؟ لا نملك أن نقول صدق الله تعالى إذ قال (لا يعقلون، لا يعلمون، لا يهتدون). وقد قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه عُبَّاد الأصنام: ﴿قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ٦٦ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ **أَفَلَا تَعۡقِلُونَ** ﴾ {الأنبياء}؛

(1) يُنظر في هذا التوجيه: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور.

فهل هذه عقول حجَمتْ أصحابها فما انساقتْ وراء أحجار لا تنفع ولا تضر نفسَها فضلاً عن غيرها.

وليس هذا وفقط: بل أقام الله تعالى دليلاً آخر على هذه الحال؛ فبيَّن مآلهم ومصيرَهم في الآخرة، المتبوعون: لأنهم ضلُّوا وأضلوا، والأتباع: لأنهم عطلوا عقولهم وصمُّوا آذانهم، ونفروا من الدعاة إلى الله تعالى نفورَ الوحوش المستنفرة التي فرَّت من قسورة؛ فكانوا في حسرات وزفرات لا تنقضي؛ وهيهات!. قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ {البقرة}.

فما أكثر ما يواجهه الدعاة اليوم من أمثال هذه المقولات والعبارات: أنتم أعلم أم آباؤنا؟، وما هو مصير آبائنا إذ لم يعلموا ما تقولون فلم يعملوا به؟ إن أبي لم يُعلمني ذلك ولا رباني عليه .. وأقول: وما شأن الدعاة إذا كان الوالد: (لا .. لا .. لا ..).

ويزداد الأمر سوءً إذا ما كان هذا التقليد الأعمى لغير المسلمين؛ من اليهود والنصارى والملاحدة ومَن على نهجهم وسَنَنهم؛ وإذا كان السابقون قد قلَّدوا الآباء والأجداد بحجَّة أبوَّتِهم؛ فإن الحجة في تقليد هؤلاء غالبا ما تنحصر في تفوقهم وإبداعهم في الجانب الدنيوي والحياتي عموماً، فلقد أتقنوا دُنياهم وشيدوا صروحَها وأحكموا قوَّتهم وسيطرتهم عليها حتى كان لسان حالهم كما جاء عن أسلافهم: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾{الشعراء}، وكانوا بسبب هذا الطغيان المادي أن طَغوا وبَغوا: ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةًۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ فحياتُهم على ما هي عليه؛ كانت في ميزان الشرع من الوَهن الذي لا يثبت أمام جُندٍ من جنود الله تعالى والتي لا يعلمها إلا هو: ﴿فَأَرْسَلْنَا

عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ﴾ {فصلت}.

ولكن أقول كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَن قَبْلَكُمْ شِبْرًا بشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بذِرَاعٍ، حتَّى لو سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ، قُلْنَا يا رَسُولَ اللَّهِ: اليَهُودَ، وَالنَّصَارَى؟ قالَ: فَمَنْ.؟)[1]. ومن تدبَّر حال المسلمين لا سيما في هذا الزمان علِم ما هي الغربة وما هي الشِّدة التي يواجهها الخطاب الدعوي من جراء هذا التحدي.

فلا شك من أنه تحدٍّ.. ما أصعبه!.

المطلب الحادي عشر: ضعف اليقين بالموروث الشرعي.

أحمدُ اللهَ تعالى على أن كان في السابقين أناس طبقوا الإسلام بكل موروثاته الثقافية فكان فهمهم وتطبيقهم لها بالصورة التي رضيها الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم؛ وكان من جزاء الله تعالى ومكافئته لهم أنْ مكَّنهم من رِقاب عدوهم؛ فقادوا وسادوا بقلوبهم وأرواحهم وأبدانهم العباد والبلاد، وكانت قيادتهم على الأرواح قبل أن تكون على الأرض والأبدان.

وإلا .. لَكان لقائلٍ أن يقول: هذا الموروث الشرعي الذي تتكلمون عنه قد كان سببا في تأخر الذين تمسكوا به وكان سببا في إذلالهم وتَسلُّط الأعداء عليهم؟

فالحمد لله على هذا النموذج الفريد الذي علِم وعمل بما علم فمكن الله له؛ لقد كان عندهم من اليقين والثقة فيما ورثوه عمن سبقهم من النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ما جعلهم قدوةً لمن جاء بعدهم إن أرادوا الوصول إلى ما وصلوا إليه.

ولا عجب حينئذ إذا ما قرأنا هذه الآية بعد معرفة هذا المعنى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ

(1) أخرجه البخاري، ك: (أحاديث الأنبياء)، باب: (ما ذُكِر عن بني إسرائيل)، برقم: (3456)، ومسلم، ك: (العلم)، باب: (اتباع سَنن اليهود والنصارى)، برقم: (2669).

وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ {التوبة}، والآثار والنصوص المتكاثرة تدل دِلالة واضحة على ربط التمكين والنصر والعِزة للمسلمين على غيرهم؛ إذا استمسك المتأخرون بهذا المنهج الذي سلكه هؤلاء قبل أن تطرأ على الأمة الإسلامية الأهواء والملل والنِّحل المختلفة.

اليقين في الموروث الشرعي؛ هو الوقود الذي ينبغي أن يُدندن حوله الدعاة، وهو النور الذي إذا ما خبا ضوؤه أو انطفأ مِصباحه فلن ينفع وعظُ واعِظ؛ وعْداً كان أو وعيداً.

فليس عند المسلمين إلا من رحم الله تعالى من اليقين؛ مَا إذا حدَّثهم الداعية عن عقيدتهم وأنها هي السبب الوحيد لدخول الجنان وأن ما عداها إنما هي سبل للشيطان ومآل أصحابها النيران، وكذلك إذا ما حدثهم عن أن الطريق الوحيد إلى مرضاة الله تعالى ورِضوانه إنما هو في اتباع النبي صلى الله عليه وسلم، وإذا حدَّثهم عن نصر الله تعالى وأنه مربوط بطاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، وأن الهزيمة مقرونة بمعصية الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وأن الذل في اتباع غير المسلمين والعزة كل العزة في اتباع الشرع الشريف الحنيف؛ إذا حدَّثهم بذلك كلِّه كانوا في شكٍّ وحيرةٍ. وليس عندهم من اليقين ما يؤثرون بسببه الحياة الآخرة الباقية على الدنيا الفانية. وليس عندهم من اليقين ما يدفعهم إلى أن يقدِّموا أحكام الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم في البيع والشراء والنكاح والأخلاق والمعاملات عامة على ما سواها من الأحكام والقوانين؛ لأنها بزعمهم ستؤثر على مكانتهم الاجتماعية وحياتهم الاقتصادية وغير ذلك.

وإذا ما أردنا إيراد مثال على هذا فعندنا السيدة هاجر وولدها إسماعيل عليهما السلام، ففي مكان ليس به أيُّ مظهر من مظاهر الحياة حتى الماء؛ والذي هو مظهرها الرئيس. فيترك الوالدُ إبراهيمُ عليه السلام؛ زوجتَه الضعيفة وولدَه الرضيع، في

هذا المكان وما كان منها إلا أن أيقنت أن الله لن يضيعها وولدها لأن الأمر هو وحي من الله تعالى. فبمنطق العقل ستهلك؛ وأما بمنظور الشرع فلا.

وهذ صورة أخرى من صور اليقين؛ فـ(عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، قَالَ: بَيْنَا أَنَا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ فَشَكَا إِلَيْهِ الفَاقَةَ، ثُمَّ أَتَاهُ آخَرُ فَشَكَا إِلَيْهِ قَطْعَ السَّبِيلِ، فَقَالَ: يَا عَدِيُّ، هَلْ رَأَيْتَ الحِيرَةَ؟ قُلْتُ: لَمْ أَرَهَا، وَقَدْ أُنْبِئْتُ عَنْهَا، قَالَ فَإِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ، لَتَرَيَنَّ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الحِيرَةِ، حَتَّى تَطُوفَ بِالكَعْبَةِ لاَ تَخَافُ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ، ـ **قُلْتُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي فَأَيْنَ دُعَّارُ طَيِّئٍ الَّذِينَ قَدْ سَعَّرُوا البِلاَدَ** ـ، وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى، **قُلْتُ: كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ؟!** قَالَ: كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ، وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ، لَتَرَيَنَّ الرَّجُلَ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ، يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُهُ مِنْهُ فَلاَ يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهُ مِنْهُ، .. قَالَ عَدِيٌّ: فَرَأَيْتُ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالكَعْبَةِ لاَ تَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، وَكُنْتُ فِيمَنِ افْتَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ وَلَئِنْ طَالَتْ بِكُمْ حَيَاةٌ، لَتَرَوُنَّ مَا قَالَ النَّبِيُّ أَبُو القَاسِمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)[1]؛ فقد عارض الصحابي هذه البشارة النبوية بينه وبين نفسه بعقله وذلك من خلال ما يراه بعينيه من قُطاع الطريق ومن سطوة الملوك والجبابرة؛ ولكن اليقين الذي رأى بوادره جعله يحكم على ما لم يره فقال مُسْتيقناً كما قفال له الرسول صلى الله عليه وسلم (ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وإن رأى الداعيةُ أن هذا الداء العضال قد استعصى عليه فلا تتسرَّبُ إليه تلك العدوى فالله تعالى قال: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ٦٠﴾ {الروم}. فالحِفاظ على رأس المال مُقدَّم على الربح لا سيما وإن كان مظنونا.

(1) أخرجه البخاري، ك: (المناقب) باب: (علامات النبوة في الإسلام)، برقم: (3431).

المبحث الثاني

التحدِّيَّات العالمية

بعد أن ذكرتُ بعضاً من التحديات الإقليمية والمحلية المتعلقة بواقع المسلمين، أذكر هنا إن شاء الله تعالى أبرز ما يراه الدعاة في سبيل دعوتهم من التحديات العالمية الخارجية؛ والتي تقف في وجه الدعوة الإسلامية. فمنها:

المطلب الأول: العولمة "أو الدعوة إلى العالمية".

العولمة: مصطلح من المصطلحات الحادثة، غير المعهودة في قواميس اللغة العربية الأصيلة، مشتقة من العالَم؛ وتعني: «حرية انتقال المعلومات، وتدفق رؤوس الأموال، والسلع، والتكنولوجيا، والأفكار، والمنتجات الإعلامية، والثقافية، والبشر أنفسهم، بين جميع المجتمعات الإنسانية، حيث تجري الحياة في العالم كمكان واحد أو قرية واحدة صغيرة»[(1)]. فهو مذهب يزعم أصحابه البحثَ عن الحقيقة الواحدة التي تكمن وراء المظاهر المتعددة في الخلافات المذهبية المتباينة[(2)]. ففي جملته يعني: «عالميةُ العاداتِ والقيمِ والثقافاتِ لصالحِ العالَمِ المتقدمِ اقتصاديا، وبمعنى آخر: محاولةُ سيطرةِ قيم وعادات وثقافات العالمِ الغربيِ على بقية دول العالم؛ خاصةً النامي منها، بشكل يؤدي إلى خلط كافة الحضارات، وإذابة خصائص المجتمعات. هذا بالإضافة إلى تهميش العقائد الدينية»[(3)].

وعلى كلّ حال فالعولمة بمفهوم أشمل وأوضح كما هي في قاموس المصطلحات السياسية؛ الصادر عن الهيئة العامة لقصور الثقافة بمصر: «هي منسوبة إلى العالَم أي الكون، وهي شيء أو نظام جديد يُراد به توحيد العالم في إطار جديد واحد، وهي

(1) معجم اللغة العربية المعاصر، أ.د/ أحمد مختار عمر، ص: (1579). (مادة: عولم). وذكر هذا المصدر: أن الشركات العملاقة ترفع شعار العولمة لتستطيع التوغل داخل جميع المجتمعات الإنسانية بلا قيد.

(2) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة. ص: (1091).

(3) العولمة، د/ سليمان بن صالح الخراشي. ص: (7) دار بلنسية. الرياض، السعودية. ط: أولى 1420هـ.

تُوحي وتُشير إلى النظام السياسي؛ وتشمل السياسة والاقتصاد، والثقافة، والاجتماع، والتربية، والأعراف والتقاليد، بل إنها تتجاوز الحدود السياسة والجغرافية بين الدولة، حتى قيل إن العولمة ستجعل العالم يعيش في إمبراطورية جديدة.

وهناك تعريف آخر للعولمة: بأنها نظام عالمي جديد يقوم على العقل الالكتروني، والثورة المعلوماتية القائمة المعلومات والإبداع التقني غير المحدد؛ دون اعتبار للأنظمة، والحضارات، والثقافات، والقيم، والحدود الجغرافية والسياسية القائمة في العالم، ويقال: إنها حرية حركة السلع والخدمات والأيدي العاملة، ورأس المال والمعلومات عبر الحدود الوطنية والإقليمية»[1].

فالظاهر من هذا المذهب؛ أنه يهدف إلى إزالة الفوارق والحواجز والحدود المكانية، والزمانية، والشخصية، والثقافية، ويجعل العالم كلَّه في بوتقة واحدة، ولا اعتبار فيه للقيم والأخلاق والعادات والأعراف والتربية؛ وتكون السيطرة فيها لأصحاب النفوذ الاقتصادي؛ فتكون قِيَمُهم وعاداتُهم وثقافتُهم وأعرافهم هي المفروضة على جميع من في تلك البوتقة، وبخاصة دول العالم النامي المتأخر.

إن «مصطلح "العالمية" متصلٌ بتحديد الأنا والذات، وبالموقف من الآخر، وبالدوائر الحضارية، وبتفاعل الحضارات، .. فالملاحظ من خلال هذا المصطلح احتكار الغرب لصفة العالمية، بحيث أصبح المصطلح ينصرف إليه، فكلُّ ما هو غربي عالمي في نظره، فكأن العالم مقتصرٌ عليه، وكل ما له صلة بالغرب نطلق عليه عالمي، فنقول: وكالات الأنباء العالمية، والصحافة العالمية، والاتفاقات العالمية والدولية، وغيرها من المصطلحات التي استبطنت مركزية الغرب في العالم، بل عرَّفت الاتجاهات الأربعة الأساسية بموقعها منه؛ فيقولون: الشرق الأوسط على تلك الكتلة

(1) المرجع المُشار إليه أعلاه؛ بتقديم د/ سامح فوزي، ط الأولى 2012م.

الحضارية التي تُشكل عالم العرب والمسلمين، ونردد نحن وراءهم كالببغاوات "الشرق الأوسط"»[1].

وبعيداً عن ما يُشاع من صراع الإسلام للحضارات المخالفة له[2]، وكذلك عن الأذرع التي تقوم عليها هذه العولمة (الاقتصادية، والعسكرية، والسياسية، والتَقَنِي والعملي والتكنولوجي، والأخلاقي الثقافي)[3]؛ **بعيداً عن كلِّ ذلك** ـ إذ ليس هذا مجالُ بسطٍ للحديث عنه ـ، فإن المتضرر الأول والأخير من هذا الأمر هو الإسلام والمسلمون لأنهم هُمُ الأضعف في هذه النواحي التي تقوم عليها العولمة. هذا **أولاً**.

أما **ثانياً**: فإن للمسلمين خصائصَ ومميزاتٍ وطبائعَ يستحيل معها أن تكون مع غيرِها في مكان واحد يُزيل كلَّ الفوارق الطبيعية بينهما؛ «فباطلٌ كلَّ البطلان أن يكون في هذه الدنيا على ماهي عليه "ثقافة" يمكن أن تكون "ثقافة عالمية"، أي: ثقافة واحدة يشترك فيها البشر جميعا ويمتزجون، على اختلاف لغاتهم ومِللهم ونِحلهم وأجناسهم وأوطانهم، فهذا تدليسٌ كبيرٌ، وإنما يُراد بشيوع هذه المقولة بين الناس والأمم، هدف آخر يتعلق بفرض سيطرة أمَّةٍ غالبةٍ على أممٍ مغلوبة، لتبقى تبعا لها، فالثقافات متعددة بتعدد المِلل، ومتميزة بتميز الملل، ولكلِّ ثقافةٍ أسلوب في التفكير والنظر والاستدلال، مُنْتَزع من الدين الذي تدين به لا محالة، فالثقافات المتباينة تتحاور وتتناظر وتتناقش، ولكن لا تتداخلُ تداخلاً يُفضي إلى الامتزاج البتة، ولا يأخذ بعضها عن بعض شيئا إلا

---

(1) معركة الوعي: سؤال المفاهيم. د/ عمرو عبد الكريم؛ مقال بمجلة الوعي الإسلامي، عدد: (610) جمادى الآخرة (1437هـ)، ص: (87) باختصار.

(2) فإن الإسلام بريءٌ وبعيدٌ كل البعد عمَّا يُشاع حوله في هذه الناحية؛ وكدليلٍ على معايشة الإسلام للآخر؛ ودعوته إلى الله تعالى بالتي هي أحسن، وعن إفادته واستفادته من حضارة الآخر؛ فلقد عقدت رابطة العالم الإسلامي بمدينة نيويورك الأمريكية مؤتمرها للتواصل الحضاري مع أمريكا؛ وكان تحت هذا العنوان: (التواصل الحضاري بين الولايات المتحدة الأمريكية والعالم الإسلامي) وكان ممثلاً من: (450 عالماً من علماء المسلمين)، يمثلون (56 دولة)، وكبرى المؤسسات الفكرية والثقافية الإسلامية والأمريكية. يُنظر في بعض فاعلياته: مجلة الأزهر، عدد صفر(1439هـ) ص: (356 ـ 359). ولكن هذا التعايش منضبط بضوابط لا يجوز التغافل عنها أو إهمالها.

(3) تكلم عن هذه الأذرع؛ د/ عبد الرحمن صالح المحمود، في مقال بعنوان: (العولمة من خلال رؤية إسلامية) على هذا الرابط: (http://sc.eldorar.com/science/article/14130).

بعد عرضه على أسلوبها في التفكير والنظر والاستدلال، فإن استجاب للأسلوب أخذَته وعدَّلتْه وخلَّصتْه من الشوائب، وإن استعصى نبذته واطرحتْه. وهذا باب واسع جداً»[1].

وعلى هذا فهناك بعض الآثار الناتجة عن هذا المذهب؛ منها:

1. تهميش العقائد والعبادات الدينية.
2. العزوف عن تعلم اللغة العربية، وعدم الاهتمام بها واستبدالها بلغة أجنبية لأنها عالمية في نظره.
3. تفشي الثقافة الغربية في بلادنا، وشيوع أنماط الحياة الغربية كذلك.
4. الثورة العارمة في مجال التكنولوجيا والتقنيات الحديثة؛ وخاصة في مجالات الاتصال والمعرفة.

ثم إن هذه المظاهرَة وغيرَها؛ قد شكَّلت تحديَّات كثيرة أمام الدعاة إلى الله تعالى؛ فالجماهير أسيرة بما تراه وبما تسمع عنه، والداعية في سط تلك الآراء والتوجهات الفلسفية والمذهبية والأنماط الحياتية الغربية؛ كمَنْ هو في بحر لُجِّي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، فليس له في هذه الحال إلا الله تعالى.

(1) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، أبو فهر: محمود محمد شاكر ص: (74، 75). الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة. ط الثانية: (1427هـ، 2006م).

المطلب الثاني: الإسلامو فوبيا (رِهاب الإسلام).

من المصطلحات الحادثة؛ هذا المصطلح، وتعريفه: «(إسلاموفوبيا) مركبة من كلمة عربية: (إسلام)، وكلمة يونانية: (فوبيا) وتعني: "خوف" (أصلها: فوبوس). فيكون معنى (إسلاموفوبيا) الحرفي: "الخوف من الإسلام" وكذلك "الخوف من المسلمين".

وبما أن الكلمة اليونانية (فوبيا) "خوف"؛ ولكن المترجمين العرب اصطلحوا على ترجمتها بـ "رهاب". وعليه فإن المعنى الاصطلاحي أو المقابل العربي الاصطلاحي لكلمة (إسلاموفوبيا) هو: "رهاب الإسلام" أي الخوف منه.

ثم إن مصطلح (الإسلاموفوبيا) حديثٌ نسبيا؛ فقد نشأ بداية التسعينيات من القرن الماضي، ويشير به غير المسلمين إلى الإسلام؛ الذين يرونه دينًا غير قابل للتعايش مع الحضارة المادية الحديثة وغير قابل للتأثر بها أو التأثير فيها وأنه ـ أي الإسلام ـ دين يبرر استخدام العنف لتحقيق أهدافه الخ.

ومن الجدير بالذكر أن مصطلح (إسلاموفوبيا) بالنسبة إلى المسلمين مثل مصطلح (معاداة السامية) بالنسبة إلى اليهود، فهما مصطلحان يدلان على الكراهية التي يُكنُّها الغرب غير المسلم للمسلم (إسلاموفوبيا)، وغير اليهودي لليهودي (معاداة السامية). ويستعمل المصطلحان لتبرير التمييز العنصري ضد المسلمين اليوم، واليهود في الماضي.

فهو إذن مصطلَح دخيلٌ وليسَ عربياً، ولا يصحّ تداوُلُه إلا بالحروف اللاتينية، أما تداولُه بالحروف العربية فليس بالضرورة مفهوماً عندَ كل مَن يتحدّثُ بالعربيّة»[1].

(1) مجمع اللغة العربية على الشبكة العالمية (بمكة المكرمة)، الفتوى رقم: (454) بتصرف، على هذا الرابط: (http://www.m-a-arabia.com/site/13116)

فواضح من هذا التعريف: أنها ظاهرة تعني الخوف من الإسلام؛ وهذا الخوفُ حمل أصحابه على تبني رأياً أو عقيدة أو سلوكاً من السلوكيات الخاطئة ضد المسلمين، بعيداً عن أن ينضموا تحت لوائه!

وهذه الظاهرة كان لها أسباب ساعدت على انتشارها وظهورها؛ منها:

- الجهل بالإسلام وبتعاليمه.
- الربط بين واقع المسلمين ودينهم.
- سوء تطبيق البعض لتعاليم الإسلام.
- الدَّوْر الإعلامي اللاحيادي، الذي تستخدمه الكيانات المعادية للإسلام والمسلمين.
- إشاعة الشبهات حول الإسلام وبالأخص التي تتعلق بالمرأة، والجهاد، والجزية، .. وغير ذلك.
- الخوف من نجاح النموذج الإسلامي في الحكم، وصعود تيارات الإسلام السياسي في المنطقة العربية.
- الخوف من زيادة النفوذ الإسلامي في أمريكا وأروبا؛ نتيجةً لتزايد أعداد المسلمين هناك.
- كثرة الهجمات الإرهابية على الدول الأوربية[1].

وإذا كان من تعليق على هذه الأسباب، فسوف أذكر قصة للقارئ الكريم حتى تتضح له تلك الروائعُ الكامنة في الحضارة الإسلامية، والتي تعمَّد أعداؤنا اختزالها بل وإخفاءها، وكانت مظهرا من مظاهر شيوع الأمن الإسلامي على غير المسلمين، وليس هذا فحسب؛ بل ويعترف فيها غيرُ المسلمين بأن العرب المسلمين هم أأمن من بني جلدتهم وعقيدتهم، تلك هي القصة التاريخية التي وقعت على جزءٍ من أرض مصر "بِلبيس"، وفيها: «مما يدل على شهامة المسلمين ومروءتهم أنه لما فتح الله على

(1) كتب بعضها: محمد الدرجلي، تحت عنوان: (7أسباب لتزايد ظاهرة الإسلاموفوبيا في أوروبا وأمريكا)، من جريدة الوفد. عدد الأحد: (26/ 3/ 2017)م.

المسلمين (بلبيس) وجدوا فيها ابنة المقوقس، واسمها "أرمانوسة"، وكانت مقربة من أبيها، وكانت في زيارة لمدينة بلبيس مع خادمتها (بربارة)؛ هرباً من زواجها من قسطنطين بن هرقل، وهو فيما بعد والد قنسطنز صاحب موقعة ذات الصواري، وكانت غير راغبة في الزواج منه، **ولما تمكنت مجموعة من الجيش الإسلامي من أسر أرمانوسة جمع عمرو بن العاص الصحابة وذكرهم بقوله تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ {الرحمن،آية:60}**. ثم قال: لقد أرسل المقوقس هدية إلى نبينا وأرى أن نبعث إليه بابنته وجميع من أسرناهم من جواريها وأتباعها، وما أخذنا من أموالهم، فاستصوبوا رأيه فأرسلها عمرو إلى أبيها معززة مكرمة، ومعها كل مجوهراتها، وجواريها، ومماليكها، وقالت لها خادمتها (بربارة) ـ أثناء سفرهما ـ: يا مولاتي إن العرب يحيطون بنا من كل جانب، فقالت أرمانوسة: **إني آمن على نفسي وعرضي في خيمة العربي، ولا آمن على نفسي في قصر أبي**، ولما وصلت إلى أبيها سُرَّ بها وبتصرف المسلمين معها.»[1].

ويحقُّ لنا أن نتساءل هل خوفهم من الإسلام هو بسبب كثرة انتشاره حتى في البلدان التي تحاربه؟!؛ فأمْر الداخلين في الإسلام وكثرتُهم وزيادةُ عددهم؛ أمرٌ لا يُنكره أحد. أم أن خوفهم منه لأنه في أي مكان قلَّبتَ فيه الطرْف؛ وجدته مُحاربا أهلُهُ، ومهانون، ومستضعفون؟!. فإنهم لَيعلمون علماً يقينياً ما فعله الفاتحون المسلمون عندما دخلوا بلادهم ناشرين الرحمة والعدل والأمن، ويعلمون كذلك ما فعلوه هُم عندما تجردوا من كل مظاهر الإنسانية والرحمة عندما كانوا لبلاد المسلمين غُزاة ناهبين لا فاتحين. فمن أي شيءٍ يخافون؟!

ولكن الأمر ليس بهذه الصورة؛ بل زاد إلى أن نُودِي بوقف تدريس أي مادة ثقافية تتحدث عن الدين الإسلامي في المجتمع الغربي؛ وكان رائد هذا الاتجاه هو صاحب صراع الحضارات "صموئيل هنتجتون" فقد ذكر أن هذا الخطر قد بدتْ نُذره منذ

(1) الفاروق عمر بن الخطاب، شخصيته وعصره. د/ علي الصلابي، ص: (653) مكتبة الإيمان المنصورة.

سبعينيات القرن الماضي؛ بل وزعم هنتجتون أن التكوين البروتستانتي الصلب للأمة الأمريكية قد أصبح في خطر لأنه يواجه بمقارع الدراسات الأجنبية، أي تلك التي تتكلم عن الديانات الأخرى وبخاصة الإسلام.

وبخاصة إذا ما علمنا رِدَّة الفعل التي أثارها علماء ومثقفوا الغرب في أمريكا عندما صدر كتاب البروفسور "مايكل سيلز" المعنون له بـ: (الاقتراب من القرآن، التنزلات الأولى)[1]؛ فقد تقرر تدريس هذا الكتاب ضمن مادة الإرشاد الثقافي العام لطلاب السنة الأولى بجامعة كارولينا الشمالية في "شابل هل" وقد صدر الكتاب في عام 1999م وقد عدَّه الكثيرون من المراقبين المفكرين والأكاديميين ردَّاً غير مباشر على أطروحة هنتنجتون الشهيرة في صراع الحضارات.

ولكن ثار على الجامعة وعلى المؤلف الرأيُّ العام، وحتى رُفِعتْ القضايا في الدوائر القضائية بل حتى في البرلمانات إلى أن تم إيقاف تدريس الكتاب في هذه الجامعة. ومع هذا الموقف الرسمي إلا أن بعض الباحثين أخذوا يُدافعون عن زميلهم وكتابه الذي أُوقِف تدريسه[2].

ويَنبغي أن يوضع في الاعتبار أيضاً أن اهتمام الغربيين بدراسة الإسلام أخذ يتزايد بدرجة عالية؛ وهذا لأسباب كثيرة منها: (حضور الإسلام كعامل فعال في السياسة الدولية، وتزايد الحضور الإسلامي في المجتمعات الغربية؛ فقد أصبحت

(1) وهذا الكتاب يُعتبر مدخل لدراسة القرآن الكريم، وترجمة أمينة ورائعة مشوقة لخمس وثلاثين من السور المكية إلى اللغة الإنجليزية؛ وقد اختار هذه السور بعناية فائقة ليعرض الصورة المشرقة عن الإسلام؛ بل وتغاضى عن الآيات التي تدعوا المسلمين إلى استخدام العنف، وهي التي استخدمها الإرهابيون لتبرير أحداث: (11 سبتمبر 2001)

(2) يُنظر في تداعيات هذا الوضوع: الإسلام في المناهج الغربية المعاصرة؛ د/ محمد وقيع الله أحمد، ص: (411 - 432). جائزة نايف بن عبد العزيز آل سعود؛ فرع الدراسات الإسلامية المعاصرة. ط الأولى؛ (1427هـ).

جاليات المسلمين في بلدانهم عالية النّسب وتتزايد باستمرار، وتزايد اهتمام بعض الفئات المُثقَّفة الغربية بالدين عموما والإسلام خصوصا)[1].

فليست فِكرةُ الخوف من الإسلام كما يدعي البعض ناتجة عن عنف إسلامي، أو تشريعات إسلامية منافية للعقول، أو أن أتباعه في أي مكان منبوذون؛ بل هذه الفِكرة وليدةُ فِكرٍ متطرف استحدثته الكنيسة المسيحية وعملت على تغذيته من خلال عدم الاعتراف بالإسلام كدينٍ ولا بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم كرسول؛ بل اعتبرت المسلمين ضحايا ورهائن للخطيئة الإسلامية؛ ومن ثمةَ وجب تحريرهم وإنقاذهم مما هم فيه؛ وهذا ما يدحض الانطباع العام الذي يُفيد بأن الإسلاموفوبيا هي مجرد رد فِعلٍ على العنف الإسلامي[2].

(1) المرجع السابق باختصار ص: (443، 444).

(2) الإسلاموفوبيا .. مصطلح زائف لظاهرة حقيقية؛ تحرير (مُدَّثر محمد، آلاء الصِّدِّيق) ص: (30) منتدى العلاقات العربية الدولية.

المبحث الثالث

التحديات المتعلقة بشخصية الداعية.

الداعية هو ركن من أركان الدعوة العظمى؛ فعليه بنيانُها، وتشييدُ صَرْحِها، ونفيُ الخبائث عنها، واكتسابُ الناصرين لها والمدافعين عنها، والدالُّ على الله تعالى، والمعرِّف الخلقَ عليه، فعبادةُ الخلق لربهم مرهونة به، .. فهو أحسن الناس وأعلاهم عند الله تعالى منزلةً وأجراً؛ وهذا كله إنما هو بدعوته؛ لا بمظهره وحسبه ونسبه، لا بشيء سوى دعوته إلى الله تعالى، وصدق الله تعالى إذ قال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ {فصلت: 33}، فلا حُسنٌ يتقدمُه بل ولا يوازيه. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من دلَّ على خيرٍ فله مثل أجر فاعله)[1]. فما أكثر أجور الخير التي تعود إليه!.

ولذلك كان الحديث عن التحديات التي تواجه الدعوة الإسلامية في هذا العصر والمُتعلقة بهذا الركن العظيم ـ ركن الداعية ـ؛ ضروري جداً، بل ومن أوجب الواجبات التي تمَسُّ الواقعَ الدعوي؛ فنحن في كثير من الأحوال نرى دعاةً يصدُّون الناس بأحوالهم وأفعالهم وأقوالهم عن دين الله تعالى.

ومن أبرز هذه التحديات التي كانت في الداعية كامنةٌ ومُستقرةٌ؛ فهي تخصه بالدّرجة الأولى من وجهة نظري؛ ما يلي في هذه المطالب:

(1) أخرجه مسلم، كتاب: (الإمارة)، باب: (فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره، وخلافته في أهله بخير)، برقم: (1893)، وغيره.

المطلب الأول: الفقر العلمي العام[1].

من أبرز التحدِّيات الخطيرة التي تواجهها الدعوة؛ هو أن يكون قادتُها وحَمَلَةُ لوائها ليسوا على مستوى علميٍ يليق بمكانتهم بين الجماهير، فهُم وإن تفوَّق الواحد منهم في مجال من المجالات العلمية؛ فقد أخفق في المجالات الأخرى، وهذا لطبيعة دراسته النظامية في مرحلة الليسانس، وانشغاله بعمله الدعوي وظيفةً، وكذلك كثرة اتباع الناس له أحيانا، أو انشغالهم بوعظهم ودروسهم وخطبهم، أو غشيانهم المجامع العامة واللقاءات الجماهيرية؛ فبهذه الأسباب وغيرها ابتعد الداعية كثيرا جداً عن آليات التحصيل والتأصيل العلمي.

ولعلَّ هذا يرجع إلى أمور؛ من أهمها:

أولاً: ما نوَّهت عليه ـ سالف الذكر ـ من طبيعة الدراسة في مرحلة الليسانس؛ فهذا قد درس في الشريعة والقانون، وتخصص في الفقه أو الأصول، أو تخصص في القانون بفروعه وأقسامه؛ يأتي ويدخل إلى المجال الدعوي ولم يُحصِّل من علومه إلا النذر اليسر جداً.

وآخر قد تعلم في اللغة العربية؛ فحصَّل من قواعد النحو والصرف ومن الأصول اللغوية، ومن الأدب والنقد، ومن البلاغة، ومن التاريخ والحضارة .. يأتي ويدخل كذلك إلى هذا المجال وحاله كحال من سبقه.

وكذلك الأمر مع من تخصصوا في التفسير والحديث والعقيدة، وكذلك من تخصصوا في قشور من الثقافة الإسلامية في كليات التربية فمعظم دراستهم إنما هي في علوم التربية والعمل التعليمي التربوي.

---

(1) ما سبق الحديث عنه عند التحديات الإقليمية عن ندرة الكوادر الدينية إنما هو في إعداد مرجع يرجع إليه الدعاة أنفسهم في المسائل المهمة؛ فمثاله ومثال الدعاة في هذا المبحث (كمثال الشيخ الذي يرجع إليه طلبة العلم في المسائل الكبار). فافترق الأمران.

وكذلك حال إخواننا ممن تعلموا في كليات اللغات والترجمة وقضوا فيها زهرة أعمارهم بين مختلف الألسن واللغات الناطقة؛ فإذا بهم يدخلون إلى المجال الدعوي ولم يأخذوا من أصوله وعلومه إلا القليل.

والأمر هو هو مع من درسوا علوم الدعوة؛ بوسائلها وأساليبها، والنظم الإسلامية، ومقارنات بين الإسلام وغيره من الديانات؛ فهؤلاء مع أنهم هُم أهل التخصص إلا أنهم لم يدرسوا ما درسه إخوانهم؛ من أهل اللغة والفقه والقانون والتفسير والحديث والعقيدة، والقواعد التربوية، واللغات.

وهذا بدوره أدَّى إلى ضعف ملحوظ ومشاهد لدى الدعاةِ أنفسِهم في أثناء عملهم الدعوي، لا سيما في الجوانب التي لم يتناولوها بالدراسة.

ثانياً: وهو ـ وإن كان مطلوباً ـ الانشغالُ بالدعوة الجماهيرية عن مصدر وقودها وعزها وهو **التحصيل العلمي**.

فبعض الإخوة الأفاضل لا يستطيعون الموازنة بين الانهماك في العمل الدعوي وبين التحصيل العلمي؛ وهُم بذلك أصبحوا كمن يُقدِّمون للناس شراباً حلواً في إناءٍ برَّاق، وهو شرابٌ بقدر محدود لا يفي بكثرة الواردين عليه، وما زالوا كذلك ينادون؛ أنْ هلمُّوا إلينا.. فعندنا شراب يروي الظمآى ويكفي العطشى وقد فرِغتْ آنيتهم أو كادت!!.

ومما لا شك فيه أن حاجاتِ الناس متجددةٌ، وقضاياهم لا تنتهي، ومشكلاتهم متكررة، وقليلها متماثل؛ وتلك حالة ينبغي على الدعاة أن لا يملُّوا معها من طلب العلم والسهر في تحصيله وتنقيحه.

وهذا داءٌ .. لا شك في ذلك، ويجعله كذلك مرضا عُضالاً يعصب بل ـ ولا أكون متجنِّياً إذا قلت ـ يستحيلُ علاجه إذا انضم إليه حبُّ الرياسة والشهرة[1]، فالداعية

(1) وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حِرص المرء على المال والشرف لِدِينِهِ) أخرجه أحمد في المسند (3/ 456). برقم: (15784) والترمذي، كتاب: (الزهد) باب: (43) برقم: (2376) وقال: حسن صحيحٌ. وقال ابن رجب: «ورُوِيَ من وجه آخر عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث ابن عمر،

المسكينُ الذي حاله هو هذا؛ قد قضى على آخرته قبل دنياه، وقد قضى على مدعوِّيه قبل دعوته وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ثالثاً: وهو **ـ وإن كنتُ ملتزماً به**[1]**ـ** تحديدُ الخطاب الديني في اللقاء الأسبوعي (توحيد خطبة الجمعة). فهذا قد جعل كثيرا من الخطباء في منأى بعيد كلّ البعد عن البحث العلمي. فلا ينشغلون بالبحث عن الموضوع المناسب لجماهيرهم، ولا يتكلفون أدنى شيء من العناء في سبيل ذلك؛ ولِمَ لا؟ وقد جاءهم الموضوع بعنوانه، وأدلته، وصيغته النهائية، وما عليهم إلا أن يقرؤوه وفقط، إما من الورق أو من أذهانهم بعد أن أجادوه حفظا وتسميعاً.!!، وإذا أضفنا إلى هذا الأمر أمراً آخر؛ وهو محبة كثير منهم الراحة والدِّعة؛ بل وجنوحهم إليهما في جميع الأحوال حتّى إن أحدهم ليطير فرحاً إذا حدث له حادث فما صعد بسببه على المنبر خطيباً!! ـ، **وأمراً آخر** وهو أخذ كثير منهم هذا العمل الدعوي من باب الوظيفة التي يتقاضى عليها راتباً؛ ولم يأخذوها همَّاً دينياً يبذلون في سبيله الغالي والرخيص.

كلّ هذه العوامل وغيرها أدّت إلى ما نراه من الضعف العلمي العام لقادة العمل الدعوي ومُنظِّريه.

المطلب الثاني: عدم القدرة على التعامل مع النوازل والمستجدات المعاصرة.

النوازل: من حيث اللغة؛ هي: «جمع نازلة، والنازلة: اسم فاعل من: نزل ينزل إذا حلَّ، وقد أصبح اسمًا على الشدة من شدائد الدهر.

من ذلك قول الشافعي رضي الله عنه

وابن عباس وأبي هريرة وأسامة بن زيد وجابر، وأبي سعيد الخدري، وعاصم بن عدي رضي الله عنهم أجمعين» مجموع رسائل ابن رجب الحنبلي ج1 ص: (63). ـ وقد شرحه رحمه الله تعالى شرحاً وافيا لهذا الحديث في رسالة خاصة به من ص: (63 ـ 96) ـ. ط: دار الفاروق الحديثة للطباعة والنشر (ط الثانية: 1424هـ ـ 2003م).

(1) والتزامي هذا من باب تقديري لرؤسائي في العمل، ومراعاة لقوانينه. وليس التزامي هذا نصيًّاً وإنما أعالج الموضوع كما يفتح الله تبارك وتعالى عليَّ.

ولرُب نازلة يضيق لها الفتى ذرعا وعند الله منها المخرج

وفي الاصطلاح: «ما استدعى حكما شرعيا من الوقائع المستجدة»[1].

فهي من الأمور التي يواجهها الداعية في هذا العصر[2]، والتي تحتاج منه إلى بحث متواصل. فكثيرا ما يتطلع المدعوون إلى معرفة رأي إمامهم في أي نازلة تنزل بهم، سواءً في ذلك النوازل العامة للأمة أو الخاصة بشخصياتهم.

ومما يؤسَف له أن لا يكون للداعية في هذا المجال باعٌ يستطيع من خلال إشباع رغبات مدعويه حتى في أقلِّ القليل من أمرها؛ كأن يبحث عن حكم النازلة أو عن مظانِّ هذا الحكم. وهذه النوازل قد قسمها العلماء باعتبارات كثيرة؛ من حيث تعلقها بالإمام والخطيب أو من حيث عمومها وخصوصها، .. وغير ذلك. فمثلاً:

أولاً: من حيث تعلقها بالإمام والخطيب.

1ـ تتعلق بالإمام مباشرة؛ كاستخدام التقنية الحديثة، أو القراءة من المصحف الإلكتروني.

2 ـ نوازل تتعلق بجماعة مسجده، وهذه تختلف من مسجد لآخر.

3 ـ نوازل ليس لها تعلق بالإمام ولا بمسجده ولا بمن يؤمُّهم.

ثانياً: باعتبار مكانها.

1 ـ نوازل واقعة بجميع الأماكن؛ فلا يخلوا منها قُطرٌ من الأقطار.

2 ـ نوازل لا تقع إلا بأماكن معينة. مثل نوازل الأقليات المسلمة.

---

(1) يُنظر في تعريفات النازلة وما يتعلق بذلك في المذاهب الفقهية: فقه النوازل، دراسة تأصيلية تطبيقية، د/ محمد بن حسين الجيزاني. ج1، ص: (24)، ط: دار ابن الجوزي، (الأولى: 1426هـ، 2005م.

(2) وقد عُقِد الملتقى العلمي الأول، بالمعهد العالي للأئمة والخطباء ـ بجامعة طيبة ـ، وزارة التعليم العالي بالمملكة العربية السعودية. وكان ضمن أعماله؛ بحثٌ بعنوان: «تعامل الأئمة والخطباء مع فقه النوازل»، للباحث: عامر بن محمد فداء بن محمد عبد المعطي بهجت.

ثالثاً: باعتبار تكررها.

1 ـ يكثر وقوعها وتكررها في المجتمع. مثل أطفال الأنابيب.

2 ـ يقل حدوثها في المجتمع. مثل صعود القمر.

وثمَّ اعتبارات أخرى كثيرة لتقسيم النوازل.

ولكن المقصد الأسمى من ذلك؛ أن لا يكون الداعية في منأى عما يحدث حوله من الأحداث التي يكثر السؤال عنها، فلا يغيب عن واقع أمته وما يُستجَدُّ فيها من وقائع ونوازل، فهو بذلك يُثبت للعالم كلِّه ولمدعويه ـ على الخصوص ـ أن الإسلام دين لا يصلح الزمان والمكان إلا به. مهما تغيرت الظروف والأحوال.

المطلب الثالث: الفقر المادي.

ما من شكٍّ في أننا نسعى جميعا لكي يكون الدعاة مِثلَ الشامة في الناس؛ كالثوب الأبيض الناصع في بياضه، ليست فيه أي شائبة من شوائب الدنس، وإن كانت فسنسعى جاهدين لتطهيره منها. فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أَصْلِحُوا رِحَالَكُمْ وَأَصْلِحُوا لِبَاسَكُمْ حَتَّى تَكُونُوا كَالشَّامَةِ فِي النَّاسِ)[1].

وإن مما يشينُ الداعيةَ بين مدعويه؛ أن يكون من أراذل القوم، ليس عنده ما يكفيه، ويكفي ولده مؤنة العيش الكريم؛ بحيث يُصبح فقيرا لا مال له، ومن كان كذلك في عصْرٍ كهذا الذي نعيش فيه «مُقِتَ واحتُقِر»[2]. وكان من هدي النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا يأكل الصدقة؛ بل يقبل الهدية ويُثيب عليها[3]. بل واستعاذ عليه

(1) أخرجه أحمد(4/ 180)، برقم: (17622)؛ وقال محققوا المسند «إسناده محتمل للتحسين» "طبعة الرسالة"، وأبو داود، كتاب: (اللباس)، باب: (ما جاء في إسبال الإزار) برقم: (4085).

(2) (ذات الأكمام ... مقامات أدبية ـ المقامة المِسياريَّة)، أ.د/ عبد العزيز بن علي الحربي ص: (218)، ط: الأولى: (1433هـ) وهي من وصايا الربيع بن خيثم: (ت: 65هـ) لولده: «ومن أيسر أكبر، ومن افتقر احتُقِر»، ذكرتُها مجلة الرأي الإسلامي، عدد: (12807)، الجمعة (25 يوليو2014م).

(3) يُنظر في صحيح مسلم؛ كتاب: (الزكاة) الأحاديث: (1069، 1071، 1072، 1074).

الصلاة والسلام من الفقر[1]، ولم يكن يأخذ من مدعويه أجراً على دعوته، بل ويعطيهم ثمن ما يستعين به على طاعة الله تعالى إلا إذا أبَوْ[2]. وقد قال عليه الصلاة والسلام لعمرو بن العاص: (يا عمرو نِعمَّا بالمال الصالح للرجل الصالح)[3]. فالداعية الصالح المصلح لاشك أنه في دعوته يريد المال كي يُذلل به الصعاب التي تواجهه.

إن الدعاة إلى الله تعالى يواجهون مشكلات حياتية يُشاركهم أو يشاركون فيها جميع الجماهير، وعندهم فوق ذلك في أعمالهم الدعوية مشكلاتٌ وتحديَّاتٌ كبيرة بعضها يتعلق بالناحية الاقتصادية الخاصة بهم؛ أمثال شراء الكتب وأدوات البحث العلمي. إضافة إلى البحوث العلمية التي يشرعون في إنجازها ـ وعليهم إن يكونوا من أهلها ـ ولا يجدون معينا ماديا يساعدهم على ذلك؛ فتخرج أبحاثهم هذه هزيلة ضعيفة[4].

فنحن في زمن أصبحت الكتب الشرعية فيه مجالا من مجالات التجارة الرابحة، وكلَّما زادت دارُ الطباعةِ خدمةً على كتاب ما؛ وتميزت بذلك عن غيرها من دور الطباعة زاد ثمن الكتاب. حتى سمعنا عن كتب هي من الكتب الأساسية لمكتبة الإمام وطالب العلم ـ كمسند الإمام أحمد في بعض طبعاته ـ جاوز ثمنها آلاف الجنيهات[5]!!.

---

(1) ينظر في ذلك سنن النسائي؛ كتاب (الاستعاذة)، باب: (الاستعاذة من الفقر).

(2) يُنظر في قصتي الهجرة وثمن الراحلة التي اشتراها أبو بكر لذلك في كتب السيرة النبوية، وثمن الحائط الذي بنى فيه النبي صلى الله عليه وسلم مسجدَه إذ قال: (ثامنوني بحائطكم هذا ..) في البخاري، كتاب: (الصلاة)، باب: (هل تنبش قبور المشركين ..)، برقم: (428). وغيره.

(3) مسند الإمام أحمد (4/ 197)، برقم: (17763).

(4) أمثال الدعاة الذين منَّ الله عليهم بأعمالٍ علمية مُحكَّمة؛ أمثال رسائل التخصص والعالمية (الماجستير والدكتوراه).

(5) وقد كان لي حيلةٌ مع بعض الزملاء الأفاضل للتغلب على هذه الأسعار الباهظة (كنَّا عشرة أو يزيد، يدفع كلُّ واحد منا ما يتقاضاه من وظيفته تحت مسمَّى بدل الزي والاطلاع، وكل واحد من المجموعة يأخذ هذا المبلغ كلَّه، ثم أتكفل أنا بالذهاب إلى المكتبات لآتي للإمام بما يحتاج إليه من الكتب وبما يحدده هو). وهذا النظام معروف عند الكثيرين بـ (الجمعية)، وكنَّا نشترط أن هذا العمل من أجل الكتب فقط.

المطلب الرابع: انعزال الداعية عن إخوانه في العمل الدعوي.

الدعاة إلى الله تعالى لا يهدفون من وراء دعوتهم إلى تحقيق أهدافٍ شخصية؛ بل غايتهم الأولى والأخيرة هي دِلالة الناس على الله عز وجل، وهذا الهدف يجعلهم متحابِّين متناصحين؛ فلا يبخل أحدهم على أخيه بنصيحة أو بمعلومة أو بأي شيءٍ فيه نفع لدعوتهم. أو لشخصياتهم كي يكونوا بين جماهيرهم بصورة طيبة.

ومما لا شك فيه أنهم في هذا الطريق ستواجههم مخاطر وتحديات ـ كهذه التي نحن بصدد الحديث عنها ـ فإذا ما قابلها الداعية بمفرده؛ إما أنه سيفشل في مواجهتها، ثم تتغلب هي عليه، أو سيواجهها ولكن ليس بالقوة المطلوبة في دحْرها، وإمَّا أن يوفق في ذلك ـ وقليل ما هم ـ.

ومن ناحية أخرى .. فسوف تكون الأحكام الصادرة عن هذا الإمام تجاه قضية من القضايا لا يرضاها الإمام الآخر؛ وبذلك يقع الجماهير بين رأيين ـ إن لم يكن أكثر ـ في مسألة واحدة؛ فتواصل الدعاة كفيل بأن يكون هذا الأمر متلاشيا أو يكاد.

فبتعاونهم واجتماعهم تتلاقح أفكارهم في مواجهة مثل هذه الصعاب؛ فإن الشيطان من الواحد قريب، ومن الاثنين أبعد.. ثم إن عنصر التجربة من العناصر المهمة في بناء الأمم والحضارات والأفكار. فباجتماعه مع إخوانه سيعلم حالهم في مساجدهم، وأبرز التحديات التي واجهتهم وكيف عالجوها وغير ذلك.

ولا يخفى على ذي لبٍّ من المسلمين؛ الفضلُ الذي في الإسلام لقضية التناصح والتشاور، والاجتماع والتعاون على طاعة الله تعالى، القائلِ في كتابه؛ ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ {المائدة: 2}.

وفي ختام هذه التحديَّات:

أقول ... وبعد:

إن تحدِّيَاً واحدا من هذه التحديات ـ الإقليمية المحلية أو العالمية أو الخاصة بشخصية الداعية ـ من شأنه أن يؤخر مسيرة العمل الدعوي سنين عددا، بل ويجعلها لقمة سائغة في أيدي أعدائها. فما بالنا إذا كانت هذه التحديات كلها مجتمعةً؛ فلا شك في أن الأمر سيكون بصورة مظلمة، والمخرج منها فقط هو إلى الله تعالى.

فالمسلمون قد تقمَّصوا شخصية غير شخصيتهم الإسلامية بل وذابوا فيها، وابتعدوا كثيرا عن بيوت الله تعالى، وتأثروا بالشبهات والشهوات التي تعجُّ بها مجتمعاتنا، فليس عندهم من اليقين ما يُدافعون به عن هُويتهم، بل وأصبحوا أمام التراث الإسلامي الذي هو منبع عِزهم وشرفهم غرقى في بحار من الجهل به، وأصبحت كذلك الأفكار الهدامة وصناعة الإعلان المفتري قرينين لا ينفصلان، إضافة إلى الجهل والتخلف الذي خيَّم على مجتمعاتنا، وكذلك النُّذْرة الكبيرة فيمن هم كمصابيح الدجى في هذه الظلمات .. أضف إلى ذلك التحديات الشخصية المتمثلة في الدعاة من الفقر العلمي في كثير من صنوف المعرفة لا سيما تخصصِهم الشرعي، ومن تفرقهم وتشرذمهم، وعدم اهتمامهم بأمر دعوتهم على الوجه الأمثل، وبالقضايا المستجدة على الساحة الدعوية والفقهية وغير ذلك، وما أمر التحديَّات العالمية عنا ببعيد؛ إذ العولمة التي يفرض القوي فيها نفوذَه وسلطانَه على الآخرين، وكذلك ما يُسمونه كذباً وبهتانا لصدّ الناس عن الدين الإسلامي العظيم؛ بـ "الإسلاموفوبيا".

وتجاه هذه التحديات كلِّها؛ أمر النبي صلى الله عليه وسلم المُسلمين بأن يُغيِّرُوا المنكر على قدر استطاعتهم؛ فمن استطاع تغييره باليد لزمه ذلك ومن استطاع بالقول فكذلك ومن لم يستطع فلا أقل من أن يُنكر ذلك بقلبه ولا يكون كذلك مُقيما عليه مع إنكاره القلبي.

ولذلك أقول: لا ينبغي بك أخي الداعية أن يُؤتى الإسلامُ أو الدعوة من قِبلك، فإذا لم تستطع تغيير المجتمع الذي تنتمي إليه محلياً ولا المحيط العالمي فلا أقل من أتسعى في تغيير نفسك بما يتناسب مع شرفِك وعِزِّك الذي شرَّفك الله تعالى به من بين خلقه؛ وهو الدعوة إليه سبحانه وتعالى.

وليست هذه رؤية سَوْداوية تشاؤمية؛ فبعد الظلام الدامسِ نورُ الفجر، ومن بين الأشواك والأحجار تُثمر الأزهار وتتكاثر؛ وما أمرُ موسى عليه الصلاة والسلام كليم الرحمن عنا ببعيد إذ تربَّى في بيت فرعون عدوه. وغير ذلك من الأمثلة التي تدلُّ دِلالة واضحة على أن الله تعالى كما قال عن نفسه ودينه ورسوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ {التوبة}. وما علينا إلا أن نزداد يقينا بما وعدنا الله تعالى وبما وعدنا به رسوله صلى الله عليه وسلم. ولن يكون هذا إلا على حالة كان عليها الإسلام من قبلُ؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم: (بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء)[1].

ولكنه .. ومع يقيننا هذا فلابد من الأخذ بالأسباب التي تندفع بها عنا هذه الشرور والتحديات؛ فبعد أنْ عرضتُ أبرز التحديات التي تواجه الدعوة الإسلامية؛ من خلال الواقع العملي والدعوي تأتي كيفية مواجهتها في القسم الثاني.

فإليه .. والله المستعان.

(1) أخرجه مسلمٌ؛ في كتاب: (الإيمان)، باب: (بيان أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا..) برقم: (232).

القسمُ الثانـي

المواجهة .. وكيفيتُها

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الدولة .. في مواجهة التحديّات.

المبحث الثاني: الخطاب الدعوي في مواجهة التحديَّات.

المبحث الثالث: رعايا الدولة .. في مواجهة التحدِّيَّات.

بين يدي المواجهة:

بداية .. وقبل الحديث عن هذه المواجهة وكيفيتها؛ لابد من بيان شيءٍ، هو من أساسيات هذا الموضوع، بل وفي كل قضية نريد لها حلاً وعلاجاً، وهذا الشيء هو: الموازنة بين الواقع الذي نعيشه ونسعى في علاجه، والمأمول الذي نريد الوصول إليه؛ في ضوء الإمكانيات المتاحة لدينا (أفراداً ومؤسساتٍ ودُوَلاً).

فإذا كان الحلُّ أو العلاجُ لقضيةٍ ما .. حلاً أو علاجاً فوق إمكانياتنا وطاقاتنا؛ فبذل الوقت في التنظير لِمثل هذا شيءٌ من العبث؛ بل هو ضَرْبٌ من ضروب الخبل والجنون. إذ لابد للعلاج أن يكون مراعِياً حالَ ومقتضياتِ الواقع الذي نعانيه من خلال هذه المشكلة، ولنا في ذلك مثلٌ من سنة النبي صلى الله عليه وسلم؛ لمَّا قال له القائل إن بي بواسير؛ فقال: (صلِّ قائما فإن لم تستطع فقاعدا فإن لم تستطع فعلى جنب)[1]، وآخر: (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه)[2]. فالأصل في صلاة المريض وغيره: القيام؛ ثم القعود، ثم على جنب، ثم .. بهذا الترتيب حسْب الاستطاعة، وكذلك في تغيير المنكر. فإذا لم يكن العلاج أو الحلُّ مراعيا لذلك فإنما نحن كما قيل .. نزيدُ الطِّن بِلَّةٌ[3].

وكذلك لابد من بيان؛ **أن الدعوة إلى الإسلام واجبة على الجميع** .. فإن الناظر في الآيات القرآنية التي تناولت قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو تناولت جانبا من جوانب الدعوة، أو وسيلة من وسائلها؛ يرى أمرَ وُجوبها أمراً واضحا، وإذا ما أضفنا إلى تلك الآيات نماذجَ من التطبيق العملي لها؛ وذلك من سنة النبي صلى الله

---

(1) أخرجه البخاري، كتاب: (تقصير الصلاة)، باب: (إذا لم يُطق قاعدا صلى على جنب)، برقم: (1117).

(2) أخرجه الترمذي في السنن، كتاب: (الفتن)، باب: (ما جاء في تغيير المنكر باليد أو باللسان أو بالقلب)، برقم: (2172)، وابن ماجة، كتاب: (إقامة الصلاة)، باب: (ما جاء في صلاة العيدين)، برقم: (1275).

(3) كحال الطبيب؛ الذي شخَّص المرض تشخيصا رائعا، ويعلم العلاج الناجع لمريضه هذا؛ سواء كان هذا العلاجُ محليَ الصنع أو مستورداً، باهظَ الثمن أم في متناول المريض؛ متوفراً أم لا، ذا بديلٍ أم لا، ويعلم كذلك حال مريضه فقراً أو غنى، ثم هو بعد ذلك يصف الدواء على خلاف هذه المعلومات؛ فيصف دواء نادرَ الوجودِ وليس هذا فحسب بل وليس في متناول مريضه الفقير. وفي آخر الأمر فما ازداد المريض إلا يأسا من علاجه؛ وازداد مرضا إلى مرضه.

عليه وسلم القولية والفعلية والتقريرية، ومن سِيَر الصحابة رضوان الله عليهم لَتَأَكَّدَ لنا أمرُ وُجوبها هذا تأكُّدَاً لا يدع مجالا للشك[1].

فلقد قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾{آل عمران: 104}، ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ {القصص: 87}، ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُۚ﴾ {النحل: 125} ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ {المائدة: 78، 79}، وغير ذلك من الآيات التي جاء فيها الأمر بالدعوة أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد قال ابن كثير رحمه الله تعالى ـ عند تفسيره الآية الأولى من هذه الآيات ـ: «والمقصود من الآية أن تكون فِرقةٌ من الأمة متصديةً لهذا الشأن، وإن كان ذلك **واجباً على كلِّ فرد من الأمة بحسبه..**»، وساق على ذلك أدلة منها: حديث من رأى منكم منكراً ـ سالف الذكر ـ، وحديث: (والذي نفسي بيده لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر أو ليوشكن أن الله أن يبعث عليكم عِقابا من عنده ثم لتدعنَّه فلا يستجيب لكم)[2] ثم قال بعده: «والأحاديث في هذا الباب كثيرة مع الآيات الكثيرة كما سيأتي تفسيرها في أماكنها»[3]. وقال أيضا رحمه الله في تفسير آية المائدة: «ذمَّهم على ذلك

(1) ينظر في أدلة الوجوب هذه ومناقشاتها وبعض الاستدلالات الأخر في: "الدعوة الفردية فقها وتطبيقاً" تأليف؛ أ. د/ يسري محمد هانئ. ط: دار الكلمة للنشر والتوزيع. ب ت.

(2) أخرجه أحمد في المسند (5/ 388)، برقم: (23301). والترمذي في السنن؛ كتاب: (الفتن)، باب: (ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، برقم: (2169).

(3) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج2، ص: (90،91).

ليحذر أن يُركب مثل الذي ارتكبوا»[1]. فاللعنة قد أصابتهم جميعاً؛ ومن أسباب ذلك: تركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولكن إذا كانت الدعوة إلى الله تعالى واجبة على جميع المسلمين؛ كلٌّ بحسب قدرته وطاقته .. فلابد من التفريق بين مجموع الأمَّةِ وبين من يقوموا بأمر الدعوة من الهيئات والأفراد الذين تمَّ تنصيبهم من قِبل ولي الأمر، فهي في حقِّ الأولين من قبيل فروض الكفايات؛ وفي حق الأخرين من قبيل الفروض العينية، ولأنهم قد مُكِّنوا كذلك مما لم يمكَّن منه الآخرين، فقد قال القرطبي رحمه الله تعالى: «.. و(مِن) في قوله ﴿**منكم**﴾ للتبعيض، ومعناه أن الآمرين يجب أن يكونوا علماء، وليس كل الناس علماء. وقيل: لبيان الجنس، والمعنى لتكونوا كلكم كذلك. وهو **الصواب والله أعلم.** لقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: بلغوا عني ولو آية، قلت: **القول الأول أصح**؛ فإنه يدل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر **فرض على الكفاية، وقد عينهم** الله تعالى بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾. وليس كلُّ الناس مُكنوا ..»[2]، ومما يدل على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ﴾[3] {التوبة: 122} وقوله: ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ﴾[4] {هود: 166}.

وكذلك لابد من العلم؛ بأن صلاح المجتمع بكافة مؤسساته وهيئاته وأفراده؛ مرهون بصلاح الدعوة الإسلامية[5]. فإذا ما أردنا إصلاحاً عاما لمجتمعنا؛ فلابد من

---

(1) سابقه ج3، ص: (160).

(2) تفسير القرطبي ج5، ص: (253).

(3) يُنظر تفسير بن كثير؛ ج4، ص: (235 ـ 237).

وقد جاء فيه ما يدل على أن هذه الآيةَ قد نسخت الآياتِ الآمرةَ بخروج الجماعة كلِّها مع رسول الله عليه وسلم إذا كان النفير إلى الجهاد. حيث تظل طائفة منهم تتفقه في الدين. ذهب إلى هذا طائفة من السلف.

(4) يُراجع في تفسيرها؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج4، ص: (360، 361).

(5) وقد سبق أن ذكرنا ما يؤيد ذلك عند الحديث عن: (ذوبان الشخصية المسلمة..)

اللجوء إلى هذا السبيل، إذ من خلاله سنعالج الخلل الواقع في عقائدنا، ومعاملاتنا، وأخلاقياتنا، وعباداتنا؛ بل وسنعالج كذلك تأخرَنا وتخلفَنا عن ركب الحضارة والتقدم.

وعليه .. فلابد من التكاتف المؤسسي للنهوض بواجب الدعوة إلى الإسلام؛ لأننا بذلك نقوم بواجب افترضه الله تعالى علينا، ومن خلال قيامنا بهذا الواجب نصلح مجتمعنا، وذلك بتقويم الخطأ أو الخلل الواقع فيه؛ سواء كان هذا الخطأ من أفراده أو مؤسساته؛ «فإذا كان المجتمع يغلب فيه انحراف ما؛ فإن المسجد لن يستطيع أن يؤدي وظيفته كما ينبغي، لأن هذا الانحراف سيحُول بين أفراد المجتمع والتأثر بالمسجد وما يُقدِّمه»[1].

فليس واجب الدعوة الإسلامية منوطاً بأفراد يرتقون المنابر وفقط، أو مؤسسة من مؤسسات الدولة فحسب؛ وإنما هو واجب الأمة، واجب المجتمع بكل تكتُّلاته ومؤسساته؛ بداية من الإعلام، أو المدرسة أو المعهد أو الجامعة أو وسائل المواصلات أو أماكن الترفيه والتنزُّه، وكذلك في المستشفيات، بل وحتى في أماكن العقوبات كالسجون والمعتقلات.

ولأجل ذلك .. يرى الباحث أن تكون هذه المواجهة التي تُناهض هذه التحدِّيات وتسعى في إضعافها أو إزاحتها بالكلية من أمام الدعوة الإسلامية لابد وأن تكون مجتمِعةً تسيرُ جنباً إلى جنب كلها في اتجاهٍ واحد وهو الارتقاء بالأداء الدعوي وتعزيزه.

وسوف أعرض هذه المواجهة من خلال المباحث الثلاثة سالفة الذكر؛ وليس في هذا فَصْلاً لها عن بعضها وإنما هو من قبيل العمل البحثي والاصطلاحي وليتميز كل واحد بما له وما عليه. وبيان هذه المباحث كالتالي:

(1) الأخلاق والقيم التربوية في الإسلام، أ. د/ علي خليل ابو العنين. نضرة النعيم، ج1، ص: (173).

المبحث الأول

الدولة .. في مواجهة التحديات

الدولة .. هي صاحبة السلطان النافذ على رعاياها؛ فمن خلالها تُسَنُّ القوانين والقواعد العامة والخاصة المنظمةُ لشئونها، ويُناط بها كذلك الأعمال الجِسام في حماية المجتمعات، فهي صاحبة الأمر والنهي، وهي التي تُحافظ على مقدَّرات رعاياها؛ وعلى أفكارهم وعقائدهم من التشويش والتضليل؛ وهذا أمرٌ لا يحتاج إلى كبير عناء من الاستدلال والتنظير فهو أمرٌ معروف معلوم لدى الكافة من الخاصة والعامة.

فهي تعمل على حماية شعوبها من الأعداء الذين يتربصون بها وبممتلكاتها الدوائر، فتعمل على إشاعة الأمن والاستقرار في أراضيها وبين مواطنيها، وتعمل كذلك على حمايتهم من الأفكار والمذاهب المضلَّة والمُضللة، وكذلك تعمل على الحفاظ عليهم من الأمراض والأوبئة التي من شأنها أن تقضي على الأخضر واليابس. وفوق هذا وذاك تعمل جاهدة في المحافظة على هويتها الحضارية والثقافية؛ وهذا هو شأن الدول جميعا المُسلمة وغيرها؛ فـ«إذا عرفنا أن الحكومات الغربية ـ كالحكومة الفرنسية مثلاً ـ تحتاط لشعوبها من الهيمنة الأمريكية عبر وسائل العولمة المرئية خشيةً على لغتها وهويتها الثقافية، ومثلها بلاد اليونان[1]، فأحرى بالأنظمة العربية والإسلامية أن تكون أكثر حيطةً وحذراً، وأن تكون هناك هيئات لتصفية الداخل والحفاظ على وحدة نسيجه»[2]. فعلى الدولة من الحقوق والواجبات ما ليس على أفرادها، وكذلك على كل

---

(1) وأذكر هنا شيئاً ذكره أ.د/ محمد سيد أحمد المسير؛ في كتابه: (نحو دستور إسلامي وضع مواده الأزهر الشريف)؛ عن الدولة الإيرانية ورعاياها ـ مواطنين أو وافدين، سائحين أو مقيمين ـ يقول رحمه الله عند تعليقه على المادة (14): «وقد لاحظت أثناء زيارتي لإيران أنه لا توجد امرأة متبرجة حتى السائحات والزائرات في وفود رسمية، كلهن ملتزمات بالزي الإسلامي بخلاف الوضع في السعودية؛ فإننا نجد الأجنبيات في جدة والرياض في أوضاع تتنافى مع الزي الإسلامي». ص: (51). طبعة المكتبة التوفيقية.

والمقصود هو: إبراز الحيطة الوقائية من الدولة حفاظاً على رعاياها من أي داء حتى وإن كان التبرج!!

(2) هويتنا الثقافية في عصر العولمة، د/ محمود سعيد حميدة عطية ص: (34). بحث مقدَّم لمؤتمر: (الثقافة الإسلامية .. الأصالة والمعاصرة.) الذي نظمته رابطة العالم الإسلامي، 1435هـ 2014م.

الأفراد واجبات وحقوق يُطالبون بها جميعا وهي ما يُعرف بالفروض الكِفائية؛ فيجب تحققها منهم مجتمعين ويأثموا بتخلفهم عن تحقيقها، وهناك واجبات يُطالب بها المرء بمفرده ولا يُطالب بها غيره؛ وعلى كل حال فالمسؤولية متوجهة إلى الجميع كلٌّ بحسب موقعه ومكانه ومكانته..

وسوف أذكر في هذا المبحث بعض المطالب التي من خلالها يظهر دور الدولة في مواجهة هذه التحديات وغيرها؛ وهي:

المطلب الأول: سنُّ القوانين والتشريعات.

أولاً: القوانين المنظمة للعمل الدعوي؛ فالدعوة إلى الإسلام حقٌّ للجميع؛ فليستْ حِكراً على أحد؛ شريطة أن تكون مأمونةَ العاقبةِ، فلا تؤدي إلى انحراف في العقيدة، أو العمل، أو السلوك؛ فتخالف ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته رضي الله عنهم. ويقوم على وضع هذه القوانين أهل التخصص؛ من الأزهر الشريف والأوقاف.

ثانياً: سنُّ القوانين التي تُقوِّم الأفكار الهدامة أو تُجرِّمُها؛ حفاظاً على الأمن الفكري لدى الجماعة المسلمة.

ويُراعى في تنفيذ ذلك أمور:

1 ــ تطبيق أحكام دَفْعِ الصائل في الفقه الإسلامي؛ فالصائل على الدِّين وعقول الناس لا يقل خطراً عمن يصول على أموالهم ودمائهم. وعليه؛ فـ «يُدفع الصائل بالأخف فالأخف إن أمكن، فإن أمكن دفعه بكلام أو استغاثة بالناس حرم الضرب، أو أمكن دفعه بضرب بيد حرم بسوط، أو بسوط حرم بعصا، أو أمكن دفعه بقطع عضو حرم دفعه بقتل؛ لأن ذلك جُوِّز للضرورة، ولا ضرورة للأثقل مع إمكان تحصيل المقصود بالأخف ..» [1]. ولعلَّ من الشواهد على ذلك ما فعله عمر رضي الله تعالى

(1) الموسوعة الفقهية وزارة الشؤون الإسلامية بدولة الكويت ج28، ص: (106، 107).

عنه مع صبيغٍ التميمي الذي كان يسأل عن أشياء في القرآن تعنُّتاً؛ فضربه رضي الله عنه مائة؛ ثم مائة، ومنع الناس من مجالسته..[1].

وعليه .. فمن خلال ذلك لابد من التدرج في تقويم هذه الأفكار، بمعنى: **قرع الحجَّة بالحجة أولاً**؛ إذ أن هذه الأفكار ما تأسست إلا على شبهاتٍ يراها أصحابُها حُججاً، فإذا ما تمَّ هدم هذه الشبهات ونقضها من أساسها؛ سهُل بعد ذلك انقياد أصحابها للحق، فالهدف هو معالجة الأفكار لا الأشخاص؛ لأن الشخص يكون أسيرا لفكرة تشرَّبها واطمأنَّتْ في قلبه، فأخذ يُدافع عنها ويبذل في سبيلها كل غالٍ ورخيصٍ كأنها الحقُّ ولا شيء بعده!!. ثم إنه من المعلوم والمشاهد أن الأفكار لا تموت بموت أصحابها، فمن ثمَّ لابد من هذا أولاً. **فتستعين الدولة في ذلك بأهل العلم في تفنيد تلك الشبهات ومحاورة أصحابها**؛ بُغية ردّهم إلى صفوف إخوانهم ممن هجروهم بتلك الأفكار، ولنا في ذلك مثل مهمٌّ؛ وهو: محاورة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما للخوارج[2].

2 ــ اتباع آداب الحوار الإسلامي وعدم التنابز بالألقاب؛ فلا يوصف المخالف: بالإرهاب ولا بالزندقة ولا بالضلال ولا بالبدعة ولا بالكفر ولا بالفسق .. ولا غيرها، لأنها أوصاف من شأنها أن تجعل في نفس المدعوِّ أو المخالف حواجزَ يصعب من خلالها النفوذ إلى عقله؛ ومن ثمّ عدم انقياده للحق، فإن من ينظر في القرآن الكريم، وفي سنة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرته الشريفة يرى هذا الأمر واضحا تمام الوضوح.

فلقد قال الله تعالى: ﴿ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا **لَّيِّنٗا** لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾{طه: 43، 44}، ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾{العنكبوت:46}، ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾

(1) يُنظر في قصته تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج 7، ص: (413،414).

(2) وقد نوهت عليها قبل ذلك في التحدِّيات.

{آل عمران:63}، بل ويزداد الأمر إلى أن يصف الداعية نفسه مع مدعويه ممن خالفوه بنفس الأوصاف؛ من قبيل العدل والإنصاف، تنزُّلاً في الخطاب[1]، كما قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ **عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ**﴾ {آل عمران:61}، ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ **وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ** قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ {سبأ: 24ـ 26}. إنما هو واجب الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة؛ فالله تبارك وتعالى أمرنا أن نقول القول الحسن للناس جميعاً فقال: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ {البقرة: 83}.

وفي سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وهديه في مخاطبة المدعوين ما يُنير الطريق؛ فلقد صعد على جبل الصفا في أول إنذارٍ كلَّفَهُ الله تعالى به؛ فقال: (يا بني عبد المطلب، يا بني فهر.. وأخذ يعدد بطون قريش) ولم يقل يا عبَّاد الأصنام، ولم يقل مرة لطاغية قريش "يا أبا جهل"، ولكن كان من هديه صلى الله عليه وسلم في دعوته أنه كان يُكنِّيهم بالكنى والألقاب التي يُحبونها؛ كما في دعوته لأبي جهل هذا فيقول له: (يا أبا الحكم هلمَّ إلى الله ورسوله)[2] ... ولم يخاطب النبي عليه السلامُ أحدا بالكفر ولا بهذه الأوصاف التي تعجُّ بها مجتمعاتنا وكانت سببا في إزهاق كثير من الأرواح؛ بل قال صلى الله عليه وسلم (لم أبعث لعاناً وإنما بعثت رحمة)[3]. وقد طبق هذا المنهجَ علماءُ الإسلام؛ فهذا الذهبي ـ رحمه الله ـ قد ترجم لكبار المبتدعة وأدخلهم في كتابه تحت مسمَّى "**أعلام النبلاء**".

---

(1) إذ أنه على يقين بدعوته لا يشك فيها.

(2) ينظر في ذلك صحيح السيرة النبوية "ما صح من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم.. للحافظ ابن كثير، بقلم محمد ناصر الدين الألباني، ص: (162) المكتبة الإسلامية ط أولى: (1421هـ) عمان، الأردن.

(3) أخرجه مسلم؛ كتاب: (البر والصلة والآداب)، باب: (النهي عن لعن الدواب وغيرها)، برقم: (2599).

فهلَّا كانت المحاورات والمناقشات مع إخواننا هؤلاء تحت هذا الشعار: "حوار مع بعض النبلاء"، أو "حوار مع إخواننا"، أو "في مناقشة بعض العقلاء" مثلاً ..أو كما قال أحد العلماء في كتابٍ له أسماه بـ: "حوار مع صديقي الملحد"، فقد وصفه أولاً بالصداقة! وثانيا بالإلحاد؛ لأن الملحد غالباً يقرُّ بهذا الوصف ويظهره ولا يتبرأ منه.

ثالثاً: تسعى الدولة سعياً أكيدا بخطوات مدروسة نحو تحسين المستوى المادي للدعاة؛ ليس لأجل أشخاصهم وإنما لأجل ما يحملون. فإنهم في حاجة ماسة إليه، وذلك لتصحيح المسار الثقافي في المجتمع. فإذا ما كان الداعية على الوضع الأمثل علمياً ومادِّيًّاً فإن الناس في: المسجد، والمدرسة، والشارع، والجامعة، ومراكز الشباب والرياضة، والأندية العامة والخاصة، والمؤسسات الحكومية بشتى أنواعها .. سيحتاجون إليه ولن يقتصر دوره معهم على المسجد فحسب، بل ولن يقتصر دوره على بني وطنه فقط؛ وهذا إذا ما تمَّت إعارتُه إلى بلد من البلدان الأخرى داعيةً ومعلما لهم الخير.

فالدعوة الإسلامية في حاجة شديدة إلى الداعية أكثر من حاجتها إلى المسجد؛ ولا عجب! فإن النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يُهاجر إلى المدينة؛ قد دخل الإسلامُ كلَّ بيوتها، وكان له فيها أنصار، بايعوه على بذل النفوس والأموال فداءً له عليه الصلاة والسلام، ولم يكن آنذاك قد بنى مسجده صلى الله عليه وسلم فيها، وهذا بفضل الله تعالى أولا، ثم بفضل الدعاة إلى الإسلام ثانيا من الصحابة الكرام أمثال مصعب بن عمير،[1]. وأمثال أبي موسى الأشعري ومعاذ بن جبل في اليمن، رضي الله عنهم جميعا. وكذلك في كلِّ الأقطار التي فتحها المسلمون يذهب إليها المسلمون ـ الدعاة ـ أولاً، ثم يعلمونهم ثانياً، ثم ثالثاً يبنون المساجد.

(1) يُنظر في ذلك أحداث بيعتي العقبة الأولى والثانية قبل الهجرة؛ في: الفصول في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم؛ للإمام الحافظ ابن كثير، ص: (29 ـ 32)، طبعة دار عمر بن الخطاب الأولى: (1434هـ، 2013م). وكذلك: السيرة النبوية دروس وعبر د: علي محمد الصلابي، ج1 ص: (355 ـ 369). طبعة مكتبة الإيمان بالمنصورة.

المطلب الثاني: في المجال الإعلامي

المجال الإعلامي من أهم المجالات التي لها أكبر الأثر في توجيه الجماهير وتعليمهم وتثقيفهم ـ وقد سبق بيان ذلك ـ؛ فلابد وأن تسعى الدولة في استغلاله الاستغلال الأمثل في الدعوة إلى الله تعالى. وذلك من خلال البرامج الدينية المتتابعة؛ كي يتعلم الناس من خلالها أحكام الإسلام في عباداته وأخلاقه ومعاملاته لا أن يكون الإعلام فقط ساحة للأفلام والمسلسلات والمسرحيات التي تهدم في المجتمعات أكثر مما تبني، بل وتقوم بهدم ما يبنيه الدعاة المخلصون.

فإن للقنوات الدينية أثراً ظاهرا عند المشاهدين؛ فهي تتمتع «بمكانة محترمة لدى المشاهِد في العالم العربي، ويدل على ذلك النِّسَب المرتفعة من المشاهدة التي تسجلها هذه القنوات بصورة مطردة سنوياً، مما يُعوَّل عليها في دَوْرٍ ريادي إصلاحي توجيهي تغييري في اتجاهات وسلوكيات الفئات الشابة التي قد تُعرض لها خطابات الغلو والتشدد، التي تُفضي في أكثر أحوالها إلى السقوط في هاوية تكفير الآخرين من غير بينة ولا أهلية علمية تُسنِدُ أصحابَها لبلوغ منازل المُفتين الثقات»[1].

وكمثالٍ للتدليل على أهمية البرامج الدينية عند الناس وتكوين ثقافتهم من خلالها؛ فقد: «أسفرت نتائج دراسة "البرامج الدينية في التلفزيون المصري" على عينة من [طلبة جامعات: الأزهر ـ القاهرة ـ الأمريكية بالقاهرة] عن نِسبٍ مرتفعة لتعرض الطلاب لإذاعة القرآن الكريم تفُوق تعرضهم لمصادر عديدة أخرى؛ كـ" الكتاب، والمجلة، والشريط، وغيرها" فقد قرروا أنهم يتعرضون لإذاعة القرآن الكريم، ويستمعون لبرامجها وما تقدمه من مواد دينية؛ ... وتفاوتت النسبة بين طلاب هذه الجامعات فكانت: 96% طلاب جامعة الأزهر، 90,40% طلاب جامعة القاهرة، 56,7% طلاب

(1) دور الإعلام الإسلامي في تعزيز الموقف ضد التكفير لدى الشباب(أحد البحوث المقدمة لمؤتمر رابط العالم الإسلامي "الإسلام ومحاربة الإرهاب")، د/ محمد مراح ج 2، ص: (245). مكة المكرمة (1436هـ 2015م).

الجامعة الأمريكية، .. ولا شكَّ أن هذه النِّسب على تفاوتها فإنها تعتبر مرتفعة وتشير إلى مكانة إذاعة القرآن الكريم عند هؤلاء الطلاب»[1].

إن الإعلام بأنواعه ـ المسموع والمشاهد والمقروء ـ لا يخفى أثره في الدعوة إلى الله تعالى، وكذلك لا يخفى تأثيره عليها سلباً وإيجابا؛ فكان من الضروري استخدامه فيها، خاصة وإذا علمنا ـ كما سبق ـ أن المواطن المصري يظلُّ أكثر من نصف ساعة على الجرائد والصحف والمجلات وذلك كلَّ يوم.

إن الإعلام له أسس وأهداف؛ وكلاهما ينبغي أن نسعى في تحقيقه؛ فمن أسسه: (الحق، والصدق، والعدل والإنصاف، والموضوعية والنزاهة)، ومن أهدافه: (الدعوة إلى الله تعالى، الدفاع عن المسلمين وتبنى قضاياهم، الدفاع عن الإسلام. الذود عن أخلاق المجتمع المسلم وتزكيته)[2]

وعلى ذلك .. فما المانع من:

ـ أن تكون نسبة البرامج الدينية مرتفعةً ارتفاعا يتناسب مع حاجة الناس إلى دينهم وعقائدهم وأخلاقياتهم ومعاملاتهم؛ لا أن تكون من قبيل الترف العقلي. وأن تتناول هذه البرامج كافة فئات المجتمع (الكبار والصغار ـ الرجال والنساء ـ وكذلك موظفوا الدولة؛ والأحكام الفقهية المتعلقة بأعمالهم).

ـ أن تكون ضمن الصحف الرسمية صفحات كاملة؛ تتناول العبادات والعقائد والأخلاق وجوانب من اللغة العربية والتاريخ الإسلامي ونسبتُها كالتي سبقت في البرامج الدينية سالفة الذكر.

(1) "البرامج الدينية في التلفزيون المصري ودورها في التثقيف الديني للشباب" رسالة ماجستير، كلية الإعلام جامعة القاهرة، 1412هـ، 1999م، ص: (328)، نقلاً عن المصدر السابق ج2، ص: (252).

(2) الإعلام الإسلامي رسالة وهدف، سمير بن جميل راضي.1417هـ، العدد 172، ص: (59 ـ 73)، ص: (73 ـ 107) رابطة شباب العالم الإسلامي.

ـ أن تكون كلُّ الوسائل التي من شأنها أن تخدم الهدف الدعوي الإسلامي مستخدمةً في هذا السبيل؛ كاستخدام اللافتات الإرشادية على الطرقات، وكذلك اللوحات المعلقة في المؤسسات الحكومية، والمطبوعات الدعوية التي تُنشر وتوزع على الجماهير.. وغير ذلك[1]. فهذه الوسائل من شأنها أن تصنع رأيا عامًّا في المجتمع وتصبغه بصبغة إسلامية جيدة؛ ففيها: تعريف بحقيقة الدين، وتعليم للجاهلين، وتنبيه للغافلين، وإرشاد للضالين .. وغير ذلك مما هو معلوم.

وأخيرا وليس آخراً مع الإعلام .. لابد فيه من تضافر الجهود في خدمة عمل واحد؛ ألا وهو الدعوة إلى الإسلام، فلا يكون فيه مثلاً برنامج دينيٌ للعقائد والعبادات؛ ويأتي فيلم أو مسلسل أو برنامج آخر لينقض كلَّ ما قيل في ذلك البرنامج الديني وهكذا .. وإلا فكما قيل:

متى يبلغ البنيانُ يوماً تمامَه .. إذا كنت تبني وغَيْرُك يهدِم

المطلب الثالث: في المجال التعليمي.

إن العملية التعليمية من أهم وأعظم الوسائل والأساليب في مواجهة هذه التحديات وغيرها، وذلك مما لها من مميزات وخصائص عن باقي الوسائل الأخرى، فالآباء يدفعون أبناءهم إلى دُور التعليم طواعيةً، ويَثقُون كذلك في المناهج التي تُدرس على أبنائهم، وهي كذلك تربي النشء شيئا فشيئا، وتتنقَّل معه في جميع أطوار حياته؛ لا سيما أدوار البناء والمراهقة. ومما يؤكد على أهمية العملية التعليمية في تكوين العقول والأفكار؛ أقوال كثيرة للقائمين على أمرها، أذكر منها: ما قاله بعض الهنود: «يا لَغباء فرعون كان بإمكانه أن يفتح المدارس ويخرب عقول شباب بني إسرائيل عوضاً من أن

(1) وقد نوقشت رسالة علمية بعنوان: (دعوة غير المسلمين إلى الإسلام في البلدان العربية .. الواجب والواقع) للباحث: أحمد جودة السيد محمد سالم، بجامعة الأزهر، فرع المنصورة؛ وكان ضِمن نتائجها المتعلقة بالوسائل والأساليب في دعوة غير المسلمين: «**المطبوعات الدعوية**، وذلك لما تتميز به من: قلة التكاليف، سهولة إيصالها إلى أعداد كبيرة من المدعوين، والتغلب من خلالها على حاجز اللغة إلى غير ذلك من المميزات التي ذُكرت أثناء الرسالة». ج2 ص: (600). العام الجامعي(1427هـ ـ 2007م).

يذبحهم»[1]. وقال أحد علماء السوفيت: «إن التعليم هو الحامض الذي يذيب شخصية الكائن الحي ثم يكوِّنُها كيف يشاء، إن هذا الحامض هو أشد قوة وتأثيراً من أي مادة كيمائية، هو يستطيع أن يُحول جبلاً شامخاً إلى تراب. وقال: إياك أن تكون آمناً من العلم الذي تدرسه؛ فإنه يستطيع أن يقتل روح أمة بأسرها»[2].

ولكي نواجه هذه التحديات من خلال هذه العملية التعليمية أذكر بعض الوسائل التي أراها ـ إن شاء الله تعالى ـ نافعةً في ذلك الأمر؛ منها:

1. **إصدار كتاب من الكتب الدينية المتعلقة بمناقشة أشهر الشبهات** الخاصة بالإلحاد، والتكفير، والإرجاء، وغير ذلك من الشبهات التي تثار حول الإسلام وكتابه القرآن الكريم ورسوله الأمين صلى الله عليه وسلم. ويكون تدريسه عاما على الطلاب جميعا لا سيما المرحلة الثانوية والجامعية. إذ أنه يكثر في هذه الأعمار، وهذه الأماكن إلقاء الشُّبَه على الشباب (بنين وبنات)؛ بهدف زعزعتهم عن دينهم وعقيدتهم. وتكون هذه المادة إلزامية على جميع الطلاب؛ فلِأَن نَقيَ طلابنا من تحديات كهذه؛ خير لنا من أن يخرج من جامعاتنا من يبيحون دماءنا وأموالنا[3].
2. **إعادة النظر في المقررات الدراسية**، وبخاصة المتعلقة بالثقافة الإسلامية ـ كمادة التربية الدينية الإسلامية، واللغة العربية، والتاريخ الإسلامي ـ وصياغتها صياغة جديدة؛ فيها: التركيز على الجانب التعبدي بصورة كبيرة ودقيقة؛ فيقوم

---

(1) بيان العلم الأصيل والمزاحم الدخيل. عبد الكريم بن صالح الحميد ص: (38)، ط الأولى 1424هـ.

(2) مرجع سابق. ص: (40).

(3) وللمجلس الأعلى للشئون الإسلامية كتاب ناقش فيه أبرز الشبهات التي تُثار حول الإسلام من المشككين؛ وهو بعنوان: **(حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين)**، إشراف وتقديم: أ.د/ محمود حمدي زقزوق، 1423هـ، 2002م. ومن أكبر ما وقفت عليه من الأعمال المتعلقة بهذا الموضوع؛ موسوعة: **(بيان الإسلام .. الرد على الافتراءات والشبهات)** قام على تحريرها أكثر من مائتي عالم في مجالات وتخصصات مختلفة؛ في مقدمتهم: (أ.د/ أحمد عمر هاشم، أ.د/ محمد الأحمدي أبو النور، أ.د/ عبد الله عبد العزيز المصلح، أ.د/ نبيل السمالوطي، أ.د/ محمد محمد داود). وقد قامت بالرد على (1200 شبهة تقريباً) في (24 مجلد)، طبعة نهضة مصر.

عليها متخصصون من علماء الشريعة الإسلامية فقط. حتى لا تخرج بصورة علمية هزيلة لا تراعي جميع أنواع العبادات؛ فالطالب الأزهري ـ مثلاً ـ يدرس من جوانب العبادات والأخلاق والمعاملات ما لا يأخذ مثله بل ولا نِصفَ نصفه؛ الطالبُ في التعليم العام. وكذلك يُراعي في صياغتها الفوارق النفسية والشخصية والعملية لكل من الذكر والأنثى؛ فلا تُلغى بعض الأحكام المتعلقة بأحدهم لأجل الآخر، وهذا كلُّه لأن دراسته هذه غالباً ما ستكون هي المرجع الوحيد الذي سيرجع إليه فيما بعد، فلا بد وأن يأخذ كِفايته في هذه الجوانب التي تصح بها عبادته ومعاملاته. وكذلك الأمر في جانب اللغة العربية والتاريخ الإسلامي.

3. **التنسيق المستمر والدائم بين وزارتي الأوقاف والتربية والتعليم** في عقد الندوات والبرامج التثقيفية والإرشادية للطلاب؛ وذلك لمناقشة أفكارهم وتوجيهها، وحلِّ ما يطرأ عليهم من مشكلات وشبهات؛ فلا أقل من أن يُعقد لقاء ديني شهري مع جميع طلاب المدرسة؛ سواءً كان هذا اللقاء للجميع مرة واحدة ـ ولا أحبذ هذا ـ، أم مرة واحدة لكل صف دراسي على حدة؛ وهذا لأن هذه الفئة الطلابية في عزوف تام عن المساجد غالباً. فإذا لم يذهبوا إلى الداعية ذهب هو إليهم. بل يكون هذا من باب الإلزام على الداعية؛ فلا أرى بأساً أن يُلحق كلُّ إمام أو أكثر ـ حسب الحاجة ـ بمدرسة من المدارس التعليمية، وتكون هذه المدرسة وإلقاء الندوات والمحاضرات الدينية بها من قبيل عمله بل من صميمه.
4. **التشجيع على القراءة والثقافة العامة للمجتمع**؛ وتيسير سبلها على المواطنين، ولابد في ذلك من ملاحظة فرق جوهري بين الثقافة والعلم ـ العلوم البحتة ـ فإن لكلٍّ منهما طبيعةً مباينة للآخر: «فالثقافة مقصورة على أمَّة واحدة تدين بدين واحدٍ، والعلم مشاع بين خلق الله جميعاً، يشتركون فيه اشتراكاً واحداً مهما اختلفت الملل والعقائد»[1]. فلابد من تثقيف المجتمع في ضوء تدينه، ومن سُبل

(1) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا. أبو فهر محمود محمد شكر، ص: (75).

ذلك القراءة النافعة، فعلى: «الحكومات دعم القراءة من خلال توفير الجو المناسب لها، ووضع مناهج جيدة للقراءة في المدارس، وليس اعتبارها مادة هامشية، وأن يهتموا باختيار ما يُعين على تغذية العقول والخروج بجيل يقود العالم»[1].

وفي آخر هذا الأمر أذكِّر بقول النبي صلى الله عليه وسلم: (أَلَا كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ،..)[2].

(1) القراءة صناعة الأمم، عبد الله شريف. مقال بمجلة الوعي الإسلامي ص: (41)، عدد: (نوفمبر 2017م).

(2) أخرجه البخاري، كتاب: (الجمعة)، باب: (الجمعة في القرى والمدن)، برقم: (893). ومسلمٌ، كتاب: (الإمارة)، باب: (فضيلة الإمام العادل)، برقم: (1829).

المبحث الثاني

الخطاب الدعوي في مواجهة التحديات.

الخطابُ الدعوي هو أهم الوسائل الأساسية التي من خلالها يتعلم الناسُ دينَهم؛ بأخلاقه وعباداته ومعاملاته. ولذلك كان من الضروري العملُ على تحسينه ومعالجة سلبياته وأخطائه، وسوف أذكر في ذلك إن شاء الله تعالى سبيلين؛ أولَهما: في النهوض بالخطاب الدعوي عموما، وثانيهما: في ذِكْر بعض الركائز لهذا الخطاب الدعوي في مواجهة هذه التحديات.

المطلب الأول: في النهوض بالخطاب الدعوي.

في مقدمة الحديث عن النهوض بالخطاب الدعوي؛ لابد من لفت النظر إلى قضية من أهم القضايا المتعلقة بذلك؛ ألا وهي قضية "تجديد الخطاب الديني". فقد كثر الكلام فيها إفراطاً وتفريطاً؛ ما بين عقدٍ للمؤتمرات والندوات، وتأليف للكتب والأبحاث العلمية وغير ذلك[1]. ولكنها قضية من القضايا المهمة في هذه الآونة، والتي لها اعتبارات أساسية في موضوع التحديات؛ **إذ التجديد له أصل في كتاب الله الكريم وسنة النبي صلى الله عليه وسلم، وليس معناه إطلاقا التجرد من أصول الدين وثوابته ومسلماته أو الخروج على مبادئه وأخلاقياته؛ وإنما يعني البحث في أدلته المعتبرة ومقاصده العامة واستنباط ما يتفق منها ومتطلبات العصر**[2].

---

(1) وقد عقدت مشيخة الأزهر الشريف برعاية شيخ الأزهر؛ مؤتمرا تناول فيه هذه القضية، في الفترة (15، 16/ 3/ 2017م)، وكان تحت هذا العنوان: (تجديد الخطاب الديني بين دقة الفهم وتصحيح المفاهيم)، وقد حضره جمع من أساتذة الفقه والحديث والإفتاء بالأزهر الشريف وجامعته. وقد ذكر المجتمعون توصيات مهمة في هذه القضية؛ تُنظر أعمال المؤتمر وتوصياته: بمجلة الأزهر؛ العدد: (شعبان/ 1438هـ)، ص: (1721 ـ 1725).
ومن الكتب والأبحاث العلمية التي أُلِّفت لمناقشة هذه القضية؛ ما يلي: (1 ـ تجديد الخطاب الديني بين التأصيل والتحريف. محمد موسى الشريف ط: مجلة البيان، 2 ـ مفهوم تجديد الدين د/ بسطامي محمد سعيد؛ مركز تأصيل؛ مركز تأصيل للدراسات والبحوث. ... وغيرها)

(2) من توصيات مؤتمر الأزهر (تجديد الخطاب الديني بين دقة الفهم وتصحيح المفاهيم)؛ مجلة الأزهر، عدد شعبان (1438هـ). ص: (1724، 1725).

وعليه .. فلابد من مراعاة بعض الأمور للنهوض بالخطاب الدعوي؛ منها:

- **مراعاة حال المتلقي للخطاب الديني (زماناً، ومكانا، وثقافة، ونوعاً)**[1].

إذ أنه ما من شكٍّ في أن هناك اختلافٌ بيِّنٌ بين الجماهير في هذه الأمور وفي غيرها؛ فالبيئة ذات الثقافة العالية لا يصلح معها الخطاب الذي يوجه إلى البيئة ذات الثقافة القليلة ـ كالأمِّية مثلاً ـ، أو البيئة البعيدة عن مجريات الأمور والأحداث العظيمة، وكذلك لا يصلح الخطاب لقوم عندهم من العبادات والأخلاق ما ليس عند الآخرين من العصاة والمذنبين، فقد كان كلُّ نبيٍ من الأنبياء يُكلِّم قومه في دعوته إياهم عن ما ظهر عندهم من الآثام؛ فهذا لوطٌ عليه السلام يكلم قومه في ذنبهم، وكذلك شعيب عليه السلام في تطفيف الكيل والميزان، .. بالإضافة إلى الأصلِّ الأصيل والركن الركين في الدعوة؛ وهو دعوتُهم جميعاً عليهم السلام الناسَ إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له.

ومما يُستأنس به في هذا المقام؛ توجيه عبد الرحمن بن عوف لعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ؛ وذلك عندما علم عمرُ أن فلانا يقول عن بيعة أبي بكر رضي الله عنه إنها فَلْتَةٌ، فقال عمر رضي الله عنه: (إني إن شاء الله لقائم العشية في الناس فمحذرهم هؤلاء الذين يريدون أن يغصبوهم أمورهم؛ قال عبد الرحمن فقلت: يا أمير المؤمنين لا تفعل **فإن الموسم يجمع رِعاعَ الناس وغوغاءهم**؛ فإنهم هم الذين يغلبون على قربك حين تقوم في الناس، وأنا أخشى أن تقوم فتقولَ مقالةً يطيرها عنك كلُّ مطير، وأن لا يعُوها وأن لا يضعوها على مواضعها؛ فأمهل حتى تقدم **المدينة؛ فإنها دار الهجرة والسنة فتخلص بأهل الفقه وأشراف الناس فتقول ما قلت متمكنا فيعي أهل العلم مقالتك ويضعونها على مواضعها** فقال عمر: أما والله إن شاء الله لأقومنَّ بذلك أول مقام أقومه بالمدينة؛ قال ابن عباس ـ راوي الحديث ـ فقدمنا المدينة في عقب ذي الحجة

(1) إحدى توصيات مؤتمر الأزهر ـ سالف الذكر ـ؛ المصدر السابق. وما تحتها من كلام؛ إنما هو من قبيل الباحث، كتأكيد واستدلال لذلك الأمر.

فلما **كان يوم الجمعة** عجلت الرواح حين زاغت الشمس حتى أجد سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل جالسا إلى **ركن المنبر** فجلست حوله تمس ركبتي ركبته فلم أنشب أن خرج عمر بن الخطاب فلما رأيته مقبلا قلت لسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ليقولن العشية مقالة لم يقلها منذ استخلف ..)[1]. فهؤلاء أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وما فقهوه من أحوال الناس في تلقي الخطاب؛ فما يصلح لأهل المدينة دار الهجرة والصحابة وأهل الفقه لا يصلح لأهل الموقف الحج الأعظم وما فيه من الغوغاء وفيهم كذلك أهل الفقه والدين، وهذا في جمع وذاك في جمعٍ آخر؛ ولكن لكلِّ مقامٍ مقال. والله الموفق.

- **تعدد الأساليب الدعوية.**

فالداعية ينبغي عليه أن يكون في خطابه مع الجماهير متنوعاً في أسلوبه؛ ما بين تشويق والتبغيض، وترغيب الترهيب، محاججة ومحاورة، والخطاب العقلي، وأسلوب القصص الوعظي الصحيح، وأسلوب والتشبيه وضرب الأمثال، وغير ذلك من الأساليب المعروفة عند علماء البلاغة والفصاحة.

فالمقصود؛ هو أن يكون الداعية بمثابة حديقةٍ فيَّاحةٍ متنوعة الثمار يانعة، بعيدا كلَّ البعد عن الرَّتابة[2] التي انتابت كثيرا من المنابر؛ فأدَّت إلى زهادة بل نفورٍ من الخطاب الديني ككلٍّ.

- **تحسين الإعداد الفني للخطبة.**

نسمع ونرى كثيرا عن أولئك الدعاة الذين ما أعدُّوا العدّة لهذا اللقاء الجماهيري؛ فخرجوا إلى مدعويهم منزوعي الدليل والحجة والبرهان، وإن كان معهم هذا الدليل فقد ألبسوه ثياباً باليةً مرقعةً؛ فكانت في عيون الناس مرغوب عنها لا فيها. إن على الداعية أن يُجوِّد أدلةَ لقائه ويتقنها من حيث الصحة والاستدلال والإلقاء، وأن يكون عنده وفرةٌ كبيرة في أدلته تلك؛ حتى إذا نسيَ واحدا منها أسعفه آخرُ،

(1) أخرجه البخاري، كتاب: (الحدود)، باب: (رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت)، برقم: (6830). ومسلمٌ، كتاب: (الحدود)، باب: (رجم الثيب في الزنا)، برقم: (1691).

(2) الرّتابة: «تكرار الشيء على وتيرة واحدة» المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية؛ ص: (254) مادة: (رتب).

وقد: «قال لوثر بوربانك قبل وفاته: "أنتجتُ مليون عينة نباتية لأجد واحدة أو اثنتين منها أفضل من سائر العينات، بعد ذلك اتلفت جميع العينات الرديئة"؛ وكذلك الخطاب ـ يجب أن يكون بروح الوفرة وحسن التمييز، فاجمع منه فكرة وأسقط تسعين منها، أجمع المزيد من المواد، والمعلومات أكثر مما يمكن استخدامه، اجمعها من أجل التأكُّد من صحة ما لديك ..»[1]. ألا فليتق اللهَ عز وجل كلُّ داعية فيما يقوله ويُمليه على مدعويه، فإنه مسؤولٌ عن ذلك؛ إذْ هو مبلغٌ وموقِّعٌ عن الله تعالى ومقيمٌ للحجة على العباد.

المطلب الثاني: ركائز للخطاب الدعوي في مواجهة التحديات.

الخطاب الدعوي كغيره من الخطابات؛ له أسس وقواعد، بغيرها لا يعدُّ ذا قيمة أو فائدة، فتزداد أهميتُة وقيمته إذا تضمَّن هذه الأسس؛ كما تقل أو تضمحِل تلك القيمة على قدر وُجودها أو عدمها؛ وبالأخص إذا ما واجهت تحديَّات كهذه التي سبق سردهُا بين يديك؛ ولذلك يرى الباحث من الركائزِ المهمَّةٍ التي ينبغي أن لا يخلوا منها الخطاب دعوي في تلك الآونة؛ ما يلي:

- **التركيز على محدودية العقل والحواس البشرية.** فكما أن حواس الإنسان الخمس؛ من الذوق واللمس والشم والسمع والبصر لها حدود لا تستطيع أن تتعدَّاها. فكذلك العقل له حدود؛ لأن مصادر المعرفةِ وروافدها لديْه ـ وهي الحواس البشرية ـ لها حدود. فكيف يكون مَنْ مَصدرُ معرفتِه محدودٌ أن يكون هو بلا حدود؟! والخطأ في فهم ذلك أدَّى إلى إشكالية من أجلها ظهرت أفكار وتساؤلات تسببتْ في ظهور فكر الإلحاد وغيره من الأفكار الأخرى. ولابد كذلك من التمييز بين المَواطن التي لا يملك العقل فيها إلا التسليم بل ولا يُقبل منه غيره؛ أمثال؛ التسليم التام: «للغيبيات التي جاء بها الوحي، للأخبار الشرعية، الأوامر والنواهي الشرعية، التسليم للأحكام التعبدية، رفض التسليم لأحد سوى

(1) فن الخطابة، ديل كارنيجي، ط: (الطبعة العربية الأولى، 2001م، الأهلية، بيروت)؛ ص: (37) بتصرف.

الله تعالى، التسليم للمصالح والمفاسد والحِكم الشرعية»[1]؛ فهذه مَواطن لا يملك العقل فيها إلا التسليم لأن الوحي قد كفاه مؤنتها. بل إن الشاطبي رحمه الله تعالى في إحدى مُقدَّماته للموافقات قال فيها: «إذا تعاضد العقل مع النقل على المسائل الشرعية فعلى شرط أن يتقدم النقل فيكون متبوعاً ويتأخر العقل فيكون تابعا؛ **فلا يسرح العقل في مجال النظر إلا بقدر ما يُسرِّحه النقل**»[2]. ومع ذلك فلا ينبغي ولا يجوز أن يُلغى وجود العقل أو يُهمل؛ بل إنه يُقدَّمُ في دِلالته إن كانت قطعية على الخبر النقلي إن كانت دلاته ظنِّيةً؛ وهذا من قبيل وضع الأمور في مواضعها وأنصبتها فلقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم ما يؤكد ذلك؛ فـ (عن أنَسٍ: أنَّ رجُلًا اتُّهِمَ بأُمِّ ولدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم **فأمَر النَّبيُّ عليه السَّلامُ عليَّ بنَ أبي طالبٍ أن يقتُلَه**، فأتاه فوجَده في رَكِيٍّ يتبرَّدُ، فأمَره بالخروجِ، **فلمَّا خرَج فإذا هو مَجْبوبٌ لا ذَكَرَ له**، فترَكه وعاد إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فأخبرَه)[3]، وكذلك: (بَعَثَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ سَرِيَّةً فَاسْتَعْمَلَ رَجُلًا مِنَ الأنْصَارِ وأَمَرَهُمْ أنْ يُطِيعُوهُ، فَغَضِبَ، فَقالَ: أليسَ **أمَرَكُمُ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ تُطِيعُونِي؟ قالوا: بَلَى**، قالَ: فَاجْمَعُوا لي حَطَبًا، فَجَمَعُوا، فَقالَ: أوْقِدُوا نَارًا، فأوْقَدُوهَا، فَقالَ: ادْخُلُوهَا، فَهَمُّوا وجَعَلَ بَعْضُهُمْ يُمْسِكُ بَعْضًا، **ويقولونَ: فَرَرْنَا إلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِنَ النَّارِ**، فَما زَالُوا حتَّى خَمَدَتِ النَّارُ، فَسَكَنَ غَضَبُهُ، فَبَلَغَ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَقالَ:

---

(1) يُنظر: التسليم للنص الشرعي والمعارضات الفِكرية المعاصرة، د/ فهد بن صالح العجلان، ص: (29 ـ 33)، مركز تأصيل للدراسات والبحوث..

(2) الموافقات؛ لأبي إسحاق الشاطبي، ج1، ص: (141) ط: دار الفضيلة.
وكلام الشاطبي هنا مهمٌّ ولكنه يعوزه شيء من التحقيق والتدقيق؛ في مسألتي(التحسين والتقبيح العقليين)، (القطعي والظني من الأدلة فيُقدّم القطعي منهما ولو كان من قبيل العقل ويُؤخر الظني إذا ما تعارض مع القطعي ولو كان من قبيل النقل)

(3) أخرجه الإمام مُسلم في صحيحه. ك: (التوبة)، باب: (براءة حرم النبي صلى الله عليه وسلم)، برقم: (2771) وأحمد في مسنده برقم: (13989)

لو دَخَلُوهَا ما خَرَجُوا منها إلى يَومِ القِيَامَةِ، الطَّاعَةُ في المَعروفِ)[1]. فالأثران نقليان ولكنها قد تضمنتا حجّةً عقلية، جعلتهما من قبيل الظن الذي خالف القطع العقلي إذ كيف يُتهم بالفاحشة من فقد آلتها الرئيسة؛ فكانا مجبوبا، وكيف يكون اتباعنا للنبي صلى الله عليه وسلم هو سبب تعذيبنا بالنار وقد آمنا به فِراراً منها. وهذا موضع مهمٌّ ينبغي على الدعاة في خطابهم الدعوي؛ وفي هذا العصر خصيصاً أن يُميِّزوا بين هذه الأدلة من حيث القطعية والظنية وما هو الحال عند التعارض[2]؟.

- **التركيز على قضايا الإيمان؛ وبالأخص الغيبيات منها.** وهذه الركيزة قلَّ في الخطاب الدعوي المعاصر من تعرض لها؛ وحُجَّة الدُّعاة في ذلك أن الناس على عقيدة وعلمٍ سليمَيْن في هذا الباب!!، **والواقع بخلاف ذلك تماما.** فلم نسمع سماعاً عاما مِن الدُّعاة على المنابر أو في الدروس اليومية؛ مَن تناول قضايا الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر، وكذلك لم نسمع من يتكلم عن نواقض الإيمان ونواقض الإسلام. هذا على العموم في الجانب العقائدي

أمّا في جانب الغيبيات؛ فحدِّث ولا حرج. فأمر الجنة والنار، والملائكة، والقبور وما فيها من أهوال، واليوم الآخر، وأمر القضاء والقدر. هذه أمور ـ لا أقول قلَّ؛ بل ـ ندُرَ من الدعاة من يتناولها. وإذا حدث أن تناولها داعية؛ فإن لم يعرضها عرضا سليما يتناسب وعقليةَ الجماهير؛ فسيخرج مدعووه ـ وهو الواقع ـ وقد أصابهم الشكُّ بدلا من اليقين. وكأثر من آثار ذلك؛ ظهر من الناس من يجهر علانية بنفيها وإنكارها.

---

(1) أخرجه البخاري؛ ك: (المغازي)، باب: (سرية عبد الله بن حذافة)، برقم: (4340) ومسلم في ك: (الإمارة)، باب: (وجوب طاعة الأمراء في غير معصية). برقم: (1840)

(2) وعلى هذا التقسيم: أسس ابنُ تيمية رحمه الله تعالى مشروعَه في درء تعارض العقل مع النقل على هذا التقسيم، وذلك عندما ردَّ على الرازي رحمه الله تعالى تقسيمَه الأدلة إلى عقلية ونقلية، وتقديمه العقل على النقل عند التعارض ـ على ما قاله الرازي ـ!!

- **التركيز على عدم التعارض في النص الإلهي (قرآنا وسنَّة).** فقد ظهر في كثير من التحديات التي تواجه الدعوة الإسلامية؛ تمسك البعض ببعض نصوص القرآن والسنة، وتركهم كذلك نصوصاً أخر ادعوا بينها التعارض؛ تسويغا لأفعالهم وتمريرا لأفكارهم. وليس بين نصوص الوحي تعارض، لأنه من عند الله تعالى العليم الحكيم، وإن كان ثمّ تعارض؛ فهو في الفهم لا في النص، وقد قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ {النساء: 82}[1]. ففهم هذه الركيزة من أهم الأمور.
- **التركيز على الخصائص العامة للإسلام.** فالإسلام دينٌ ارتضاه الله تعالى وأكمله وأتمّه، ولن يأتي بعدهُ دينٌ آخر، ولذلك فلن يقبل الله تعالى من أحدٍ ديناً سواه، ولهذا فقد كان للإسلام خصائص ليست لغيره؛ فمن خصائصه: (الشمولية والتكامل، عصرية المواجهة وأصالة المصدر، الثبات والمرونة، الاستقلال وعدم التبعية، عالميته، تفرُّده في أخلاقه وتعاليمه، موازنته بين الروح والجسد) وغيرها. لأن تركيز الخطاب الدعوي على أمثال هذه الخصائص من شأنه أن يحفظ على الأمَّة المسلمة هُوِّيتَها فلا تذوب في غيرها.
- **التركيز على الجانب التعبدي.** فهو من أهم الجوانب والوسائل في مواجهة تلك التحدِّيات سالفة الذكر؛ إذ من شأن العبادة تطهيرُ النفوس وتزكيتُها، وحفظُها من الشيطان ووساوسه، .. ولذلك فمن الضروري أن يُركز الخطاب الدعوي على

(1) «وقد صرح الأئمة المتقدمون بعدم وقوع التعارض أو التضاد حقيقة في السنة النبوية الصحيحة، ومن ذلك: قول الإمام الشافعي رحمه الله: لا يصح عن النبي صلي الله عليه وسلم أبدا حديثان صحيحان متضادان، ينفي أحدهما ما يثبته الآخر من غير جهة الخصوص والعموم، والإجمال والتفسير، إلا علي وجه النسخ.

ومن ذلك أيضا: قول الإمام ابن خزيمة: لا أعرف أنه روي عن النبي صلي الله عليه وسلم حديثان بإسنادين صحيحين، متضادين, فمن كان عنده فليأت بهما حتي أؤلف بينهما. أي: أوفق بينهما وأجمع.

ويتضح من كلام الإمام الشافعي المتوفي سنة: (204هـ)، والحافظ ابن خزيمة المتوفي سنة: (311هـ) أن التعارض بين الأحاديث الصحيحة غير موجود في الحقيقة، وإن ما يدعيه البعض من تعارض فهو تعارض بحسب الظاهر، نتيجة عدم جمع كل الروايات والأحاديث الواردة في الموضوع الواحد، لمعرفة كيفية إزالة هذا التعارض». من مقال؛ بعنوان: (**هل في السنة النبوية تعارض أو اختلاف؟**؛ د/ محمد اللبان)، جريدة الأهرام المسائي؛ عدد: (الثلاثاء 18 من محرم 1436هـ 11نوفمبر 2014 م، السنة: (24) العدد: (8598).

الصلاة والزكاة والصيام والحج والعمرة، وسائر أعمال الجوارح؛ من أعمال العبادات القولية والعملية والمالية، وفي كل الأحوال؛ فإذا ما صلى العبد الفجر ـ مثلاً ـ فهو في ذمّة الله تعالى، وإذا ما سمع الشيطان النداء هرب مسرعاً، وإذا ما واظب العبد على الأذكار الموظفة في اليوم والليلة فهو في مأمن من عدوه[1] .. فلا تخفى أهمية هذا الجانب في الخطاب الدعوي. وصدق الله تعالى؛ إذ جعل صِفَة المؤمنين حقًّاً في القرآن: على الذين آمنوا، وعملوا بما آمنوا به من أصول الدين وفروعه، وظاهره وباطنه، وظهرت آثار هذا الإيمان في عقائدهم وأقوالهم، وأعمالهم الظاهرة والباطنة، فقال جل ثناؤه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ {الأنفال:2 ـ4}[2]. وقوله أيضاً: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ {فصلت: 30ـ32}. ويُفسِّر هذا الأمرَ ويُزيده وضوحا الرسولُ صلى الله عليه وسلم إذ سأله سائلٌ فقال: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرَك؛ فأجابه بقوله: (قل آمنت بالله ثم استقم)[3]؛ فاستقاموا؛ أي: «اعتدلوا على طاعة الله

(1) أخرج الأمام أحمد، برقم: (17800)، عن الحارث الأشعري أن نبي لله صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بهن وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن .. إلى أن قال .. **وآمركم بذكر الله كثيرا**؛ وإن مثل ذلك كمثل رجلٍ طلبه العدو سراعاً في أثره، فأتى حصناً حصينا فتحصن فيه، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله ..) وقال محققوا المسند: (حديث صحيح). ط: الرسالة.

(2) يُراجع في ذلك الوجيز في عقيدة السلف الصالح، تأليف: عبد الله بن عبد الحميد الأثري، ص: (101 ـ 110)، دار طيبة الخضراء مكة المكرمة.

(3) أخرجه مسلم، ك: (الإيمان)، باب: (جامع أوصاف الإسلام) (38). وغيره.

عقداً وقولاً وفعلاً وداموا على ذلك»[1] والاستقامة: «هي سلوك الطريق المستقيم، وهو الدين القيم من عير تعريج عنه يمنة أو يسرة؛ ويشمل ذلك فعل الطاعات كلها، الظاهرة والباطنة، وترك المنهيات كلها كذلك؛ فصارت هذه الوصية جامعة لخصال الدين كلها»[2]. وكذاك ما استحقَّ هذا الداعية إلى الله تعالى ذاك الفضل العظيم إلا بأمرين: (عمل صالحاً، وقال: إنني من المسلمين).

إن قضية التلازم بين العمل والعلم؛ من أهم القضايا التي تميز بها منهج أهل السنة والجماعة عن غيره، وقد قال الخطيب البغدادي: «فإن العلم شجرة، والعمل ثمرةٌ؛ وليس يُعدُّ عالماً من لم يكن بعلمه عاملاً .. فلا تأنس بالعمل ما دُمْتَ مستوحشاً من العلم، ولا تأنس بالعلم ما دمت مقصراً في العمل؛ ولكن اجمع بينهما، وإن قلَّ نصيبك منهما .. والقليل من هذا مع القليل من هذا أنجى في العاقبة؛ إذا تفضل الله بالرحمة وتمم على عبده النعمة، فأمَّا المدافعة والإهمال، وحُبُّ الهُوَيْنى والاسترسال، وإيثار الخفض والدِّعة، والميل مع الراحة والسعة، فإن خواتم هذه الخصال ذميمة وعقباها كريهة وخيمة والعِلم يُراد للعمل كما العمل يُراد للنجاة ..»[3].

- **التركيز على المصلحة العامة وتقديمها على الخاصة.** فإن النظرة الأنانية التي لا تهتمُّ إلا بمصلحتها الشخصية على حساب مصالح العباد والبلاد؛ أدَّت إلى وقوع صورٍ كثيرة من الفساد في المجتمع، بل زاد الأمر إلى أن سمعنا من يتمنى سقوطَ دولتِه لأجل مصلحته الشخصية فحسب، ولذلك كان من الضروري على القائمين بالخطاب الدعوي التركيز على هذا الأمر، وضَرْبُ الأمثلة له من التاريخ الإسلامي. وما أكثرها.

(1) تفسير القرطبي، ج18، ص: (417) تحقيق التركي.

(2) جامع العلوم والحِكم، لابن رجب الحنبلي، ص: (364)، تحقيق: مسعد كامل، وأسامة عبد العليم، دار ابن رجب: (الأولى: 1423هـ).

(3) اقتضاء العلم العمل، الخطيب البغدادي ص: (14، 15) تحقيق الألباني، المكتب الإسلامي (1404هـ).

- **التركيز على معالي الأمور والابتعاد عن سفاسفها.** فإن الناظر في حال شبابنا وما وصلوا إليه؛ يعلم مدى أهمية الحاجة إلى التركيز على هذا الجانب. فَهَمٌّ كثيرٍ منهم؛ مسايرةُ الموضة تارة، وانشغالُه باللعب تارة أخرى، وأخرى بالتكنولوجيا الحديثة؛ استخداما واستهلاكاً ـ لا تصنيعاً أو إنتاجاً ـ، أدَّى ذلك كلُّه إلى نتاجٍ من العقولِ خاويةٍ على عروشها؛ فليس عندها من الثقافة ما تقف به في وجه كثير من التحديات. فالواجب على الخطاب الدعوي حينئذٍ؛ أن يركز على معالي الأمور؛ أمثال: العِلم وأهميته في تقدم الأمم، الاعتماد على النفس وعدم التواكل والاتكال على أحد. وكذلك عليه التنفير من سفاسف الأمور.
- **التركيز على الصور المشرقة في التاريخ الإسلامي؛** من حيث: تعاملات المسلمين مع الآخرين، والغزوات والفتوحات الإسلامية المشهورة، وروائع النُظم الإسلامية؛ إذِ الحاضر ابنٌ للماضي. ولأن في ذلك بثَّ الثقة في نفوس المسلمين نحو دينهم، وتمسكهم بأخلاقهم، وبمورثاتهم الثقافية، ومن ثَمَّ فلا تذوب الشخصية الإسلامية في غيرها. ومنه يعلم الكثير أن الذي أصاب المسلمين من المِحن؛ إنما هو بتركهم لدينهم وعدم عودتهم إليه.
- **عدم إهمال الحديث عن المحرمات.** فمن الأمور التي لم تلق اهتماما في الخطاب الدعوي؛ الحديث عن المحرمات، وكان لهذا دوره الخطير والسلبي على المجتمع. فما انتشرت الفواحش والموبقات إلا من الجهل، أو التجاهل لهذه الأمور تماما. لا سيما في المجتمعات التي انتشرت فيها هذه الأوبئة. فالحديث عن الإشراك بالله تعالى وصوره، والابتداع في الدين، والربا، والزنا، وقذف المحصنات، والتعاون على الإثم والعدوان، وترْك الصلاة، والزكاة، وصيام رمضان، .. وكذلك الحديث عن المحرمات في الحياة الاجتماعية والأسرية، والحياة الاقتصادية[1] .. وغير ذلك من أنواع المحرمات التي لم تلق اهتماما في

(1) إن الحديث عن المحرمات ـ حتى في المجتمعات المحافظة ـ له أهمية كبيرة، فكما قيل: "الوقاية خير من العلاج"؛ فلأن أُقِيَ المجتمعَ من هذه المهالك بدايةً .. خير لي من أن أعلاج آثارها بعد وُقوعها، فإن حذيفة بن اليمان رضي

الجانب الوعظي؛ وبالأخص في اللقاء الأسبوعي ـ خطبة الجمعة ـ؛ إذ هو الأكثر جماهيرياً.

وهناك ركائز أخرى كثيرة تتعلق بالخطاب الدعوي في مواجهة هذه التحديَّات؛ ولكن هذه أبرزها ـ كما يراها الباحث ـ؛ فإن الواحدة منها تعتبر علاجاً لكثير من الأعراض والأمراض الناتجة عن تلك التحديَّات.

المطلب الثالث: القائمون على العمل الدعوي (وزارة الأوقاف).

يُناط بالقائمين على العمل الدعوي في دولة المؤسسات أعمالٌ كثيرة؛ إذ أنه كما قال عثمان رضي الله عنه (إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن)؛ ففي أيديهم ما ليس في أيدي الآخرين، ولذلك كان من الأمور المنوطة بهم؛ ما يلي:

- **الأموال التي تُنفق على بناء المساجد يتم توظيف بعضها إن لم يكن أكثرها؛ في تعليم الدعاة وتثقيفهم**، فالداعية الحقُّ الذي نبنيه حاله كما وصفت قبلُ. أمَّا بالنسبة لبناء المساجد؛ فيُوكل هذا الأمر **أولاً** إلى الأموال الموقوفة على ذلك، ثم إلى ما يتم جمعه عن طريق الأعمال والتطوعات الخيْريَّة من روَّاد المساجد والمصلين **ثانياً**، ويتم بالتنسيق بينهم وبين الوزارة من حيث: أساسيات الإنشاء وصوره، وجمع التبرعات؛ وذلك عن طريق لجان معروفة، فإن الناس إذا ما قاموا بهذا العمل حافظوا عليه. فكثيرا ما نرى ذلك الأمر واقعا ملموساً. وإذا كانت هناك أماكن فقيرة .. فإن الجهات المختصة تُلزم بتوفير المساجد اللازمة لها.

وأما تعليم الدعاة وتثقيفهم يكون بعقد الدورات التدريبية في فروع الشريعة؛ وبتوفير المراجع العلمية اللازمة لهم وتوزيعها عليهم؛ أو بما تراه الوزارة نافعا في تحقيق هذا المضمون.

الله عنه قال: (كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير **وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني** ..) أخرجه البخاري، كتاب: (الفتن)، باب: (كيف الأمر إذا لم تكن جماعة برقم: (7084).

- **استحداث إدارةٍ للدعوة المجتمعية ــ أو (إدارة الأمن الفكري ــ كما تسميها بلاد الحرمين[1])** ــ (بالمديريات التابعة لوزارة الأوقاف المصرية). ويتكون هيكلها من الكوادر العمية والدعوية بالمدرية؛ وليَكُن هؤلاء مثلاً من الحاصلين على الدكتوراه فقط، ويتسنى لهؤلاء الدخول في الأماكن العامة والخاصة في جميع أنحاء المحافظة أو المدرية ليتحدثوا مع الجماهير؛ كالجامعات الحكومية أو الخاصة، والوزارات، ومراكز الشباب والرياضة، وعقد الندوات والملتقيات الفكرية والثقافية. ويتم تزويد هذه الإدارة بكل الأبحاث العلمية ــ المحلية والعالمية ــ الموثَّقة؛ أمثال منشورات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وإصدارات دار الإفتاء المصرية، ومجمع البحوث الإسلامية، والرسائل العلمية والأبحاث الموصَى بنشرها وتداولها بين الجامعات والهيئات الحكومية؛ ذات النفع المجتمعي العام، وكذلك المجامع الفقهية العالمية أمثال: رابطة العالم الإسلامي بمكة الكرمة وما يتبعها من مؤسسات علمية، وكذلك تُزود بكافة الأبحاث والمؤتمرات المتعلقة بمناقشة الأفكار والتيارات المنحرفة والشبهات المُثارة حول الإسلام. وكذلك تُزوَّد بالأبحاث المتعلقة بالإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. ويتم التعاون مع هذه الإدارة مجتمعيا؛ بحيث: إذا ظهر أمرٌ من الأمور المخالفة من الناحية العقائدية أو التعبدية أو الأخلاقية يتم إخبار هذه الإدارة بهذا الأمر؛ ومن ثَمَّ تُتْخذ الإجراءات اللازمة من عقد الندوات؛ ثم مُناقشة أصحاب هذه الشبهات أو المخالفين. ولن يكون هذا؛ إلا إذا تمَّ الإعلان عن هذه الإدارة إعلاميا في كل مؤسسات الدولة، وتزويدها كذلك بوسائل الاتصال الحديثة. ولا بأس أن يكون لها حساب أو موقع على الشبكة العالمية، أو يكون موقعُها تابعاً لموقع الوزارة الرسمي، وكذلك من حقِّ هذه الإدارة أيضاً. أن تُحدِّدَ أي مشكلة من المشاكل التي تؤثر على الثقافة

(1) من إصداراتها: **بلوغ الآمال في تحقيق الوسطية والاعتدال**، د/ عبد الرحمن السديس. **الأمن الفكري وأثر الشريعة الإسلامية في تعزيزه**؛ د/ عبد الرحمن السديس. **الأدلة الشرعية في بيان حق الراعي والرعية**، الشيخ/ محمد بن عبد الله السبيل. ولها كذلك إصدارات مهمة في علاج كثير من الآفات العصرية.

الإسلامية أو تُعيق من سلاسة العمل الدعوي؛ ثُم وضع الآلية اللازمة لعلاجها، ثم عرضها على الوزير أو وكيله في تلك المدرية. **وبالجملة فكل ما تراه هذه الإدارة مُتمِّما لعملها يتم توفيره.**

- **جَعْلُ مادةِ أو مواد الدعوة والثقافة الإسلامية من المواد الأساسية** لجميع الكليات والأقسام التي تُخرج الطلبة والطالبات الصالحين للعمل الدعوي. ولا يقتصر الأمر على مادة فرعية تُدرَّس عليهم في السنوات الأربع من خلال تدريس كتاب أو كتابين؛ بل تكون مادةً أساسية من مواد السنة الدراسية شأنُها شأن أي مادة من المواد التخصصية لهؤلاء الطلبة .. أو يتم الاستعاضة عن ذلك بدراسة نظامية لا تقل عن سنة لمن يجتازون امتحانات القبول في وزارة الأوقاف أو الحقل الدعوي؛ يدرس فيها الأئمة الجدد فنون هذا العلم الدعوي لمن لم يكونوا من متخصصيه، أمثال كليات اللغة العربية والشريعة والقانون، الدراسات الإسلامية والعربية، والقسم الإسلامي بكليات اللغات والترجمة، والتربية.
- لا يُقبل في الكليات التي تُخرِّج طلبة وطالبات صالحين للعمل الدعوي إلا المتفوقون دراسيا في المرحلة الثانوية؛ بحيث لا يدخل مثلاً فيها؛ طلبة مجموعهم أقل من (90%). فليس هذا المجال أقلَّ من كليات القمَّة المعهودة عند الناس[1]!.
- **بالنسبة لموضوع الخطبة الموحدة**؛ فإما أن يكون الأمر كما كان؛ بحيث كل داعية يرى ما يناسب جماهيره ويحدثهم فيه، أو يتم وضع العنوان الخاص

(1) وقد عرضتُ ذلك في لقاء من اللقاءات على فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر؛ الأستاذ الدكتور/ أحمد الطيب، وكان ذلك في قاعة الإمام محمد عبده؛ بجامعة الأزهر بالدراسة، حيث اجتمع فضيلته مع وزير الأوقاف الأسبق؛ د/ عبد الله الحسيني، ووكيل أول وزارة الأوقاف، وكان هذا الاجتماع مع جمع غفير من الأئمة؛ لمناقشة بعض قضايا الدعوة ــ **وشاعت الأقدار أن أكون من بينهم** ــ. وكان تقريبا في أواخر عام (2011م)، وكان هذا العرض عبارةً عن رسالة أرسلتُها إلى فضيلة الإمام الأكبر؛ فيها رجاء بهذا الأمر ـ أن لا يدخل هذه الكليات إلا الأبناء الأكفاء الحاصلون على مجموع يزيد عن (80%) حتى لا نرى أمثال هؤلاء الأئمة المغيبين عن واقع دعوتهم وأمتهم ــ، والحمد لله فقد وقعت الرسالة في يديْه وأمعن فيها النظر!!!.

بالخطبة وتحته العناصر فقط دون غيرها؛ والهدف من ذلك هو عدم تعطيل آليات البحث عند هؤلاء الأئمة. فلا أقل من أن يبحث الإمام عن أدلة لقائه مع الجماهير.

- **إعطاء منحة (زمنية ومادية)** للذين تأهلوا لإنجاز بحث علمي محَكَّمٍ كالماجستير والدكتوراه، وتتولى الوزارة هذا البحث نشرا وتوزيعا، وتتعاون الوزارة في سبيل ذلك مع الكلية التي التحق بها الإمام لإنجاز بحثه، ويكون هذا البحث ضِمن إنجازات الوزارة وجهودها الدعوية. وعليه .. فلا يُطالب هذا الإمام مثلاً بما يُطالب به الإمام العادي من الحضور في المسجد، والدروس اليومية أو ما شابه، **المهمُّ أنَّا نقوم بتوفير الوقت اللازم لهذا الباحث إنجازاً لبحثه.**
- **إنشاء مجلة دوريَّة علمية محكَّمة خاصة بوزارة الأوقاف.**

ويُراعى فيها ما يلي:

1. يقوم على إصدارها لجنة أو لجان علمية من قِبل المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.
2. **تكون هذه الدورية رُبع سنوية على الأقل.**
3. **لنشر الأبحاث العلمية المحكمة** الخاصة بالدعوة والثقافة الإسلامية وبأصول الدين وبسائر مجالات الدعوة.
4. **تحتوي على ركنٍ أساسيٍ متعلق بالنوازل والمستجدات المعاصرة** وذلك بنشر القرارات العلمية للمجامع الفقهية المحلية والدولية لهذه النوازل.
5. **نشر الأبحاث العلمية المقدَّمة من السادة الأئمة**؛ بعد تحكيمها. وأقترح في ذلك: (أن تُعلِن اللجنة العلمية الخاصة بالمجلة عن الأبحاث المزمع على نشرها في كل عدد من الأعداد؛ وعلى كل من أراد المشاركة من الأئمة أن يتقدم ببحثه في مدة معينة، ومن يفوز بحثُه بالنشر؛ لا مانع من مكافئته مكافئة معنوية أو عينية أو مادية) فالهدف من وراء ذلك إثراء العملية

البحثية لدى الأئمة. ولا مانع أيضا من أن يُكرَّم ـ كما ترى ذلك اللجنة ـ أكثرُ المشاركين من أصحاب الأبحاث العلمية للأئمة في العام الواحد.

6. فيها **التميز العلمي للأئمة** "**التعريف بالجهود العلمية** للسادة الأئمة في داخل مصر وخارجها؛ ممن أعيروا إلى الدول الخارجية". أمثال رسائل التخصص، والعالمية، وأعمال التأليف، والترجمة، والنشر والمؤتمرات العلمية .. وغيرها.
7. فيها **أعمدة خاصة بكل فنٍّ من الفنون الإسلامية**؛ كالفقه والتفسير والحديث والعقيدة والأخلاق والتاريخ الإسلامي واللغة العربية .. وغير ذلك.
8. فيها **التعريف بالكتب العلمية** التي تمسُّ حاجة الدعوة والداعية.
9. **وفيها مرصد للرسائل والأبحاث العلمية**؛ التي نُوقشت وحُكِّمت وكذلك **أبحاث الترقية** للسادة أعضاء هيئة التدريس في كل عام من الأعوام بالجامعة الأزهرية للكليات الشرعية.
10. فيها **لقاء علمي**. ويكون ذلك اللقاء مع شخصية من الشخصيات الدعوية التي أثْرَتْ وأثّرتْ في العمل العلمي والدعوي؛ بهدف نقل الخبرات بين الأجيال العلمية المُتعاقبة.
11. **أوْلوية النشر فيها للجهود العلمية المقدمة من أبناء الوزارة**، وبدون تكلفة على الباحث، أمَّا من يريد النشر فيها من خارج الوزارة فكما تراه.
12. ليس هناك حدٌّ لصفحاتها ولا لحجمها كثرةً.
13. **يُراعى في إخراجها**: (أعلى مقاييس الجودة؛ في النشر والإخراج العلمي). ويتم توزيعها إجباريا على كلِّ إمام؛ فتُصرف لكل مدرية بعدد أئمتها.
14. **ثمن هذه الدّورية:**

ـ إمَّا أن تتحمله الوزارة على نفقتها الخاصة.

ـ أو يكون على حساب الأئمة؛ أو كما ترى الوزارة ذلك، المهمُّ أن لا تكون الناحية المادية عائقا في نشرها.

- **إنشاء مرصدٍ للأفكار والتيارات المخالفة.**

1 ـ يتولى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية إداراته، والردِّ على أي فكر أو تيارٍ من هذه التيارات. عن طريق اللجان العلمية التابعة له.

2 ـ يكون لكل إمام من أئمة الأوقاف رقماً خاصاً به على هذا المرصد؛ بحيث يستطيع من خلاله أن يرفع عليه ظاهرة من الظواهر التي واجهته في عمله، والتي لا يستطيع توجيهها الوِجهة الصحيحة. لكي تقوم اللجان العلمية فيه بالرد وتوجيه هذا الإمام، ثم تعميم ذلك على الأئمة إخوانِه.

- **مكتبة المسجد..** فهي ركْنٌ أساس في تثقيف المجتمع، وتزوَّد في سبيل ذلك بكافة إصدارات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. والشأن في ذلك شأنُ مدارسِ وزارة التربية والتعليم؛ إذْ تُعلن في كل إجازة صيفية عن مهرجان القراءة للجميع؛ فما المانع منه بيوت الله تعالى وفي الأجواء الإيمانية هذه؟.
- **وعموما ..**

فكلُّ ما يصلحُ لأن يكون وسيلة نافعة لدين الله تعالى والدعوة إليه؛ فعلى القائمين بالعمل الدعوي تنفيذُه، فالوسائل لها أحكام المقاصد. شريطةَ أن لا تخالف نصاً أو إجماعاً أو أمرا معلوما من الدين بالضرورة.

المبحث الثالث

رعايا الدولة .. في مواجهة التحديات.

مما لا شكَّ فيه أن المدعوِّين ليسوا بمنأى عن هذه المواجهة، فهُم في أوَّلِ الأمر وآخرِه القاعدةُ الجماهيريةُ؛ والمقصود السيطرةُ عليها من خلال هذه التحديات، وهي أيضاً التي يسعى لأجلها المخلصون أهلُ الدعوة في دفع تلك التحديَّات عنهم.

ومن **جهة أخرى** .. تعلُّقُ الكثير من هذه التحديَّات بهم؛ فكانوا سببا فيها بسلوكياتهم وأحوالهم؛ إذ نَفَرَ كثيرٌ من الناس عن الإسلام بما يرونه ويسمعونه عن أخلاق هؤلاء المسلمين، أو ازدادتْ أمِّيتُهم الدِّينية فكانوا عُرضة لكثير من الشبهات والشهوات، أو فقدوا القدرة على التمييز بين الحق والباطل فأصبحوا أتْباعاً لكل مُتكلِّمٍ في الدين وإن لم يكن من أهله .. وغير ذلك.

إن على الرعية من المسلمين تجاه هذه التحديَّات التي تواجه دعوتَهم الإسلامية؛ أموراً واجبةً، منها:

المطلب الأول: تحقيق القدوة الحسنة.

القدوة الحسنة من أنفع وسائل الدعوة إلى الله تعالى، وتأثيرها في النفوس بليغ، فإذا ما حقق المسلمون تعاليمَ دينِهم كما أرادها الله تعالى، ونشروا أخلاقه بين العباد بمعاملاتهم الطيبة وأخلاقهم العالية؛ كانوا بذلك مثالاً يُقتدى به، ودعاة إلى الإسلام.

وما أكثر المتكلمين عن الإسلام، وللإسلام؛ ولكن قلَّ العاملون به الدَّاعون إليه بأخلاقهم قبل أقوالهم، وقد جاء النهي الشديد، والوعيد الأكيد لمن قال بلسانه ما لم يفعل بجوارحه؛ إذ قال الله تعالى: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ {البقرة: 44}، ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ

عَنْهُۚ﴾ {هود:88}، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ {الصف: 2، 3}.

"إن المتأمل في سِير الدعاة إلى الله تعالى، وفي مقدمتهم صحابُة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم تابعوهم بإحسان من السلف ومن بعدهم رضي الله عنهم يجد أن التزامَهم العمليَ بمبادئ الإسلام؛ كان سببا في إقبال الناس على الدعوة واعتناقها.

فهذا الرجلُ النصرانيُ صاحبُ الدرعِ؛ الذي خاصمه علي رضي الله عنه إلى شُريحٍ القاضي؛ ولمَّا لم يكن لأمير المؤمنين بيِّنةٌ على دعواه حكم القاضي بأن الدرع للنصراني وليس لأمير المؤمنين! عندها يقول النصراني: «أمَّا أنا فأشهد أن هذه أحكام الأنبياء أمير المؤمنين يَدينُنِي إلى قاضيه؛ يقضي عليه، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده رسوله ..»، وهذه هند بنت عتبة زوج أبي سفيان رضي الله عنهما، يقول لها أبو سفيان؛ إذْ أرادتِ الذهاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لتبايعه على الإسلام يوم فتح مكة: «قد كنتِ بالأمس مكذبةً بهذا الأمر!!»، فقالت: «ما رأيت اللهَ عُبد حقَّ عبادته بهذا المسجد قبل هذه الليلة، والله لقد باتوا كلهم يصلون فيه»"[1]. فأخلاق المسلمين وعبادتهم وإنصافهم كانوا سببا في إسلام الآخرين؛ دون كلام أو خطب رنَّانةٍ وإنما هو التمسك بالإسلام فحسب.

إن من أوجب الواجبات على المسلمين أن يكونوا قدوة لغيرهم في: العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والتقدم والرقي، والألفة والرحمة، والقوة والاجتماع، والعلم ... ومجمل القول أن يكونوا قدوةً في سائر نواحي الحياة؛ كي يكونوا بذلك دعاة للإسلام. فلقد جعلهم الله تبارك وتعالى خير أمَّةٍ بذلك؛ فقال:﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾{آل عمران: 110}. فهُم خير

(1) ابنُ كثير في البداية والنهاية،ج7، ص: (52)، ج 8، ص: (5). نقلاً عن: القدوة وأثرها في الدعوة إلى الله تعالى أ.د/ إسماعيل علي محمد، ص: (62/ 63) باختصار. دار الكلمة للنشر والتوزيع (1435هـ).

الناس للناس كما قال أبو هريرة وابن عباس رضي الله عنهما، ومن سرَّه أن يكون من تلك الأمة فليؤدِّ شرط الله في هذه الآية كما قال عمر رضي الله عن الجميع[1].

المطلب الثاني: انظروا عمَّن تأخذون دينكم.

إن على جماهير المسلمين أن ينظروا فيمن يحدِّثُونهم عن الله تعالى وعن رسوله صلى الله عليه وسلم؛ لأن الذي يُحدِّثهم إنما هو واسطة بينهم وبين الله تعالى، ولذلك كان الإسناد من الدين؛ فقد أسْندَ الإمام مسلم في صحيحه: (عن ابن سيرين مقولتَه: «إن هذا العلم دين فانظروا عمَّن تأخذون دينكم»، وقولَه: «لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة، قالوا: سمُّوا لنا رجالَكم. فيُنظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثُهم، ويُنظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثُهم»، وأسندَ أيضا إلى عبد الله بن المبارك: «الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء»)[2].

إن هذه القضية من أخطر القضايا، التي هي مثارُ جدلٍ كبير في المجتمع، مَن يتكلم في دين الله تعالى ومن لا يتكلم؟؟ فليس كلٌّ من تكلم في دين الله تعالى يؤخذ بقولهم؛ لأن الكثير منهم لم يحققوا الأهلية في ذلك.

فلابد إذا من معرفة الأوصاف التي إذا اتَّصف بها إنسانٌ صار من أهل العلم المأخوذ بقولهم علماً وعملاً؛ حتى إذا ما عَلِمَتْها الجماهيرُ؛ ميزوا الخبيث من الطيب في صفوف العمل الإسلامي والحقل الدعوي؛ فمن أوصافه إذا نشر الله له الذكر عند المؤمنين أنه من أهل العلم:

«ألزمَ نفسه التواضع للعالِم وغير العالِم، .. يريد الله تعالى بعلمه، .. لا يطلب بعلمه شرف منزلة عند الملوك ولا يحمله إليهم، صائنٌ للعلم إلا عن أهله، ولا يأخذ على العلم ثمناً، ولا يَستقضي به الحوائج، ولا يُقرِّبُ أبناء الدنيا ويُباعد الفقراء، .. **وإذا سئل عن مسألة فعلم أنها من مسائل الشغب ومما يورث بين المسلمين الفتنة**

(1) يُنظر تفسير ابن كثير، ج2، ص: (93 ـ 103) ط: طيبة.

(2) صحيح مسلم، المقدمة، باب: (في أن الإسناد من الدين).

استعفى منها؛ وردَّ السائل إلى ما هو أولى به على أرفق ما يكون، وإن أفتى بمسألة فعلم أنه أخطأ لم يستنكف أن يرجع عنها، وإن سُئل عن مسألة اشتبه القول عليه فيها قال سلوا غيري، ولم يتكلف ما لا يقدر عليه، يحذر من المسائل المحدثات في البدع لا يصغِي إلى أهلها بسمعه ولا يرضى بمجالسة أهل البدع، ولا يُماريهم، .. أصلُه الكتاب والسنة وما كان عليه الصحابة ومن بعدهم من التابعين ومن بعدهم من أئمة المسلمين، يأمر بالاتباع وينهى عن الابتداع»[(1)]. فهذه جملة من الأوصاف التي إذا ما اتصف أنسان بضدها يُترك قوله؛ وإن كان صحيحا، حذرا من الافتتان به، وقد قال النبي صلى الله عليه: «القضاة ثلاثة: واحد في الجنة واثنان في النار؛ فأما الذي في الجنة: فرجل عرف الحق فقضى به، ورجل عرف الحق فجار في الحكم؛ فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهل؛ فهو في النار»[(2)].

قال أبو الطيب العظيم آبادي: «والحديث دليل على أنه لا ينجو من النار من القضاة إلا من عرف الحق وعمل به، **والعمدة العمل**، فإن من عرف الحق ولم يعمل به؛ فهو ومن حكم بجهلٍ سواء في النار، **وظاهره أن من حكم بجهلٍ وإن وافق حكمُه الحقَّ؛ فإنه في النار**؛ لأنه أطلقه .. قال الخطيب الشربيني: والقاضي الذي ينفذ حكمه، الأول، والثاني والثالث لا اعتبار بحكمهما»[(3)].

فعلى المتصدِّي لدعوة الناس؛ أن يكون على علمٍ وأخلاقٍ موثوقٍ بهما؛ وعلى عملٍ بما يعلم لا يحيد عنه، ولذلك كان المثل الأعلى في القدوة هو النبي صلى الله عليه وسلم. لأن **الجانب الخلقي** زكَّاهُ الله تعالى فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ {القلم: 4}، وأمَّا **الجانب العِلمي** فقد قال الله تعالى عنه: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ إِنْ هُوَ

(1) أخلاق العلماء، لأبي بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجري، (ت: 360هـ)، ص: (51 ـ 55) باختصار؛ تحقيق: إسماعيل بن محمد الأنصاري، وعبد الله بن عبد اللطيف آل الشيخ. ط: رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء. بالمملكة العربية السعودية. (1398هـ، 1978م).

(2) أخرجه أبو داود في سننه؛ كتاب: (القضاء)، باب: (في القاضي يُخطئ)، برقم: (3570). وابن ماجة في سننه، كتاب: (الأحكام)، باب: (الحاكم يجتهد فيُصيب الحق)، برقم: (2315).

(3) عون المعبود شرح سنن أبي داود، ج6، ص: (412)، ط: دار الحديث، القاهرة.

إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ {النجم:3، 4}، وأمَّا استقامته على المأمور به؛ فقد قال الله تعالى عنه: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ﴾ {هود:112}. فبلغت الجوانب الخُلقية، والعِلمية، والعَملية في النبي صلى الله عليه وسلم أعلى مراتب الكمال فكان كما أمره ربه تبارك وتعالى؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ {الأحزاب:21}. وسيأتي مَزيدُ بيان في الشموع الدعوية المُلقحة بهذا المبحث لهذه المسألة.

فالحذر الحذر من هؤلاء الذين خالفت أقوالُهم أفعالَهم، أو خالفت أفعالُهم أقوالَهم، وخالفوا بأقوالهم علماء المسلمين في الماضي والحاضر؛ فكانوا بأقوالهم نشازا بين أقوامهم؛ بل وبين الأمة قاطبة.

المطلب الثالث: ولا تفرقوا .. فتفشلوا وتذهب ريحكم.

لا شك أن الفرقة والاختلاف من أكبر عوامل الهدم والهلاك[1]، ولها كذلك من الآثار السيئة على المحيط الدعوي ما هو معروف ومشاهد، فلِزاماً على المسلمين أن يعتصموا بحبل الله جميعا ولا يتفرقوا؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾{آل عمران:103}، ولْيُعلم كذلك أن في الفُرقة والاختلاف ذهابَ الدولةِ والقوةِ؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[2]{الأنفال:46} وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله يرضى لكم ثلاثاً ويكره لكم ثلاثاً؛ فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به

(1) والأدلة على ذلك من أحداث التاريخ القديم والمعاصر؛ (أكثر من تُحصر، وأشهر من أن تُذكر). ولذلك كان من آليات أعداء المسلمين في حربهم ضد المسلمين استخدامهم هذه الآلية وهي قولهم: (فرق .. تسد).

(2) قال فخر الدين الرازي في تفسيره: «بيَّن تعالى أن النزاع يوجب أمرين: أحدهما: أنه يوجب حصول الفشل والضعف، والثاني: قوله: ﴿وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ وفيه **قولان**: الأول: المراد بالريح **الدولة**، شُبِّهت وقت نفوذها وتمشيةِ أمرِها بالريح وهبوبها .. والثاني: أنه لم يكن نصر قط إلا بريح يبعثها الله، **والأول أقوى** .. وذهبت ريح أصحاب محمد حين تنازعوا يوم أحد». ج15، ص: (177).

شيئا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، ويَكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال)[1]، بل قال صلى الله عليه وسلم لما جاءه عبد الله بن مسعود يُخبره بقراءة آيةٍ سمعها من رجل على خلاف ما سمعها منه صلى الله عليه وسلم؛ فقال عليه الصلاة والسلام ـ وقد عُرف في وجهه الكراهية ـ: (كلاكما محسن؛ ولا تختلفوا فإن من كان قبلكم **اختلفوا فهلكوا**)[2]، وقال أيضا: (.. فمن أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، فإن الشيطان مع الواحد، ومن الاثنين أبعد، ولا يخلونَّ رجل بامرأة؛ فإن ثالثَهما الشيطان، فمن سرتْه حسنتُه وساءتْه سيئتُه فهو مؤمن)[3].

فالجماعةَ الجماعةَ .. علينا لزومُها، فلا نختلف، ولا نتدابر، ولا نتقاطع، ولا يبغي بعضنا على بعض؛ ألِأجل أهدافٍ شخصيةٍ، ورؤى حزبية، وأجندات خارجية تُدمِّرُ البلادُ وتُزهقُ أرواحُ العبادِ.

ثم إن الشياطين ـ شياطينَ الإنس والجنِّ ـ الذين كانوا سببا في هذه التحديَّات؛ إذا رأَوْا من الجماعة المسلمة تكتُّفاً واجتماعا وارتباطاً بأهل العلم والدين؛ صعُب عليهم الدخولُ إلى صفوف المسلمين وبثُّ الفرقة فيها. فمعلوم أن هذا سبيل الشيطان.

المطلب الرابع: وأخيرا "وهو أوَّل" .. حتى ترجعوا إلى دينكم.

إن الناظر في الخطاب القرآني والنبوي، يرى في قضية الابتلاء والمِحن أمراً مُلفتاً للنظر؛ ألا وهو ضرورة الرجوع إلى الله تعالى، بل ما كانت المحن إلا لذلك؛ فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ﴾ {الأنعام:42}. ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ

(1) أخرجه مسلم، كتاب: (الأقضية)، باب: (النهي عن كثرة المسائل)، برقم: (1715).

(2) أخرجه البخاري، كتاب: (أحاديث الأنبياء)، باب: (54). برقم: (3476).

(3) أخرجه أحمد في المسند، برقم: (114، 177). وقال محققوا المسند: إسناده صحيح، والترمذي، في كتاب: (الفتن)، باب: (ما جاء في لزوم الجماعة)، برقم: (2165)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، باب: (سياق ما رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحث على اتباع الجماعة والسواد الأعظم)، برقم: (155).

وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴾{الأعراف: 94}.[1] وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا تبايعتم بالعِينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد **سلَّط الله عليكم ذُلًّا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم)**[2].

فلابد من الرجوع إلى الدين، والالتفافِ حول أهله، فإن الله سبحانه وتعالى سيكشف الغمَّة ويزيل المُلِمَّة؛ إن نحن أحسنَّا الرجوع إليه، فلقد قال الله تعالى عن يوم القيامة ـ وعن كلِّ شيء كذلك ـ: ﴿لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ {القمر:58}.

فإنه لمَّا رجع المسلمون إلى دينهم وتمسكوا به والتفُّوا حول أهله؛ كان فرج الله قريبا جداً، فهؤلاء المسلمون عندما قرروا الرجوع إلى الله تعالى والوقوف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هزيمة أُحد؛ كان نصر الله لهم في حمراء الأسد، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾ {آل عمران: 172- 174}، وكذلك في حُنين وحصار الطائف؛ إذ نادى المنادي: أين أصحاب السمُرة؟ فالتفُّوا حول النبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك لمَّا كان ما كان أمْر سيف الدين قطز وسلطان العلماء العز بن عبد السلام ورجوع المسلمين كافة إلى الدين؛ انتصروا على التتار، وكذلك لمَّا كبَّر المسلمون اللهَ تعالى؛ وجعلوه أكبرَ من كلِّ شيء؛ كان نصر الله تعالى لهم على عدوِّه وعدوهم اليهود؛ في العاشر من رمضان، السادس من اكتوبر 1973م. فلا بد من الرجوع إلى الدّين؛ إذْ هو الحِصنُ الحصينُ والركنُ الركينُ.

---

(1) قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «وتقدير الكلام: أنه ابتلاهم بالشدة ليتضرعوا؛ فما فعلوا شيئا من الذي أراد الله منهم، فقلب الحال إلى الرخاء **ليختبرهم فيه**..» ج3، ص: (449). وهذا كما قال الله تعالى أيضاً عقِب آية الأنعام: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾{44}.

(2) أخرجه أبو داود، كتاب: (الإجارة)، باب: (في النهي عن العينة)، (3459).

وفي سبيل الرجوع إلى بيوت الله تعالى إذ هي المحضِن التربوي الإسلامي الأساسي ـ أو هكذا يجب أن تكون ـ؛ كي يعود الجميع إلى دين الله تعالى، لابد من مراعاة بعض الأمور؛ منها:

«لا بد وأن يكون المسجدُ مركزاً للنشاط الاجتماعي والثقافي والعلمِيٍ. وأن يكون مقراً لتوجيه الشباب لما يتطلبه تكوين الأسرة المسلمة الصالحة؛ بل ويتعاون أهله على تزويج الشباب؛ كلٌّ بقدر استطاعته، أن يكون المسجد مركزا إعلامياً يُسهم في تقديم ما تتطلبه ظروف الحياة المعاصرة وما يَجِدُّ على الساحة الإسلامية من أخبار.

أن يكون المجتمع هو الذي يضرب القدوة الصحيحة في إجابة نداء المؤذن؛ بسرعة واستمرار بحيث يشاهد الناشئةُ هذا فيتمثلونه، وأن يُذكر على أسماع الصغير ـ وخاصة من أُمِّه ـ فضائلُ المساجد، والثناءُ على المصلين فيها، وما أعدَّ الله لهم من ثواب، كلٌّ ذلك بهدف غرس حبِّ المسجد في قلبه، وأن يصطحب الكبارُ الصغارَ إلى المساجد؛ حتى يألفوها، والمصلين فيها، وأن يعامل العاملون بالمسجد والمصلون الصغيرَ معاملةً لطيفةً، ولا يغلظون له القول. بل وينبغي عليهم تنويع الوسائل المتاحة لجذب الناشئ إلى المسجد ..»[1].

وفي النهاية .. فهلمُّوا جميعا إلى دين الله تعالى، والتمسك بكتابه وبسنة رسوله صلى الله عليه وسلم؛ فبهما النجاة من كل فتنة وشبهة.

وقديما قال إمامُ دار الهجرة مالكُ بن أنس

«لن يصلح آخرُ هذه الأمَّة إلا بما صلُح به أولها».

(1) الأخلاق والقيم التربوية في الإسلام؛ من موسوعة: نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، ج1، ص: (174، 175) باختصار وتصرف.

شموعٌ دعويةٌ

ثمَّ أسوق إلى من أناروا طريق الحقِّ إلى الخلق؛ مصابيح هُدى وشموعَ نورٍ، هي بين أيديهم منارات، أظنُّها هادياتٍ في خِضمِّ هذه التحديَّات المُدلهمَّات؛ فاستعينوا بالله تعالى أولا، ثم بما تلمسونه فيها من الحق ثانياً، .. والله تعالى المستعان.

أولاً: البيتُ المصون .. "بيوت الدعاة".

بيوت الدعاة ليست بيوتاً كغيرها من البيوتات؛ بل هي قصور تُساس من خلالها دنيا الناس، فالداعية من بيته ـ عفوا: بل من قصره ـ إنما هو كمَلكٍ في بهوِ عرشه؛ ومدعوُّه كرعية ينتظرون من ملكهم توجيها أو أمراً أو نهيا؛ ولكنها مملوكية وسلطنة ليست على الأرض والأبدان بل هي على الأرواح والقلوب، فقد يكون الداعية بغير مالٍ ولا سلطانٍ ولا منصبٍ ولا جاهٍ ولا حسبٍ ولا نسبٍ؛ ومع ذلك فكلامُه مع رعيته ـ عفواً: مدعوِّيه ـ كالوحي الذي يأتيهم من قِبل السماء، لا يملكون أمامه إلا سمعنا وأطعنا، ولِم لا؟ فالدعاة أو العلماء هم ورثة الأنبياء، أو هكذا ينبغي أن يكونوا.

ولأجل هذا كان لبيوتهم في المجتمع المنزلةُ العاليةُ، والمكانةُ الساميةُ السامقةُ، فهو بيتٌ بحياته تحيا الأمة وبنوره تُضاء الظلمات وتُبعث الأرواح في الأجساد بعدما فارقتْها بما اقترفته من الذنوب والآثام، وأما إذا انصدعتْ جُدرانه أو تهدَّمتْ؛ فإنما هو هدم للكيان المسلم أو تصدعٌ لبنيان الإسلام العظيم؛ بل لا أكون مبالغاً إذا ما قلت إن غزو الكفار لديار الإسلام أهون من انهدام بيوت الدعاة!!؛ وانظروا هذا الأثر:

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (كنت أَنَا وَجَارٌ لِي مِنْ الْأَنْصَارِ .. نَتَنَاوَبُ النُّزُولَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَنْزِلُ يَوْمًا وَأَنْزِلُ يَوْمًا فَإِذَا نَزَلْتُ جِئْتُهُ بِمَا حَدَثَ مِنْ خَبَرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنْ الْوَحْيِ أَوْ غَيْرِهِ وَإِذَا نَزَلَ فَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ .. قَالَ عُمَرُ **وَكُنَّا قَدْ تَحَدَّثْنَا أَنَّ غَسَّانَ تُنْعِلُ الْخَيْلَ لِغَزْوِنَا** فَنَزَلَ صَاحِبِي الْأَنْصَارِيُّ يَوْمَ نَوْبَتِهِ فَرَجَعَ إِلَيْنَا عِشَاءً فَضَرَبَ بَابِي ضَرْبًا شَدِيدًا وَقَالَ أَثَمَّ هُوَ؟ فَفَزِعْتُ، فَخَرَجْتُ إِلَيْهِ؛ فَقَالَ: **قَدْ**

حَدَثَ الْيَوْمَ أَمْرٌ عَظِيمٌ قُلْتُ مَا هُوَ أَجَاءَ غَسَّانُ قَالَ لَا بَلْ أَعْظَمَ مِنْ ذَلِكَ وَأَهْوَلُ طَلَّقَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِسَاءَهُ)[1].

قد يقول قائل كما قال ابن حجر؛ عِظمُ هذا الأمر وهولُه؛ هو بالنسبة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه لأن حفصة ابنتَه من زوجاته صلى الله عليه وسلم وأن انقطاع نسبِه بالنبي صلى الله عليه وسلم أعظم من غزو الملك الغساني للمدينة. ولا شك في عظمة هذا الأمر بالنسبة لعمر رضي الله عنه؛ ولكني أقول:

أنْ يُطلِّق النبي صلى الله عليه وسلم نِساءَه كلَّهم، أو تُتَّهم زوجة من زوجاته بالإفك كما كان في أمر عائشة رضي الله عنها ـ وقد برَّأها الله تعالى في كتابه في آيات سورة النور ـ؛ فتتهدَّم بيوته وتنصدع؛ وهذا لا يضره صلى الله عليه وسلم يقيناً، ولكن .. إذا حدث؟ فما هو شأن الدّعوة حينئذ؟، وما هي الشائعات التي ستتلقفها ألسنُ الأعداء داخلَ الجزيرة وخارجَها؟ وقد قيل في شأن المنافقين (لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه)[2] وهنا: يتحدث أهل الإفك .. أن محمداً طلَّق نِساءه؛ فلماذا؟ وما هو الذنب الذي ارتكبنَه؟ وأي جريمة فعلنَها؟ ومن المخطئ فيهم؟ هل هو صلى الله عليه وسلم ـ وحاشاه ـ أم هنَّ؟ وقد طهرهنَّ الله تعالى وأذهب عنهنَّ الرجس.

أيها الداعية... ألا نُعلِّمُ الناس أن الطلاق له عند إبليس منزلة ومكانة عظيمة؛ وهذا لآحاد الناس، ولعوامِّهم، ولغوغائهم، فعن جابر بن عبد الله؛ قال قال رسول الله

---

(1) أخرجه البخاري في مواضع منه؛ ك: (النكاح)، باب: (موعظة الرجل ابنته لحال زوجها)، برقم: (5191)، ومسلم؛ ك: (الطلاق)، باب: (الإيلاء واعتزال النساء)، برقم: (1479). وغيرهما.

قال ابن حجر رحمه الله: «هو بالنسبة إلى عمر؛ لكون حفصة بنته منهن» وفي فوائد الحديث؛ قال أيضا: «وَفِيهِ مَا كَانَ الصَّحَابَةُ عَلَيْهِ مِنْ مَحَبَّةِ الِاطِّلَاعِ عَلَى أَحْوَالِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَلَّتْ أَوْ قَلَّتْ وَاهْتِمَامُهُمْ بِمَا يَهْتَمُّ لَهُ لِإِطْلَاقِ الْأَنْصَارِيِّ اعْتِزَالَهُ نِسَاءَهُ الَّذِي أَشْعَرَ عِنْدَهُ بِأَنَّهُ طلقهن الْمُقْتَضِيَ وُقُوعَ غَمِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ أَعْظَمَ مِنْ طُرُوقِ مَلِكِ الشَّامِ الْغَسَّانِيِّ بِجُيُوشِهِ الْمَدِينَةَ لِغَزْوِ مَنْ بِهَا .. وَكَانُوا فِي الطَّرَفِ الْأَقْصَى مِنْ رِعَايَةِ خَاطِرِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَحْصُلَ لَهُ تَشْوِيشٌ وَلَوْ قَلَّ وَالْقَلَقُ لِمَا يُقْلِقُهُ وَالْغَضَبُ لِمَا يُغْضِبُهُ وَالْهَمُّ لِمَا يُهِمُّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ» فتح الباري؛ ج11، ص: (598 ـ 623) بتصرُّف.

(2) أخرجه البخاري؛ ك: (التفسير ـ سورة المنافون)،باب: (سواءٌ عليهم أستغفرت لهم) برقم: (4905)، ومسلم؛ ك: (البر والصلة والآداب)، باب: (نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً) برقم: (2584)

صلى الله عليه وسلم: (إنَّ إبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ علَى الماءِ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَراياهُ، فأدْناهُمْ منه مَنْزِلَةً أعْظَمُهُمْ فِتْنَةً، يَجِيءُ أحَدُهُمْ فيَقولُ: فَعَلْتُ كَذا وكَذا، فيَقولُ: ما صَنَعْتَ شيئًا، قالَ ثُمَّ يَجِيءُ أحَدُهُمْ فيَقولُ: **ما تَرَكْتُهُ حتَّى فَرَّقْتُ بيْنَهُ وبيْنَ امْرَأَتِهِ، قالَ: فيُدْنِيهِ منه ويقولُ: نِعْمَ أنْتَ)**[1]. فما بالُنا إذا كان هذا الذي فارق زوجتَه هو الداعيةُ، الإمامُ الخطيبُ الذي يلتفُّ الناسُ حولَه!! فهل لا يستطيع أن يصبرَ على زوجته وأهله كما يأمرنا، هل لا يستطيع أن يتغاضى عن بعض هفواتها كما يأمرنا، هل لا يستطيع أن يعلمها كما يحاول جاهدا تعليمَنا، هل .. هل ..؟

أيها الداعية .. أليس السِّحْرُ من الكبائر التي ذكرها الله تعالى في كتابه، بل وجعل مَن تعلمه كافراً؛ ومع ذلك لا يَذكر الله تعالى من أعماله وآثاره المتعددة إلا عملاً واحدا فقط وهو أعظمها منزلة عند الشيطان؛ فقال: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ {البقرة: 102}. فلم يذكرِ الله تعالى من آثاره: القتلَ، أو الأخذَ عن الزوجة، أو التأثيرَ على العقول، أو إتلاف الأموال ... وإنما ذكر فقط التفريق بين الزوجين!!.

أيها الإمامُ .. ألا تعْلمُ أن المفسرين اجتهدوا في توجيه الخيانة التي كانت من زوْجتي نوح ولوط عليهما السلام حتى نقلوا الإجماع على نفي ما قد يتبادر إلى الذهن منها ـ أقصد خِيانةَ الفراش ـ؛ فقد نقل القرطبي إجماعاً على ذلك؛ وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «ما بغتْ امرأة نبي قط» .. ثم قال: « وهذا إجماع من المفسرين فيما ذكر القُشيري؛ إنما كانت خيانتهما في الدين وكانتا مشركتين» وهذا في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ {التحريم: 10}، وكان اجتهادهم في هذا التأويل ليس كاجتهادهم رحمهم الله

(1) أخرجه مسلم؛ ك: (صفة القيامة والجنة والنار)، باب: (تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس)، برقم: (2813)، وأحمد برقم: (14377).

تعالى في تأويل الكفر الذي وقع من ابن نوح عليه السلام؛ ولكن اجتهدوا في توجيه نداء نوحٍ ربه تبارك وتعالى أن يُنجِّيَ ولدَه مع علمه بكفر ولده[1]!!.

فالمقامان مختلفان: فمقام الكفر الذي يُخلِّدُ صاحبه في النار شؤمه ووباله على صاحبه ولن يضر الطرف الآخر من الزوجين، وأمَّا المقام الثاني: الخيانة الزوجية؛ فلا شك من أنها ستجر على الزوج عاراً وخزياً وندامةً وفضيحة حتى وإن انفصلا؛ ولذلك نزَّه الله تبارك وتعالى فُرُشَ الأنبياء عن مِثلها، فالأول مقام بين العبد وربَّه والثاني للعبد فيه نصيب ظاهر وواضح. وهكذا ينبغي أن تكون فُرُشُ وارثي مقامهم مصونةً محفوفةً بسياجاتِ الغَيرةِ والوقارِ والحشمةِ والرِّفعةِ.

أيها الوارث لمقامٍ هو من أعظم المقامات .. إن ما تشتكي منه في بيتك وحياتِك العامة والخاصة؛ مِن قلةٍ للمال، وسوء الحال مع الأولاد والزوجات، ومع الأهل والأقارب والأرحام، ومن غلاءٍ للأسعار، ومن شِدَّة العيش وشظفه .. قد شاركك فيها كثيرٌ من الناس فلست وحدك في مواجهة هذه الهموم؛ وهذا مما يُخفف حِدَّتها ووطْأتها عليك؛ هذا أمرٌ .. وأمرٌ آخر: فإن لك حالةً مع الله ليست لكل الخلق إلا للذين اصطفاهم الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ **وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ** وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ {النساء: 104}. فرجاؤك بالله تعالى بضاعةٌ لا يخيب من حازها؛ أو آواها إلى صدره وفؤاده.

أيها الداعية .. إن بيتاً جعله الله تعالى مِشعلاً للنور، ومناراً يُعرف الحقُّ به، ونجماً يُهتدى به في الظلمات؛ حريٌّ أن يكون أفراده لا سيما الزوجان على أحوال عالية من التغاضي والتراضي والتوادد والتناصح والصبر والتحمُّل والعفو والصفح والإيثار والرأفة والرحمة ... ما لا يُطلب من الآخرين؛ بل ولن يوجد مِثلُها عندهم.

أيها الداعية .. قد قلتُ ما قلتُه لك لأن بيتَك ـ معذرةً: قصرَك ـ ينبغي أن تصونه بسياجات من الحيطة والحذر؛ فإذا ظهر فيه أيُّ نوع من الأدواء عليك أن

(1) يُنظر: تفسير القرطبي؛ الموضعان المُشار إليهما من سورة التحريم وسورة هود؛ ط: الرسالة، بتحقيق: التركي.

تُسارع في علاجها، وإذا ظهر فيه أيُّ تصدُّع أو تشقق فعليك أن تنتفض في رأبه ولأَمِه.

ثانياً: لا تنتصر لنفسك.

أيها الداعية.. وأنت في مِحراب الدعوة؛ عليك أن تكون دائما في محاسبة مع النفس التي بين جنبيك؛ فإذا ما اطَّلعتَ منها على دَسيسةِ خُلُق وسوء طويَّةٍ فعليك أن تُسرع في تطهيرها، فالمحراب الذي تقف فيه لابد وأن يكون طاهرا حِسَّاً وباطنا وأن يكون رائده وإمامه كذلك، فتجتمع بذلك طهارة المكان مع طاهرة مُعمِّريه.

ومن الأمراض التي تعصِفُ بالداعية وبدعوته أن يكون دائما لِنفسه لا لدعوته ودينه الذي شرَّفه الله بالانتماء إليه أولاً؛ ثم بالدِّلالة عليه ثانيا. فهو لنِفسه إن تحرَّك أو سَكنْ، لنفسه أخذا وعطاءً ومنعاً، ثم إن اعتدى عليه أحد أتباعه أو مُستمعيه؛ هبَّ وانتفض وسارع في الانتقام لذاته ومكانته ونفسه؛ وكأنه يريد من مدعوِّيه بل ومن الخلق أجمعين موافقين له ومخالفين أن يجعلوه فوق الرؤوس والأعناق ولا يجوز لهم أن يُجادلوه أو يستفهموه عن أقواله، وكأنه ادَّعي العِصمة لنفسه!!

فأين هو من الرحمة التي حملها للخلق؟ وأين هو من العفو والصفح والرِّفق والتواضع ولِين الجانب وخفض الجناح لِمن جاء داعيا وهادياً لهم؟ وأين هو من الإعراض عن الجاهلين؟ وأين هو من هذه الصور النبوية المُشرقة؛ إذ قال الله تعالى عن نبيِّه موسى صلى الله عليه وسلم في حِواره مع فرعون عليه لعنة الله: ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ ١١ .. قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ٢٤ قَالَ لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ **أَلَا تَسۡتَمِعُونَ** ٢٥ قَالَ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٦ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ **لَمَجۡنُونٞ** ٢٧ قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢٨ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ **مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ** ٢٩ قَالَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ ٣٠ قَالَ فَأۡتِ بِهِۦٓ **إِن**

كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلۡمَلَإِ حَوۡلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا **لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ**﴾[1] {الشعراء}، فتهكَّم به أولاً، ثم رماه بالجنون ثانياً، ثم هدده بالسّجن ثالثاً، ثم شكك في صِدقه مُكذِّباً له؛ ثم ختم تُرَّهاته بما خرج مِن مِرحاضه ـ ولا أقول: فمَه ـ فقال واصفاً موسى عليه السلام (إن هذا لساحِرٌ عليم).

فهل وقف موسى عليه الصلاة والسلام مع كلِّ واحدة من هذه التُّرهات مدافِعا عن نفسه أو حتى مُستنكراً ... لا، وكيف يليق به أن يضع نفسه في مكانة تُشعِر بالمساواة بين الطرفين، وإنما لم يلتفت عليه الصلاة والسلام إلى لفظة واحدة فلم يُلقِ لها بالاً؛ فليس حاله كحال مَن قال:

ألَا لا يجهلنْ أحدٌ علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وعندما جاء ردُّ أنبياء الله تعالى على أعدائهم بما اتُّهِمُوا به فلم يتجاوزا عليهم الصلاة والسلام في ردِّهم ودفاعهم عن أنفسهم نفيَ التُّهْمَةِ فقط، وبعبارات يسيرة لطيفة ليس فيها تعدٍّ ولا مجاوزة للحدِّ بل وليس فيها عِقابٌ بمثل ما عوقبوا به؛ وإنما كان بما وصفتُ!!، فهذا نبي الله تعالى نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ {الأعراف}؛ فلم يقل لهم عليه الصلاة والسلام بل أنتم المجانين والحمقى .. أو شيئا من هذا القبيل؛ وإنما قال "ليس بي ضلالة"، وفي بيانٍ قرآنيٍ آخر عن هذا الموقف قال الله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ

(1) قصة موسى عليه السلام؛ من القصص القرآني الذي ينبغي على الدعاة في دعوتهم أن يستلهموا منه الدروس والعِبر؛ ففي كل موقف من مواقف هذا النبي الكريم مع فرعون أو مع السحرة أو مع بني قومه أو في أي حالة من حالاته عليه الصلاة والسلام في دعوته جاءت في القرآن أو في السنة النبوية؛ فينبغي أن تُدرس دراسة دعوية متأنية. ولولا خروج المقام عن مقاله لاستطردتُّ في ذِكر طرف منها.. ولعلها أن تأتي في مقام آخر إن شاء الله تعالى، فالله المستعان.

كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ **فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ** أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ ... وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ **قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ** .. وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ فنوحٌ عليه الصلاة والسلام لم ينسبهم للعمى ـ وإن كانوا له أهلاً ـ ولكنَّ المعنى: «فَعُمِّيَتْ فَخَفِيَتْ، وهو اسْتِعارَةٌ، إذْ شُبِّهَتِ الحُجَّةُ الَّتِي لَمْ يُدْرِكْها المُخاطَبُونَ كالعَمْياءِ في أنَّها لَمْ تَصِلْ إلى عُقُولِهِمْ كَما أنَّ الأعْمى لا يَهْتَدِي لِلْوُصُولِ إلى مَقْصِدِهِ فَلا يَصِلُ إلَيْهِ. ولَمّا ضُمِّنَ مَعْنى: الخَفاءِ عُدِّيَ فِعْلُ فَعُمِّيَتْ بِحَرْفِ عَلى تَجْرِيدًا لِلِاسْتِعارَةِ»[1]، فكأن شخصاً آخر قد أعمى هذه البينة عنهم؛ ثم حُذف ذِكرُه وبُني الفعل للمجهول، وأما وصفه إياهم بالجهل فليس من قبيل الجهل الذي هو نقيض العلم ولكنه ـ والله أعلم ـ الذي بمعنى البغي والتعدي على الضعيف؛ فقد جاء عن ابن جرير قولُه: «يقول: ولكني أيها القوم، أراكم قومًا تجهلونَ الواجبَ عليكم من حقّ الله، واللازم لكم من فرائضه. ولذلك من جهلكم سألتموني أن أطرد الذين آمنوا بالله»[2] وفي التفسير الميسر: «ولكني أراكم قومًا تجهلون؛ إذ تأمرونني بطرد أولياء الله وإبعادهم عني»[3]، وهل إذا ما وصف الداعيةُ مدعويه بالجهل الذي هو نقيض العلم سيجعل له بعد ذلك إلى قلوبهم سبيلاً؟!.

وكذلك من أدب الداعية وحُسنِ عرضه لدعوته أنه يقول لهم؛ كيف أُلْزِمكم بشيءٍ أنتم له كارهون؟!، فلا يليق بك أخي وحبيبي أن تتبوأ مكانةً فيها إكراهٌ لمدعوِّيك أو تغليظٌ وتضخيمٌ لأمرٍ يكرهون بسببه الدِّين. فإذا ما وسَّعْنا مفهوم: (أنُلزمكموها وأنتم لها كارهون)؛ لشمِلتْ في عمِلنا الدّعوي: الإمامة والخطابة والموعظة؛ فلا أكون مُستبعداً من مفهومها من يُطيلون على الناس وعظهم وإمامتهم .. والله أعلم.

(1) التحرير والتنوير؛ للطاهر ابن عاشور. ج12، ص: (52)، ط: الدار التونسية للنشر .

(2) تفسير الطبري (جامع البيان) ج12، ص: (386). تحقيق: عبد المحسن التركي.

(3) مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف. المملكة العربية السعودية.

وجاء عن نبي الله تعالى هود عليه الصلاة والسلام: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٦٦ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ {الأعراف}. وبنفس الطريقة التي سلكها أول الرسل نوح عليه الصلاة والسلام سلكها هذا النبي الكريم؛ وفي بيانٍ قرآنيٍ آخر لهذا النبي الكريم أيضا قال قومه له: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ .. فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ﴾ {هود: 62}. فلم يلتفت إلى تلك المكانة التي كان فيها بين قومه؛ فـ: «قال له قومه: يا صالح، قد كنت فينا صاحبُ مكانة عالية قبل دعوتك هذه، فقد كنا نرجو أن تكون عاقلًا صاحب نصح ومشورة، أتنهانا ـ يا صالح ـ عن عبادة ما كان آباؤنا يعبدونه؟ وإننا لفي شك مما تدعونا إليه من عبادة الله وحده، يجعلنا نتهمك بالكذب على الله»[1]، بل وزاد في تواضعه ورِقَّته معهم إذْ نسب الخُسران لنفسه إنْ هو أطاعهم في معصية الله تعالى، ولم يرمهم بالخسران أو الهلاك أو شيءٍ من ذلك.

ومع خيْرِ الهدي وأحسنِه وأجمعِه؛ هديُ محمد صلى الله عليه وسلم؛ فقد جاء وصفُه عن عائشة رضي الله عنها إذ قالت: (ما خُيِّرَ رَسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بيْنَ أمْرَيْنِ إلّا أخَذَ أيْسَرَهُما، ما لَمْ يَكُنْ إثْمًا، فإنْ كانَ إثْمًا كانَ أبْعَدَ النّاسِ منه، وما انْتَقَمَ رَسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لِنَفْسِهِ إلّا أنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ، فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ بها)[2]. فهذا نبيُّنا صلى الله عليه وسلم لم ينتقم لنفسه ولم تكن نفسُه ولا كانت مُحركَةً له في

(1) المختصر في التفسير؛ ص: (228). تصنيف: جماعة من علماء التفسير. إشراف: مركز تفسير للدراسات القرآنية.

(2) البخاري؛ مع الفتح، ك: (المناقب)، باب: (صفة النبي صلى الله عليه وسلم)، برقم: (3560)، ومسلم، ك: (الفضائل)، باب: (مباعدته صلى الله عليه وسلم للآثام)، برقم: (2327). وفي فتح الباري في شرح: (وما انْتَقَمَ رَسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لِنَفْسِهِ)؛ ما يلي: «أي خاصة، فلا يرد أمره بقتل عقبة بن أبي معيط وعبد الله بن خطل وغيرهما ممن كان يؤذيه لأنهم كانوا مع ذلك ينتهكون حرمات الله، وقيل: أرادتْ أنه لا ينتقم إذا أوذي في غير السبب الذي يخرج إلى الكفر كما عفا عن الأعرابي الذي جفا في رفع صوته عليه، وعن الآخر الذي جبذ بردائه حتى أثر في كتفه، وحمل الداودي عدم الانتقام على ما يختص بالمال، قال وأما العرض: فقد اقتص ممن نال منه، قال واقتص ممن لدَّه في مرضه بعد نهيه عن ذلك؛ بأن أمر بلدِّهم مع أنهم كانوا في ذلك تأولوا، أنه أنما نهاهم عن عادة البشرية من كراهة النفس للدواء»

حياته بل كانت تابعة في ذات الله لا متبوعة. و(عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ ضِمَادًا قَدِمَ مَكَّةَ، وَكَانَ مِن أَزْدِ شَنُوءَةَ، وَكَانَ يَرْقِي مِن هذِهِ الرِّيحِ، فَسَمِعَ سُفَهَاءَ مِن أَهْلِ مَكَّةَ يقولونَ: إنَّ مُحَمَّدًا مَجْنُونٌ، فَقالَ: لو أَنِّي رَأَيْتُ هذا الرَّجُلَ، لَعَلَّ اللَّهَ يَشْفِيهِ علَى يَدَيَّ، قالَ: فَلَقِيَهُ، فَقالَ: يا مُحَمَّدُ، إنِّي أَرْقِي مِن هذِهِ الرِّيحِ، وإنَّ اللَّهَ يَشْفِي علَى يَدَيَّ مَن شَاءَ، فَهلْ لَكَ؟ فَقالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى الله عليه وَسَلَّمَ: إنَّ الحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ، مَن يَهْدِهِ اللَّهُ فلا مُضِلَّ له، وَمَن يُضْلِلْ فلا هَادِيَ له، وَأَشْهَدُ أَنْ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لا شَرِيكَ له، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسولُهُ، أَمَّا بَعْدُ، قالَ: فَقالَ: أَعِدْ عَلَيَّ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ، فأعَادَهُنَّ عليه رَسولُ اللهِ صَلَّى الله عليه وَسَلَّمَ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، قالَ: فَقالَ: لقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الكَهَنَةِ، وَقَوْلَ السَّحَرَةِ، وَقَوْلَ الشُّعَرَاءِ، فَما سَمِعْتُ مِثْلَ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ، وَلقَدْ بَلَغْنَ قاموسَ البَحْرِ، قالَ: فَقالَ: هَاتِ يَدَكَ أُبَايِعْكَ علَى الإسْلَامِ، قالَ: فَبَايَعَهُ، فَقالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى الله عليه وَسَلَّمَ: وعلَى قَوْمِكَ؟ قالَ: وعلَى قَوْمِي، قالَ، فَبَعَثَ رَسولُ اللهِ صَلَّى الله عليه وَسَلَّمَ سَرِيَّةً، فَمَرُّوا بقَوْمِهِ، فَقالَ صَاحِبُ السَّرِيَّةِ لِلْجَيْشِ: هلْ أَصَبْتُمْ مِن هَؤُلَاءِ شيئًا؟ فَقالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ: أَصَبْتُ منهمْ مِطْهَرَةً، فَقالَ: رُدُّوهَا، فإنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمُ ضِمَادٍ)[1].

أتعجَّبُ أشد العجب من هذا الأثر؛ فرجلٌ يُرمَى في قومه وفي عشيرته بهذا الجنون، ويطير بهذه الفِرية الغِلمانُ والشيوخُ والسفهاءُ، ثم يأتي هذا القادم مُعْرِضا استخدام مهاراته الطبية في تَطبيب هذا الذي أصابه الجنون، فما كان من النبي صلى الله عليه وسلم إلا أن أعرض عن كلِّ هذه الافتراءات والأكاذيب وأقبل على هذا المُتطبب يدعوه إلى الله تعالى!!، فلما سمِع من النبي صلى الله عليه وسلم ما سمِع؛ انزاحتْ عن ذهْنِه كل هذه الافتراءات، وعلِم بكذب كفار قريش فيما رموْه به عليه الصلاة والسلام، وأيقن بذلك نتيجة مُقارنةٍ أجراها في ذِهنه بين ما يعْلمُه من كلام

(1) أخرجه مسلم ك: (الجمعة)، باب: (تخفيف الصلاة والخطبة)، برقم: (868). وأحمد في مسنده برقم: (2749). ومعنى قاموس البحر: (أنه أوتي من البلاغة والفصاحة والهداية ما لا يُعطى مثلُه أهلُ الباطل).

الشعراء والكهان والسحرة، فكانت النتيجة لهذا البرهان الساطع والحجة الدامغة أن أذعن لها بل وسلَّم لها كلَّ قيادِه؛ فانضمَّ تحت لوائها رضي الله عنه وأرضاه.

ثالثا: الداعيةُ قدوة مُبلِّغ وإن لم يتكلم.

أيها الدعاة .. تعلمون أنَّا في هذا المقام مُقتدَى بنا في أفعالنا وفي أقوالنا وفي حركاتنا وسكناتنا؛ ولِم لا نكون كذلك فنحن قد ورِثنا ميراث النبوة، والسُّنَّةُ كما تعلمون (أقوال وأفعال وتقريرات وصفات النبي صلى الله عليه وسلم) ووارث مكانته سيُنظر إليه بهذه النظرة ... شاء أم أبى.

فحركاتُك أيها الداعيةُ وسكناتُك وإشاراتُك وأفعالُك بل وصمتُك، كل هذا في عيون مدعويك؛ شرعٌ وسننٌ تُقْتَفى ومنهجٌ يُتَّبع، وسيرةٌ تُنقل بين الخلق.

إن عملية الاقتداء بشخص ما؛ لابد لها من شروط، وهي:

- **موثُوقيةٌ في عِلْمه.** وهذا يُحتِّم على الداعية أن لا يملَّ ولا يَكِلَّ من طلب العلم؛ فيُنزِّلُ نفسَه في فِنائه، ولا يبرح ملازما عتبات قصوره، فهو يتمتَّع في ظلاله وأفيائه بين الاطلاع والسماع والتحقيق والتنقيح والتدقيق والمُساهمة والتعليم والتدريس والشرح والموازنة والأحكام والإفتاء ... وجميع ما يتعلق بهذه الصفة والمَزيَّة التي لا ينبغي أن يَغيب عنها أو تَغيبَ هي عنه.
- **موثُوقية في أخلاقه.** فلابد وأن تكون أخلاقك أخلاقاً ـ لا أقول: حسنةً ـ؛ بل جاوزتْ الحُسن حتى صارت هي الأحسنُ بين الناظرين إليها؛ فتلك هي درجة الربَّانيين الذين تصدَّوْا لتعليم الناس وإرشادهم في المُلمَّات، فلا يُعثَر منك على هفوة لأنها ستقوِّض بُنيانَ الدعوةِ التي أنت مُقيمٌ عليها ولها، وقد ذكرتُ فيما سبق عن نوح وهود وموسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم ما يُؤيِّد ذلك؛ فقد اتُّهِموا بالكذب والسَّفه، والضلال، والجنون والسِّحر .. وغير ذلك وما زادهم ذلك إلا استمساكاً بأخلاق ربَّاهم الله تعالى عليها،

وأرادها منهم؛ فكانوا قُدوة لمن سلك سبيلهم، وقد قال الله تعالى بعد أن ذكر عدداً منهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ {إبراهيم:12}؛ وقال أيضاً: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ {الأنعام: 90}. وقد سبحانه وتعالى عن خاتمهم صلوات الله عليه وسلامُه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ {القلم:4}، وقال عن موسى كلِيمهِ عليه السلام ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ {طه: 39}. وكذلك كلُّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

- **موثُوقية في تزكية**. أخي .. أيها الداعية؛ ليس شرطاً أن تكون ممن قال عنه علماء الإسلام وشيوخُه: «خذوا العلم عن هذا الشيخ؛ فإنه فقيه، ومحدِّثٌ، ومؤرِّخٌ، وأديب أريب، وثقةٌ ثبتٌ، .. وإن كان ـ ولا أظن!! ـ فهو أفضل»؛ فقد تحمل شهادةً جامعية تجعلُك مع اجتهادك؛ ممن يُشار إليهم بالعلم والفضل، وقد تكون بغير تلك الشهادة من أهل الفضل والعلم والدين فلستَ في حاجة إلى ما قد يُقال: من الذي زكَّاك حتَّى تتصدى لتعليم الناس؟ ومن شيوخك؟ وما هي الكُتب التي درَسْتها أو درَّسْتها؟؟.. وغيرها من الأسئلة، والتي لأجلها قد تُحرم الساحة الدعوية من الخير الكثير ـ بل قد حُرِمتْ !!ـ

ولكن المهمَّ والأهمَّ أن يُزكيَك عِلمُك؛ فلا تكون بتحديثك ووعظك وتعليمك مخالفاً سبيل المؤمنين الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ {النساء: 115}. وكذلك لا تنشد في حديثك ووعْظِك أن تأتي بالغرائب التي لم يسبقك أحد إليها، بل الأجدر والأحسن بك؛ أن تقف مع الأصول الكلية للإسلام؛ والتي قد غاب أكثرها أو كثيرٌ منها بين المدعوِّين، ووقوفك حيث علمتْ أولى وأحرى من أنْ تتعداه إلى ما لم تعلم،

فقد جاء في الأثر عن سعيد بن جبيرٍ: (قَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَهَى إلى ما سَمِعَ)[1].

فالتزكية التي ننشدها (نحن كدعاة)؛ **هي أن لا نأتي بما يُخلِّدُ لنا ذِكرا لو باللعنات!!!؛ بل تزكية لا تُخرجنا عن سبيل المؤمنين، تزكية بالعلم الذي نحمله ونُعلِّمُه للناس، تزكية بإقرار أهل العلم لحديثنا ووعظنا إذْ لم ينكروه، فكل هذه أنواع من التزكية ينبغي أن لا ننساها أو نتناساها في طريقنا الدعوي.**

- **عِلمٌ باقتداء الغير به.** وهذا أمرٌ بَدَهيّ؛ والكلام عن البَدهيَّات يجعلها عِسرة الفَهم والوصول إلى الذهن؛ ولكنَّها إشارةٌ بل لَمحةٌ لكلمة قالها ابن خلدون عليه رحمة الله تعالى وغفر له، **يظهر منها المُراد**؛ فقال: «المغلوبُ مُولَعٌ أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيِّه ونِحلته وسائر أحواله وعوائده؛ والسبب في ذلك أن النفس أبدا تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادتْ إليه: إما لنظره بالكمال بما وقر عندها في تعظيمه، أو لما تُغالِط به من أن انقيادها ليس لِغلبٍ طبيعي؛ إنما هو لِكمال الغالب، فإذا غالطتْ بذلك واتصل لها حصل اعتقاداً، فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبَّهتْ به، وذلك هو الاقتداء»[2].

أخي: بعيداً عن ما تقوله أنت في وعظك (صِحة أو ضعفاً) .. فبه: قد غلبتَ مُتبعيك ومدعويك بسلطان هو من أقوى السلاطين وبحجَّة وبرهانٍ هي من أقوى الحجج والبراهين ولهذا كلِّه أصبحت قدوةً لهم شئت أم أبيت فهذه طبيعة رسالتك .. والله المُستعان.

أيها الداعية كانت هذه شروطاً أو مقاماتٍ أو أحوالاً لا ينبغي لمن تصدى لهذا المقام؛ مقامِ الأنبياء أن يتجاهلها أو يتعامى عنها.

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه وله قصة، ك: (الإيمان)، باب: (دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب)، برقم: (220)، وأحمد في مسنده، برقم: (2448)

(2) نصوص مختارة من مقدمة ابن خلدون؛ ص: (67) اختارها د/ محمد العبدة؛ مركز الرسالة للدراسات، القاهرة.

رابعاً: الداعية قبل المسجد.

أخي وحبيبي، يا مَن ورِثْتَ مقام النبوَّة .. تخيَّل نفسَك معي وأنت في هذا المقام الدعوي؛ أقصدُ داعيةً ضِمْن مؤسسة دعوية (حكومية أو خاصة)؛ تُرسَل هنا أو هناك، لهذا المسجد أو ذاك، في محاضرة أو ندوة أو في رِحلة دينية، أو في مناسبةِ عُرْسٍ أو ميلادٍ أو نجاحٍ أو وفاةٍ، أو في معهدٍ أو مدرسةٍ أو جامعةٍ أو نادٍ، .. تسير في طرقات المسلمين وغير المُسلمين، في بلدك أو في غيرها؛ مبعوثاً دعوياً أو ثقافياً، فأنت في كلِّ الأحوال وفي كل الأماكن بل وفي كلِّ المؤسسات التي تُفتح لك الأبواب فيها ولا تُسدُّ .. **فأنتَ بما تحملُ في صدرك وبين جنبيْك في مكانةٍ مقدّمٌ على المسجد؛ فليس مقامُك عند الله تعالى بالهَيِّن.**

وهذا أمرٌ أظنه معلوماً إلى درجة هي إلى البَدَهيَّة أقرب منها إلى الاستدلال؛ ومع ذلك أسوق من الأدلة مع يجعلك تُوقِن بمكانةٍ ومنزلَةٍ هي من أعظم المنازل التي بوَّأنا الله تعالى إياها:

فلقد ترك النبيُّ صلى الله عليه وسلمَ وأصحابُه مكةَ المكرمةَ شرفها الله تعالى وحرسها؛ وفيها بيتُه البيت الحرام الذي هو أعظم البيوت عند الله منزلة على الإطلاق. ولو كان الأمر بالعكس أي أن البلد الحرام والبيت الحرام أفضل من النبي وصحبِه لَمَا أذن الله تعالى لهم بالهجرة إلى المدينة تاركينهما.

ولم يستطع النبي صلى الله عليه وسلم أن يُهاجر إلى المدينة إلا بعد أن دخل الإسلام كلَّ بيوتها فكانوا للإسلام وللنبي صلى الله عليه وسلم أنصاراً؛ بفضل الدعاة إلى الله تعالى أمثال: مصعب الخير "مصعب بن عُمير". وكان هذا كلُّه قبل أن يبنيَ النبيُّ صلى الله عليه وسلَّم المسجد النبوي، فلو لم يكن الدعاة المخلصون للدعوة لَما كان المَسْجد؛ فالمسجد بعدُ وليس قبلُ!!.

ولم يجعل الله تبارك وتعالى قوْلا من الأقوال أحسنَ من قولك فقال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ {فُصلتْ: 33}؛ بل إن الأمةَ الإسلاميةَ ما نالتْ خيريتَها على سائر الأمم إلا بعملٍ هو من أخصِّ الخصائص التي يقوم عليها عملُك، ألا وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فقال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ {آل عمران: 110}.

وكذلك لم يجعل الله تبارك وتعالى الاستهزاءَ بأحدٍ كفراً إلا الاستهزاءَ بعالمٍ أو داعيةٍ أو حافظٍ للقرآنِ وهذه أمورٌ وأوصاف لا ينفك عنها الداعية في غالب أحواله؛ فهو داعية حافظ للقرآن مُعلِّمٌ للناس؛ وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ {التوبة}. وهذه الآيات كما ذكر علماء التفسير تتعلق بقصَّة من قَصص المنافقين؛ فقد جاء في تفسيرها: «قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ: مَا أَرَى قُرَّاءنا هَؤُلَاءِ إِلَّا أَرْغَبَنَا بُطُونًا، وَأَكْذَبَنَا أَلْسِنَةً، وَأَجْبَنَنَا عِنْدَ اللِّقَاءِ. فرُفع ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، فَجَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ وَقَدِ ارْتَحَلَ وَرَكِبَ نَاقَتَهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ. فَقَالَ: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿مُجْرِمِينَ﴾ وَإِنَّ رِجْلَيْهِ لَتَنْسِفَانِ الْحِجَارَةَ وَمَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ، وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِنِسْعَةِ رَسُولِ اللَّهِ»[1]

وعليه فلْيُعلم: «أن الاستهزاء بالعلماء والصالحين لأجل ما هم عليه من العلم الشرعي، واتباعهم للقرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، هو في حقيقته استهزاء بآيات الله تعالى، وسخرية بشرائع دين الله عز وجل، ولا شك أن هذا الاستهزاء كفر يناقض الإيمان، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ

(1) تفسير القرآن العظيم. لابن كثير، ج4، ص: (171، 172). طبعة دار طيبة.

مُّهِينٌ﴾ {الجاثية:9}، ولم يجئ إعداد العذاب المهين إلا في حق الكفار» ... ويقول ابن نجيم الحنفي في الأشباه والنظائر: «الاستهزاء بالعلم والعلماء كفر»[1].

ومن الأدلة النُّبوية التي أختم بها تلك الاستشهادات[2]؛ فعن: (ابن عمر قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف بالكعبة، ويقول: ما أطيبك، وأطيب ريحك! ما أعظمك، وأعظم حرمتك! والذي نفس محمد بيده، لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك، ماله، ودمه)[3]. وإذا كان هذا في حق المؤمنين عموما؛ فما بالنا بمن كانوا أئمة لهم!!.

أخي .. لم أسُقْ هذه النصوصَ تكبراً ولا فخراً وإنما لأُعْلِمْك بمكانك ومكانتك عند من اصطفاك لتلك الرسالة سبحانه وتعالى، ولأجعل من خلالها سبيلاً إلى قلبك مُلْقياً فيه حُبَّها والشغفَ بها وبذلَ النفس والنفيس من أجلها؛ فهي رسالة اصطفى الله تعالى لها أفضل البشر سِيرةً وسريرةً، فهُم المقدَّمون عِنده في الدنيا على قِلَّة أتباعهم وعلى قِلَّة أموالهم وعلى ازدراء الآخرين من أهل الباطل لهم، وأما في الآخرة فالمقامُ مقامُهم؛ بل إن الآخرة كلّها لهم ولأتباعهم ﴿وَٱلْأَخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ {الزخرف:35} وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ﴾ {البقرة: 212}. بل قال الله تعالى لِمن استهزأ بهم وسخِر منهم: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ

(1) يُنظر: نواقض الإيمان القولية والعملية؛ د/ عبد العزيز بن محمد العبد اللطيف. ص: (436 ـ 449)، والصارم المسلول لابن تيمية، ص: (52).

(2) وما أخَّرته إلا للاختلاف في تصحيحه وتضعيفه مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم وإن كان يصحُّ موقوفاً والله أعلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه.

(3) أخرجه ابن ماجة؛ ك: (الفتن)، باب: (حرمة دم المؤمن وماله)، برقم: (3932). ويُنظر كذلك: السلسة الصحيحة للألباني فقد ذكر حديثا عن ابن عباس بهذا المعنى وهو: (قال: لما نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة، قال: مرحبًا بك من بيت، ما أعظمك، وأعظم حرمتك! وللمؤمن أعظم عند الله حرمة منك. أخرجه البيهقي في الشعب) وهو فيها أي السلسلة الصحيحة؛ برقم: (3420).

لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ {المؤمنون}.

أيُّها الداعية .. هذه شمعةٌ عساها تُضيءُ لك دهاليزَ الحياة، وأن تبعث إشعاعاتُها في نفسك روحَ التضحية بالأوقات والمطاعم والملذات والشهوات مُؤْثِرا هذا النعيم الذي لم ولن يذق طعمَه إلا من عاشره وكابد في أسحار الليل أشواقَه، وهي شمعة تقول لك .. (أنت شخصية مُهِمّةٌ جداً جداً.. بل الحياة كلُّها متوقفة عليك)[1].

خامساً: طبيعة الحياة المادية للدعاة.

مِن أبرز الأشياء التي تأخذ من الداعية؛ فِكْراً وشُغلاً، وعَملاً، وقلباً وقالباً، بل وعُمراً طويلاً ودهراً مديداً هو انشغاله بتحصيل الأمنِ المادِّيِّ والاستقرار الحياتي في نواحي المأكل والمشرب والملبس والمسكن. وليس هذا مما يُعاب عليه المرءُ أو يُذمُّ.

ولستَ أخي وحبيبي الداعية في حاجة إلى أن أطرح بين يديك أدلةً أنت تَعلمُها وتُعلِّمُها مدعويك من الأوامر الإلهية والنبوية للسعيِّ في الأرض أو الضرب فيها، ولستَ في حاجة كذلك إلى أن أذَكِّرك بسؤال النبي صلى الله عليه وسلم ربَّه كَثرة المال والولد لأنس بن مالك رضي الله عنه، ولا إلى أن أقول لك كما قال أحد التابعين (يوشك أن يكون المالُ سلاحَ المؤمن) ... وغير هذا كثير معروف لديك؛ ولكنها شمعة في هذا السبيل أضعها بين يديك تُوضح لك طبيعةَ هذه الدنيا وطبيعةَ أصحاب الأموال فيها؛ وطبيعة العمل الذي كُلِّفنا به واصطفانا الله تعالى له؛ فمن علِم طبيعة الشيء وما خلقه الله تعالى عليه وركَّبه فيه؛ سهُل عليه التعامل معه؛ فأقول:

(1) ولأجل ذلك عمِل أعداء المسلمين على الحطِّ من شأن الدعاة ومُعلِّمي الناس الخير؛ فمما جاء في البروتوكول السابع عشر من بروتوكولات اليهود: «وقد عنينا عناية عظيمة بالحط من كرامة رجال الدين من الأمميين (غير اليهود) في أعين الناس، وبذلك نجحنا في الإضرار برسالتهم التي كان يمكن أن تكون عقبة كؤوداً في طريقنا، وإن نفوذ رجال الدين على الناس ليتضاءل يوماً فيوماً» ترجمة محمد خليفة التونسي ص: (187)

«القائمون بأمور الدِّين من القضاء والفُتيا والتدريس والإمامة والخطابة والأذان **ونحو ذلك لا تَعظم ثروتُهم في الغالب**؛ والسبب لذلك أن الكسب قيمة الأعمال، وأنها متفاوتة بحسب الحاجة إليها، فإذا كانت الأعمال ضرورية في العمران، عامة البلوى به، كانت قيمتها أعظم وكانت الحاجة إليها أشد، وأهل هذه الصنائع الدينية لا تضطر إليهم عامة الخلق؛ وإنما يَحتاج إلى ما عندهم الخواص ممن أقبل على دينه، وإن احتِيجَ إلى الفتيا والقضاء في الخصومات فليس على وجه الاضطرار والعموم؛ **فيقع الاستغناء عن هؤلاء في الأكثر** .. فلذلك لا تعظم ثروتُهم في الغالب»[1].

وإذا جاز لي أن أقول اختصاراً لتلك المقولة: (حاجةُ الناس هي التي تصنع ثرواتِ الآخرين)؛ فقلِّبْ طرفك يمنةً أو يسرة: فهل ترى اهتمام الناس بأمر دينهم وما يتبعه من التعاليم والعبادات والتكاليف؛ كاهتمامهم بأمور المأكل والمشرب والمسكن بل وبأمور الترفيه والحفلات والمنتزهات!! وأظنُّك على يقين بما عليه حال الناس في هذا وذاك.

ويزداد الأمر بؤْنا شاسعاً كلَّما عَظُمتِ المادية في نفوسهم، وكلما سيطرتْ شهوات الجاه والشهوة والسلطان؛ فلن تجد من الناس اهتماما بِمن يُعلِّم أطفالهم القرآن والسنة والصلاة والزكاة والصيام وسائر أنواع العبادات كاهتمامهم بمن يُعلمُهم مسائل الرياضيات والفيزياء والأحياء والكيمياء، لن تجد من الناس من يُرسل ولَده إلى بلد بعيد طالباً للعلم الشرعي بقدر ما تجدهم يُرسلون أبناءهم إلى بلاد بعيدة بعداً كبيرا وليس هذا وفقط؛ بل وهي بلاد كافرة ـ عادتْ وحاددتْ الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وأظهرتْ كفرَها وبُغضَها لديننا ـ طُلاباً لهذه المسائل الرياضية والفيزيائية والكميائية[2].

---

(1) نصوص مختارة من مقدمة ابن خلدون؛ جمع: أ/ محمد العبدة. ص: (152، 153).

(2) لست بذلك صادًا لطُلَّاب المعرفة عن العلم الذي تميز به هؤلاء؛ ولكن للسفر إلى بلادهم وطلب العلم الموجود عندهم ضوابط وشروط؛ انظرها غير مأمور في: (قواعد في التواصل العلمي والحضاري بين الثقافات) لمؤلفه. وهو على الشبكة الدولية، في موقع صيد الفوائد.

أخي الداعية .. هذا الطريق له طبيعة مادية ينبغي علينا إدراكَها؛ وهي ما علمْتها آنفاً. فإن أردتَّ في سبيله المالَ وكان أساساً لحياتك وهدفاً رئيساً لدعوتك فأنت على شفا هلكةٍ؛ وأنصحك أن تُراجع نيَّتك وأن تُخلِّصْها من هذه الشوائب. وإيَّاك ثم إيَّاك أن تكون ممن كانوا سببا في الثورة على دينهم ونبذ معتقداتهم بل وحرفوا بأقوالهم وأفعالهم ما أنزله الله عليهم؛ وهم أحبار اليهود ورهبان النصارى؛ فقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ {التوبة: 34}.

وإن كنت تُريد المال معك في هذه الحياة مُسايرةً لأهل الدنيا في دُنياهم ومُزاحمة لهم فيها؛ فمعذرة: (قد غابتْ عنك طبيعةُ هذه الحياة الدعوية؛ وغاب عنك هديُ النبي صلى الله عليه وسلم في حياته ومعيشته)؛ إذْ من طبيعة عملك أنَّك تُريد من هذه الدنيا ما لم يَخْطر لأهلها على بالٍ من قِلة الزاد والمتاع الدنيوي، وتريد من الآخرة ما ليس لهم في الحُسبان؛ إذِ العلم الذي معك يُكثِّر نواياك، وتعلم به عن الآخرة ما لم يعلمه الآخرون؛ فتطلب منها ما لم يكن لأهل الدنيا على بال، فهما طريقان لا يلتقيان. فتفطَّن.

وإن كنت تُريد من تحصيل المال نفعَ الدعوة إلى الله ببذله لمُستحقيه ولإعانة إخوانك في هذا الطريق فنِعْم أنت؛ إن لم تكن قد انشغلت بتحصيله عن العلم والدعوة في هذا السبيل. فما أعطاك الله من الجِد والاجتهاد والذكاء والفطنة وقوة الحافظة والذهن الوقَّاد .. وغيرها من هذه النِّعم أحرى بك وأولى أن تستخدمها في العلم والدعوة لا أن تستخدمها في المال وجمعه وتنميته.

ولقضية التلازم بين الفقر والعلم الشرعي أمرٌ؛ عجيب فقد أُثِر عن أحدهم أنه نقض سقف بيته وباع خشبَه في سبيل طلب العلم، وآخر نُقِل عنه أنه قد امتنع عن كتابة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والتحديث به؛ لأنه كان عُريانا لم يجد لباسا يُواري به سوأته؛ وهما إمامان من أئمة أهل العلم (أولهما: مالك بن أنس،

وثانيهما: البخاري) رحمها الله تعالى ولأجل هذه القضية التلازمية[1] أنشد أحدهم بيتا قال فيه:

إن الفقيهَ هو الفقير وإنما راءُ الفقير تجمَّعت أطرافها

أخي: الغِنى؛ هو: عدمُ الحاجة، وقد يكون غنياً من لا يملك إلا رغيفاً، وقد يكون فقيرا من يملك مِليارات العالم كلَّها؛ ولا عجب: فالغنى غِنى النفس لا العرض.

فعليك في هذه الحياة بما يُقيم الأوَد، وبما يكفيك ذُلَّ المسألة وبما يحفظ ماء وجهك عن الخلق؛ فمن أقرب الطرق التي تُوصِّل إلى محبَّة الخلق هو زُهدك عن ما في أيديهم؛ ولن يكون إلا بِغناك عنهم. ولا تنهمك في الحياة انهماكَ من لا يرى الآخرة في باله ولا في حُسْبانه؛ وقد صدق الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ {المعارج}. فلا يليق بنا أن نتكالب على الدنيا تكالب من لا يؤمنون بالآخرة أو أن نتسارع فيها تسارع من لم يفهموا مُراد الله تعالى منها؛ فإن من أخطر الأمور التي تُعيق الداعية في عمله وفي رِسالته: «الفناءُ في ملاحظة حقوق الأهل والأولاد، واستغراق الجهد في التوسع في تحقيق مطالبهم نظراً إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم: (وإن لأهلك عليك حقًّا)، مع الغفلة عن: (وإن لربك عليك حقاً .. فأعط كلَّ ذي حقٍّ حقَّه)، وقد عدَّ القرآن الكريم الأهل والأولاد أعداءً للمؤمن إذا حالوا بينه وبين طاعة الله عز وجل، روى ابن جرير عن عطاء بن يسار في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ﴾ قال: نزلتْ في عوف بن مالك الأشجعيِّ، كان ذا أهل وولد، وكان إذا أراد الغزو بكَوْ إليه ورقَّقُوه، فقالوا "إلى من تدعنا؟" فيرقُّ لهم، فنزلت ..»[2].

فليس من شأن الدُّعاة ـ لا سِيَّما من لم يُفْتَح عليهم من كنوز الدنيا وخيراتها ـ؛ أن يتسارعوا إلى اقتناء أحدث صيحات المُوضة، وأرقى الملابس والماركات العالمية،

(1) يُنظر: علو الهمة، د/ محمد بن إسماعيل المقدم، ص: (159 ـ161). دار الإيمان، الاسكندرية

(2) علو الهِمّة؛ د/محمد بن إسماعيل المقدم، ص: (341).

ولا على آخر الموديلات لأنواع السيارات والتليفونات، ووسائل التواصل الحديثة بأنواعها، ولا البحث عن الأمور المُستوردة ممن لا تتوقف عليها عجلة الحياة.

أخي .. معذرةً: تلك شمعةٌ طال حبلُ شعاعها؛ ولعلَّه كالطَّلِّ أصاب صفوانَ الدنيا؛ فأزاح ما عليه من غُبارِ زخارفها فتجلَّى على حقيقته لذوي الأبصار .. والله المستعان.

سادساً: الإمام ومشاركة أهل مسجده في إدارته وعدم استئساده عليهم.

الإمام في مكانة عالية بين الخلق بأدبه وعِلمه وخُلقِه وتجافيه عن حُبِّ الشرف والسؤدد؛ فإذا ما نزل في مسْجد من المساجد واعظاً ومُعلِّماً ومُرشداً؛ فلْيحمد الله تعالى أولاً، ولْيشْكرِ الناسَ على أنهم جلسوا بين يديه مُسْتمعين نُصْحَه، مؤتمرين بأمره، بل ليشكرهم على أنهم طرحوا إليه أولادَهم وفلذاتِ أكبادهم بين يديْه؛ يُشكِّلُ أذهانهم ويُكوِّن ثقافتهم، ويضع في قلوبِهم وأفئدتِهم عقيدةً وعبادةً وفِكراً وأخلاقاً وسلوكا وتقويما وتقييما لما اعوج من أفعالهم. ومن لم يشكر الناس لا يشكر الله عز وجل.

وعليه فلا يليق بنا والحالة هذه .. إذا ما نزلنا مسجدا أن نكون في زِيِّ الأمراء والسلاطين أو الملوك والحُكَّام؛ فلسنا قُضاة بل دُعاة.

أيُّها الداعية: إنَّ مُسْتمعيك ليسوا على درجة واحدة منك، فأحوالهم معك متباينةٌ: (بُعداً وقُرباً)، (حُبَّاً وبُغضاً)، (نُصْرةً وعداءً)، (صفاءً وكدراً)، (نُصْحاً وغِشاً).

فلن تستطيع أخي أن تسع الناس بأموالك وسخائك وعطائك ولكنك تستطيع ذلك بأخلاقك؛ وإذا كان معك في مسجدك سلطان من الدولة (كموظفٍ!)؛ فلا يغيب عن بالك الهيئةُ التي دخل بها النبي صلى الله عليه وسلم مكة منتصرا ومعه جيشه عام الفتح فقد كان في قِمة التواضع ـ وفي كل أحواله كذلك ـ حتى كادتْ رأسه تمَسُّ عُنقَ راحلته تواضعا؛ صلى الله عليه وسلم[1].

(1) السيرة النبوية دروس وعِبر، محمد علي الصلابي. ج2، ص: (496). ط: دار الإيمان المنصورة ـ مصر.

واجعل في حُسبانك وفي قلبك هذا الأمر ـ وهو معلوم لديك ـ: لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يُريد من مُقامه في المدينة أن يكون مُتوَّجاً عليها سُلطاناً، ولا أن يكون هو الأمير؛ الآمرُ النّاهي، ولم يُرد من أصحابه أن يُعاملوه بهذا المنطق، بل لم يكن على بيته بوَّابُون كأدنى مظهر من مظاهر الأبَّهة والسلطان، وكان يَمرُّ عليه الهلال ثم الهلال ثم الهلال؛ ثلاثة أهله في شهرين ولا يوقد في بيته نار، بل قال لِمن ارتعدتْ فرائصُه خوفا ووجلا منه: (هوِّن عليكَ، فإنِّي لستُ بملِكٍ، إنَّما أَنا ابنُ امرأةٍ تأكُلُ القَديدَ)[1] فلم يُرد النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً من هذا الذي يتنافس عليه أهل الملوك والسلطان .. ومع ذلك:

في موقف من مواقف الحِقد والحَنَقِ النِّفاقي للإسلام ولرسوله ولأتباعه قال رأس المنافقين للرسول صلى الله عليه وسلم: «أيُّها المَرْءُ، إنَّه لا أحْسَنَ ممَّا تَقُولُ إنْ كانَ حَقًّا، فلا تُؤْذِنَا به في مَجْلِسِنَا، وارْجِعْ إلى رَحْلِكَ، فمَن جَاءَكَ فَاقْصُصْ عليه!!» فرد عليه عبد الله بنُ رَوَاحَةَ رضي الله عنه قائلاً: (بَلَى يا رَسولَ اللَّهِ، فَاغْشَنَا به في مَجَالِسِنَا، فإنَّا نُحِبُّ ذلكَ)، فَاسْتَبَّ المُسْلِمُونَ والمُشْرِكُونَ واليَهُودُ حتَّى كَادُوا يَتَثَاوَرُونَ، فَلَمْ يَزَلِ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حتَّى سَكَتُوا، فَرَكِبَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ دَابَّتَهُ حتَّى دَخَلَ علَى سَعْدِ بنِ عُبَادَةَ، فَقَالَ له: أيْ سَعْدُ، ألَمْ تَسْمَعْ ما قَالَ أبو حُبَابٍ؟ ـ يُرِيدُ عَبْدَ اللَّهِ بنَ أُبَيٍّ ـ قَالَ سَعْدٌ: يا رَسولَ اللَّهِ، **اعْفُ عنْه واصْفَحْ، فَلقَدْ أعْطَاكَ اللَّهُ ما أعْطَاكَ، ولَقَدِ اجْتَمع أهْلُ هذِه البَحْرَةِ علَى أنْ يُتَوِّجُوهُ فيُعَصِّبُوهُ، فَلَمَّا رُدَّ ذلكَ بالحَقِّ الذي أعْطَاكَ شَرِقَ بذلكَ، فَذلكَ الذي فَعَلَ به ما رَأَيْتَ)**[2].

فقد يكون وُجودك في المسجد بدعوتِك وتعليمِك والتفافِ الناسِ حولَك وتعلُّقِ القلوب بك وعقدِ الخناصرِ عليك؛ كوَّن لك سلطاناً على الناس ليس بجيش أو جنود أو

(1) أخرجه ابن ماجة في سننه؛ ك: (الأطعمة)، باب: (القديد)، برقم: (3312).

(2) أخرجه البخاري؛ ك: (التفسير؛ سورة آل عمران)، باب: (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذىً كثيراً)، برقم: (4566)، ومسلم؛ ك: (الجهاد والسير)، باب: (في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم)، برقم: (1798) وغيرهما.

ما شابه إنما هو بما حباك الله تعالى به من الخير والفضل والعلم؛ كلُّ هذا قد تسبب في أن يفقد بعض ذوي النفوذ نفوذَهم وسلطانَهم من المسجد فشرِقوا بالحق الذي معك كما شرِق به المنافق قبلُ. فالعفو والصفح وحفض الجناح، فلا يتحدَّث الناس أن الإمام يُعادي رُوَّادَه.

أخي لم تكتمل بعدُ تلك الشمعةُ.. ولن تنتفع بضيائها إلا بالتي تليها؛ فهاك هي:

سابعاً: تفطَّن لما يُدفع في طريقك من الشوك والأذى.

مما لا شك فيه: أن طريقاً سلكه قبلنا النبيون عليهم صلوات الله تعالى وسلامه؛ لن يكون محفوفاً بالورود والأزهار، فمن طبيعته بل من لوازمه أن يكون هناك دِفاعٌ بين فريقين (فريق للجنة وفريق للسعير)، وقد صدق ورقةُ بن نوفل إذ قال للنبي محمد صلى الله عليه وسلم إذْ فاجأه الوحي بغار حِراء: (هذا النَّامُوسُ الذي نَزَّلَ اللَّهُ علَى مُوسَى، يا لَيْتَنِي فيها جَذَعًا، لَيْتَنِي أكُونُ حَيًّا **إذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ**، فقالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ، قالَ: نَعَمْ، **لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بمِثْلِ ما جِئْتَ به إلَّا عُودِيَ**)[1] وقد قال الله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ {العنكبوت:2}؛ فهو أمرٌ من لوازم الدعوة والإيمان؛ ولأجل ذلك أُمِرْنا بالصبر والمُصابرة في هذه الطريق على ما نُلاقيه؛ وهذا ما تُمْلِيه علينا آياتُ الذِكر الحكيم؛ كسورةُ العصر؛ وكقول الله تعالى في تلك الوصية الأُبَوِيَّة على لسان لقمان عليه السلام: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ {لقمان: 17} فمن تعرض للخَلْق ـ لا سِيَّما في هذا المقام الدَّعوي التوجيهي والتربوي والتقويمي ـ **لن يَسْلَم من الأذى والشوك**؛ ولِمَ لا؟! وسوف يُسَفِّهُ أحلاماً، ويُقرِّعُ آذاناً، ويُكمِّمُ أفواهاً، ويُواجه شهواتٍ أَلِفَتْها الناسُ؛ بالتحريم تارةً وبالتقييد أخرى، بل وسوف يُنَغِّص على الناس حياتهم إذا ما حدثهم عن الموت

(1) البخاري؛ باب: (كيف كان بدء الوحي)، برقم: (3)، ومسلم، ك: (الإيمان)، باب: (بدء الوحي)، برقم: (160)

وما يُلاقونه في الآخرة، أو إذا حدَّثهم عن الحلال أو الحرام لأنهم يُريدون الحياةَ عِوجاً لا استقامة فيها ولا رشاد.

ولا أريد أخي الداعية أن أستطرد في قضية الابتلاء وتلازمها وصور هذا التلازم في حياتنا كمسلمين عاديين أو كدعاة موجِّهين ومُقَيِّمين .. فأنت بها خبير.

ولكني أحبُّ أن أبعث إليك من تلك الشمعة؛ هذا الشعاع:

عن حذيفة بن اليمان؛ قال: (كُنَّا إذَا حَضَرْنَا مع النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ طَعَامًا لَمْ نَضَعْ أَيْدِيَنَا حتَّى يَبْدَأَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ فَيَضَعَ يَدَهُ، وإنَّا حَضَرْنَا معهُ مَرَّةً طَعَامًا، فَجَاءَتْ **جَارِيَةٌ كَأَنَّهَا تُدْفَعُ**، فَذَهَبَتْ لِتَضَعَ يَدَهَا في الطَّعَامِ، فأخَذَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ بيَدِهَا، **ثُمَّ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ كَأَنَّما يُدْفَعُ فأخَذَ بيَدِهِ**، فَقالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ: إنَّ الشَّيْطَانَ يَسْتَحِلُّ الطَّعَامَ أَنْ لا يُذْكَرَ اسْمُ اللهِ عليه، وإنَّه جَاءَ بهذِه الجَارِيَةِ لِيَسْتَحِلَّ بهَا فأخَذْتُ بيَدِهَا، فَجَاءَ بهذا الأعْرَابِيِّ لِيَسْتَحِلَّ به فأخَذْتُ بيَدِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ، إنَّ يَدَهُ في يَدِي مع يَدِهَا)[1].

أيها الداعية: مَن الذي دَفع الجاريةَ؟ ومن الذي دفع الأعرابيَّ إثْرَهَا ـ إذْ لم ييأس من فشل المحاولة الأولى ـ؟ ولماذا هاتان المحاولتان المتتابعتان؟. إنما هو الشيطان عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين؛ ولأجل أن يستحلَّ الطعام فلا يُذكر اسم الله عليه فيأكل ساعتِئذ.

أخي: ما رأيك في هذه الصورة؟ طِفلةٌ صغيرة ـ جارية ـ أرادت أن تأكل؛ وربما لم تَعلم آداب الطعام، وكذلك لم يجر عليها قلمُ البلوغ: تمدُّ يدها لتأكل فيقبضها النبي صلى الله عليه وسلم، ثم يأتي هذا الأعرابي وإنما هو جائع؛ فيمُدُّ يدَه هو الآخر فيقبضها النبي صلى الله عليه وسلم !! يا للعجب.

(1) أخرجه مسلم ك: (الأشربة)، باب: (آداب الطعام والشراب)، برقم: (2017)، وأحمد؛ برقم: (23373).

إن الشيطان يُريد من هذه الجارية أو ذاك الأعرابي أن يفتح له طريقا إلى الطعام؛ ولن يَضيرَه بعد ذلك تمسيةُ أحدٍ حتى وإن كان النبيَ صلى الله عليه وسلم؛ لأن مقصودَه التمكن من الطعام قبل التسمية؛ وقد تم له؛ ولم يكن قد بدأ النبي صلى الله عليه وسلم الطعام بعدُ[1]!!.

أيها الداعية: ما أكثر أن يدفع الشيطان في سبيلك المُنغِّصات، والمكدِّرات، والبلايا، والمصائب، بل والأمراض، فتجد الأمور المُستقِرَّة في حياتك الشخصية والدعوية قد تبعثرت وانحل عِقدُ نظامها، وتجد الأمرَ من أمور الآخرة قد عزمتَ وعقدتَّ النيةَ على إنجازه؛ فتُصرف عنه، إما: بمرضِ حبيب[2]، أو بزيارة قريب لك في بيتك!، أو بتسلُّط جارٍ عليك أو على أولادك، أو بهمٍّ أو غمٍّ أو حزنٍ، أو بتضخيم مشكلة هي من اليُسر والهوان واللين أقرب منها إلى ما وصلتْ إليه!!، أو بكآبةِ منظرٍ سيءٍ في أهلك وأولادك، أو برؤيا منامية يُحزِنك فيها فتنشغل بها وقتا طويلاً[3]، أو بحديثٍ يُنقل إليك؛ وقد قِيل عنك!!، أو بحديث نفسٍ يجرُّك فيه جراً لأحداث قد تتخيلها على الزمان الآتي البعيد؛ فتنشغل بها شُغْلاً يُذهبُ عليك وقتَك وعقلَك وصلاتَك.

لا يتملكنَّك العجب من هذا .. فو الله الذي لا إله غيره؛ كثيراً ما جرَّبت هذا بنفسي؛ فما إنْ أشرع في أمر من أمور الخير لا سيَّما الجانب العلمي أو الدعوي إلا ويحدث لي شيءٌ من هذا الذي حدثتُك عنه، وزاد إيماني بذلك عندما حدَّثت أحد إخواني بهذا الأمر؛ فقال: فعلاً عندما شرعت في برنامج عِلميٍ تعبت زوجتي تعباً شديدا؛ فانصرفت، ولمَّا تمَّ شفاؤها والحمد لله عُدتُّ لهذا البرنامج ـ وهذا بعد عشرة أيام ـ عاودها التعب مرة ثانية!!.

---

(1) بالرجوع إلى شرح الحديث وجدتُّ النووي رحمه الله تعالى نصَّ على أنهم إذا كانوا جماعة وسمَّى جماعة منهم ونسيَ أحدهم فلا يضر ذلك أما إن كان واحداً فلم يُسمِّ الله تعالى على الطعام فقد حصل مُراد الشيطان من ذلك.

(2) وليس هذا من قبيل التكهنات؛ ألم يقل النبي صلى الله عليه وسلم؛ عن الاستحاضة وهي نوع مرض: (ركضةُ شيطان)، وما ذاك إلا ليُفسد على المرأة طهارتها وعبادتها. يُنظر سنن أبي داود ك: (الطهارة)، باب: (من قال إذا أقبلت الحيضة تدع الصلاة)، برقم: (287).

(3) والرؤيا ثلاثة؛ منها: (تحزين من الشيطان). ينظر صحيح مسلم؛ ك: (الرؤيا)، برقم: (2263)

ولِم لا يكون هذا؟ .. وأنت تعلمُ أن العالِمَ الواحد أشدُّ على الشيطان من ألف عابد... أخي إذا كان هذا من شيطان الجنِّ. فإن شيطان الإنس؛ لا يقل خُطورة عنه: فقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ {الأنفال: 30} ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَاۖ﴾ {الإسراء: 76}. قال الطاهر بن عاشور: «والِاسْتِفْزازُ: طَلَبُ الفَزِّ، وهو الخِفَّةُ والِانْزِعاجُ، وتَرْكُ التَّثاقُلِ. والسِّينُ والتّاءُ فِيهِ لِلْجَعْلِ النّاشِئِ عَنْ شِدَّةِ الطَّلَبِ، والحَثِّ الَّذِي هو أصْلُ مَعْنى السِّينِ والتّاءِ، أيِ اسْتَخِفَّهم وأزْعِجْهم .. ـ ثم قال بعدُ ـ .. والِاسْتِفْزازُ: الحَمْلُ عَلى التَّرَحُّلِ، وهو اسْتِفْعالٌ مِن (فَزَّ) بِمَعْنى بارَحَ المَكانَ، أيْ كادُوا أنْ يَسْعَوْا أنْ تَكُونَ فازًّا، أيْ خارِجًا مِن مَكَّةَ، .. والمَعْنى: كادُوا أنْ يُخْرِجُوكَ مِن بَلَدِكَ، وذَلِكَ بِأنْ هَمُّوا بِأنْ يُخْرِجُوهُ كُرْهًا ثُمَّ صَرَفَهُمُ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ لِيَكُونَ خُرُوجُهُ بِغَيْرِ إكْراهٍ حِينَ خَرَجَ مُهاجِرًا عَنْ غَيْرِ عِلْمٍ مِنهم؛ لِأنَّهُمُ ارْتَأوْا بَعْدَ زَمانٍ أنْ يُبْقُوهُ بَيْنَهم حَتّى يَقْتُلُوهُ .. وقَوْلُهُ: "لِيُخْرِجُوكَ" تَعْلِيلٌ لِلِاسْتِفْزازِ، أيِ اسْتِفْزازًا لِقَصْدِ الإخْراجِ.

والمُرادُ بِالإخْراجِ: مُفارَقَةُ المَكانِ دُونَ رُجُوعٍ، وبِهَذا الِاعْتِبارِ جُعِلَ عِلَّةً لِلِاسْتِفْزازِ؛ لِأنَّ الِاسْتِفْزازَ أعَمُّ مِنَ الإخْراجِ»[1].

فهؤلاء الشياطين الذين هم في صورة إنس؛ كان من هدفهم إخراج النبي صلى الله عليه وسلم من موطنه **(المكيِّ؛ أو المدنيّ)**، فأثرُ دعوته قد ظهر، ونور هديه قد بدد ظلمات الشرك والجاهلية. فكان إفكهم إما أن يقتلوه أو يُقيِّدوه أو يُخرجوه من بين أظهرهم.

وإذا كان أمرهم في مكة معروفاً من الاضهادات، والتنكيل، بالنبي صلى الله عليه وسلم وأتباعه، فكان مِن حِيَل هؤلاء الشياطين **في المدنية**؛ أن زيَّن اليهودُ زوراً وبهتانا حِيلتهم تلك في إخراجه فقالوا: «يا أبا القاسمِ إن كنْتَ صادقًا فالحقْ بالشامِ فإنَّها أرضُ المحشرِ وأرضُ الأنبياءِ، فغَزا تبوكَ لا يريدُ إلا الشامَ، فلمّا بلغَ تبوكَ أنزلَ اللهُ

(1) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور تفسير الآيات من سورة الإسراء: (64،76) بتصرف.

تعالى الآياتِ من سورةِ بَني إسرائيلَ وَإِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْها الآيةُ»[1].

فمنذ متى وهذا النُّصح اليهودي يُسْدَى إلى المسلمين!؟ ومنذ متى وقتلة الأنبياء الذين يودُّون الخلود في الدنيا ولا يموتوا؛ يقولون: "الْحق بالشام فهي أرض المحشر وأرض الأنبياء" ومهاجر أبيك إبراهيم؟ بل وزادوا في نُصحهم وتزيينهم!!: أنْ علَّقوا إيمانَهم به صلى الله عليه وسلم على هجرته تلك .. سبحان الله!!

زِدْ على ذلك أخي وحبيبي خَبرَ أبي عامر الراهب؛ ذِي الشرفِ في قومه الخزرج، المتنصِّرِ في الجاهلية والمُتعبِّدِ فيها، يُبارز النبي صلى الله عليه وسلم بالعداوة؛ فيأخذ في تجميع أعداء الإسلام من مشركي العرب وقريش ويهود المدينة والمنافقين ومن يمالئونه على ذلك حتى ذهب إلى مَلك الروم يستنصره على النبي صلى الله عليه وسلم .. فكان ما كان من أمر غزوة أحد ... **ثم كان من مكائده وخبائثه أنه أمر قومه أن يقوموا ببناء مسجد مجاورٍ لمسجد قباء يكون مرصداً ومعقلاً له ولهم**؛ يقدم على قومه مَن يقدم عليهم بكتبه ورسائله، وطلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يُصلِّي فيه تثبيتاً وتقريراً؛ وقد زعموا أنه للضعفاء والعجزة وأهل العِلَّة في الليلة الشاتية!!، ولكن الله سلَّم فلم يُصل النبي صلى الله عليه وسلم فيه إذْ خرج إلى تبوك، ثم جاءه الوحي بهدمه مَرجِعه منها (وهذه باختصار: قصةُ مسجد الضرار)[2].

فانظر رحمني الله وإياك: أليس المسجدُ في هذا الأثر هو وسيلة هذا العدو!؟ بلى، هل كان عدوَّاً جاهلاً، وهل كان بمفرده، وهل كان مسجدُهم هذا في منْأى عن مدينة النبي صلى الله عليه وسلم؟ كل هذا جوابه: لا.

(1) فتح الباري بشرح صحيح البخاري؛ ج7، ص: (715).

(2) انظر تفاصيلها في تفسير ابن كثير في تفسير آيات سورة التوبة: الآيات: (107، 108).

كم من المواطن التي نظنّها منابرَ للدعوة وليست إلا كمسجد الضرار، وكم من المناسبات التي نُدعى إليها وليست إلا إقراراً لمُنكرٍ أو تثبيتاً لباطلٍ، وكم من صاحب شرفٍ ومكانة، ومُتعبِّدٍ متنسِّكٍ وعلى عِلمٍ؛ لكنه كأبي عامر فلم يزدد بعلمه وعبادته إلا كفراً وحسداً وبغضا وعداوة للإسلام والمسلمين.

فمنذ متى وأهل النفاق وأهل الشرك والكفر والبغي يريدون صلاحا أو إصلاحا لحال الدعوة أو الداعية؟ وهل ينشدون في نُصحهم هذا؛ الأماكنَ التي تكون الدعوة فيها أوفق وأفضل وأثمر؛ أم أنَّهم يُريدون فقط اجتثاث الداعية من موقعه ومن مسجده فوجوده فيه أصبح تهديدا لهم؟. أم أنَّه وكما قال أحمد شوقي عليه رحمة الله تعالى؛ في وصف حيلة ماكرة قام بها ثعلبٌ ـ وما أكثرهم في هذا الزمان ـ يستدرج دِيكاً ليؤدِّيَ عمله في رفع الأذان كي يأكله!!:

برز الثعلب يوماً ... في شعار الواعظينا

فَمَشى في الأَرضِ ... يَهذي وَيَسُبُّ الماكِرينا

فَأَجابَ الديكُ عُذراً ... يا أَضَلَّ المُهتَدينا

بَلِّغِ الثَعْلَبَ عَنّي ... وعَن جدودي الصالِحينا

أَنَّهُم قالوا وَخَيرُ ال ... قَولِ قَولُ العارِفينا

مُخطِئٌ مَن ظَنَّ يَوماً ... أَنَّ لِلثَعلَبِ دينا

أخي الداعية .. إن الشيطان قد أقبل عليك بخيله وجنوده وعتاده وكلِّ ما يملك، بل ووسوس وزيَّن ومَنَّاك بأمانيّ، ودفع في طريقك كلَّ ما استطاع من الشرِّ الظاهر بل ومن الخير الذي هو في باطنه شرٌّ؛ فلابد وأن تتفطَّن لما يُلقيه ويُلميه ويُوحي به إلى أتباعه وأوليائه؛ فالله قال: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾ {الأنعام: 121}، ولا أُراك تنجو إلا أن تعتصم بالله تعالى؛ وأن تدعوَه وتبتهل إليه في الدعاء

ابتهال الضعيف المسكين الفقير الحيران، وأن تسأله نُوراً يكشف لك دهاليز هذا العدو، فكان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: (اللهمَّ اجعلْ في قلبي نورًا، وفي لساني نورًا، وفي بصري نورًا، وفي سمعي نورًا، وعن يميني نورًا، وعن يساري نورًا، ومن فوقي نورًا، ومن تحتي نورًا، ومن أمامي نورًا، ومن خَلْفي نورًا، واجعلْ لي في نفسي نورًا، وأَعظِمْ لي نورًا)[1]. فلا غِنى لنا عن ذلك، فمن لم يجعل الله له نورا فما له من نور.

ولابد للداعية إذا ما حدث منه أمْرٌ تأباه النفوس وكان لابد منه فليُبيِّن مُرادَه وسببَ فِعله حتى لا يُساء به الظن؛ فهذه جارية صغيرة السِّنِّ أخذ يدها عن الأكل!. وهذا جائع وربما كان في مخمصةٍ!، وهذه نصيحة كي يكون في أرض الأنبياء، وفي أرض مقدَّسة وهي أرض المحشر، بل ويزداد أتباعه فيها وهم اليهود، وكذبوا!!. وهذا مسجدٌ فلماذا لم تُصلّ؟ فتأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز في عُرْف أُصولييننا.

ثامناً: مقارنة بين ضَحيَّتين (قديما وحديثاً)

الدعوة إلى الله تعالى: سبيل سار عليه الأنبياء والصالحون والشهداء؛ وبذلوا في سبيله كلَّ غالٍ ورخيص، فبذلوا نفوسَهم وأموالَهم وأوقاتَهم وراحتَهم وشهواتَهم طيبةً بذلك نفوسهُم، ومطمئنةً لذلك أفئدتُهم، فما ضنُّوا بشيء على دين الله تعالى وما بخِلوا، ابتغاء مرضاة الله تعالى ورضوانه وتصديقا بوعده وما أعدَّه لهم في الآخرة.

ولكن إذا ما عزَّ الناصحون المخلصون فكانوا قلَّةً قليلة مُستضعفة؛ فينبغي أن نُوليها اهتماما بالغاً وعِناية فائقةً؛ فإنَّما هي رأس مالنا، ومَعين أرواحنا، فإذا فُقِدوا رُفِع العلم؛ فعمَّ الجهلُ، وخبا نُور النبوة والرسالة، وبدأ الظلام في الإطباق شيئا فشيئا حتى يسود فيكون حالكاً كالليل الأسود البهيم، فيكون الشرك والكفر والنفاق.

(1) أخرجه البخاري ك: (الدعوات)، باب: (الدعاء إذا انتبه بالليل)، برقم: (6316) ومسلم؛ ك: (المساجد ومواضع الصلاة)، باب: (الدعاء في صلاة الليل)، برقم: (763).

فكان لِزاما على الداعية أن يعلم قدْرَه، ومكانتَه، وتأثيرَه والتفافَ الناسِ حولَه وتعلُّقَ القلوبِ به، لأنه حِينها سيكون أمَّة وليس إماما فحسب، ستحيا بحياته القلوب والأبدان وبموته ستموت، فليس لِنفسه يعيش بل لأمته، فعليه أن يستشعِر حقوقَ الناس في بدنه، وفي أوقاته، وفي بيته، وفي عمله. فقد يُطلب منك بذلُ نفسك راضيا بها ويكون واجباً عليك، وقد يُطلب مِنك الاستبقاء أو الحفاظ عليها ليس لأجلها بل لأجل أمَّةٍ علَّقتْ آمالها بك وعليك بعد الله عز وجل؛ فها هو أحمد بن حنبل إمام أهل السنة يثبتُ في موقف تطيش لأجله الأحلام وإنما كان لأجل دينه وعقيدته إذْ لم يكن في الساحة من يقوم به سواه وقد مات رِفاقُه كذلك؛ وذلك في فِتنة القول المعتزلي الآثم بخلق القرآن، وقبلَه الصدِّيق الأكبر والصاحب للنبي المختار صلى الله عليه وسلم بتنصيص القرآن على صُحبته أبو بكر رضي الله تعالى عنه؛ يقف موقفاً يتأخر عنه الأكابر حتى الفاروق عمر بن الخطاب وقد كان يفرُّ منه الشيطان!!؛ وذلك في إنفاذ بعث أسامة وكذلك في حروب أهل الرِّدةِ. وغيرهما كثير (كثَّر الله تعالى سوادَهم وجعلهم غيظاً لأعدائه).

أخي: لم أتطرق بعْدُ لضحيتيَّ؛ .. ولكنَّي أردت أنْ أُشوِّقك لما أقول، فها هي شمعةٌ أستلُّ شعاعَها من هذا المعنى السابق، شمعة تُقارن بين نُموذجين؛ بل ضَحيِّتيْن، وسأجعل الحُكم والقرار الذي تَرى نفسك فيه إليك؛ لا إليَّ، فأنت بشأنك خبير وبموقعك الدعويِّ بصير.

الضحية الأولى: غلام أصحاب الأخدود.

هي قصةٌ لا يغيبُ خبرُها ولا شأنُها عن الدعاة، فهي في آي الذكر الحكيم؛ إذ ورد بعضُ خبرها في سورة البروج؛ وجاءتْ كذلك مُفصلةً في كتب السنَّة الصحية عن النبي صلى الله عليه وسلم[1]. فهي: تحْكي شابَّاً ـ اجعله داعيةً؛ كأنَّك هو ـ بلغ من

(1) أخرجها مُسلم في صحيحه؛ ك: (الزهد والرقائق)، باب: (قصة أصحاب الأخدود)، برقم: (3005)، وعند الترمذي، برقم: (3340)، وعند أحمد برقم: (23931).

شأنه وأمره وذِكره ولهج الناس بخبره؛ أن قال له مُعلِّمُه: (أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ اليومَ أَفْضَلُ مِنِّي، قدْ بَلَغَ مِن أَمْرِكَ ما أَرَى، وإنَّكَ سَتُبْتَلَى، فَإِنِ ابْتُلِيتَ فلا تَدُلَّ عَلَيَّ) لأنَّها سنة في الصالحين والمُصلحين، وبلغ من شأنه كذلك إبراء الأكمه والأبرص ومُداواة المرضى بإذن الله تعالى، حتى كان من بين هؤلاء المرضى جليسُ الملك، ثم أخذت دعوة التوحيد وانتشار الإيمان تُحيط بالملك وجلسائه من كلِّ حدب وصوب، وفي كل يوم يزداد تعلُّق الناس به، ولا يغيب عن ذهنك هنا أن الجماهير أصبحت متلهفةً ومُتشوقةً لخبره وما الذي سيؤول إليه الأمر بين الملك وهذا الغلام؛ ـ عفوا: بين الحق والباطل ـ؛ فيُقرر الملك قتلَ الراهب الذي علَّم الغلام، وقتلَ جليسه؛ فيُقتلان، وكلُّ هذا في محاولة لتجفيف منابع الحق ثم لأجل الخلاص من هذا الغلام؛ ويُحاول في قتله مرة يتلوها أخرى يتلوها أخرى ـ أرجوا أن لا يغيب عنك حال المدعوِّين هنا!! ـ ثم يقول له الغلام في ثبات المُوقِن: (إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به ..؟) ففعل ما أمره به فقتله؛ فقال الناس جميعاً: (آمنّا بالله رب الغلام). أرجوا أن لا تُغادر هذا الموطن إلا وقد وضعتَ في عقلك أنه غلامٌ قد جيئ به ليكون عونا لساحر الملك!!؛ فسبحان من بيده تدابير الأمور وتصاريف القلوب.

فإذا ما وصل الأمر بالداعية إلى أن يصير حاله كحال هذا الغلام أو قريبٍ منه؛ فيرى مدعوُوه الحقَّ الذي معه كالشمس الناصعة الساطعة، لا يرون فيه غبشا ولا شبهةً ولا مكراً ولا منفعةً يعود أمرُها إلى شخص الداعية ذاته، ويروْن بطلان الباطل كذلك فلا يكون عندهم التباسٌ بين هذا وذاك، بين درجات الحق ودركات الباطل. عند ذلك سيُضحِي الناس بأبدانهم وأموالهم وأرواحهم وفلذات أكبادِهم حِسبةً لله تعالى لا لأجلك أنت فما أنت في هذه الحال إلا نذير وبشير قد بعثك الله تعالى إليهم.

حسبك: لا أطلب منك فِعل الكرامات أو ادعاءها ولا أن تكون طبيبا أو أن تسير على الماء كما سار هو أو يسقط أعداؤك أمام عينيك من على جبل حتى يكون الحال بينك وبينه سواء فليس بنبيٍّ ولستَ كذلك؛ وإنما أودُّ أن تعلم أنه إذا ما كان هناك فُسطاطان أو فريقان ولا يلتبس أمرهما على أحدٍ؛ لا على عامّيٍ ولا قارئٍ ولا

على فقيه أو مُقلِّدٍ .. (عندها أقول: إن كان أمرك كذلك .. فنِعم الضحيةُ أنت)!! وإلا فقد غرسنا غرساً؛ فكان عالماً مُربياً فقيها .. ولكن: قد حصده جاهلٌ ماكرٌ خبيث عدوٌّ لله تعالى ولأوليائه. فتفطَّن لموطن قدميْك.

الضحية الثانية: عمر المختار.

إنه شيخ المجاهدين في العصر الحديث بل وأسد الصحراء الذي لم يكل أو يَمَل من جهاد الكافرين المعتدين؛ يُقاتل أعداء الله تعالى بكل إمكانياته، ويُكبِّدهم الخسائر تلو الخسائر في الأرواح والأموال ...

لم ولن أقف مع سيرة هذا المُجاهد إلا من زاوية واحدة تخصُّ الداعية ومدعوِّيه؛ وهي:

بعدما قررت حكومة الاحتلال الإيطالي إعدامَه صباح يوم الأربعاء 16 سبتمبر 1931م؛ قرروا أمراً غريباً وهو: قتلَ شيءٍ آخر أعزَّ وأعلى وأغلى وأثمن من هذا المجاهد وهو وأْد واستئصال النخوة والغيرة والحمية الإسلامية عن طريق إجبار أعيان بني غازي، وعددٍ كبيرٍ من الأهالي من كافة الجهات والأماكن فاجتمع أكثر من **عشرين ألفاً من الليبيين** كيْ يشهدوا ذبح هذه الضحية التي لطالما دافعت عنهم وقامت على تعليمهم ورفع الجهل عنهم، ويا لَلأسف ضنُّوا هم بأرواحهم عنه؛ عفوا: بل عن مبادئهم فلم يُدافعوا عنها (وعنه) وأظنُّ شيخ المجاهدين كان ينتظر منهم ما كان ينتظره سلفُه غلامُ أصحاب الأخدود؛ ولكنه ذهب إلى ربِّه تبارك وتعالى نحسبه شهيدا ولا نُزكي على الله تعالى أحدا. وما كان ما ظنناه في حُسبانه؛ فلم يخرج الاحتلال الإيطالي إلا بعد عشر سنوات أو يزيد ليتسلم مقاليدَ البلاد مُحتلٌّ آخر وهو احتلال الحلفاء في أطوار الحرب العالمية الثانية.

ألا يعلم هذا الجمعُ ـ العشرون ألفاً ـ قولَ النبي صلى الله عليه وسلم: (خيرُ الصحابةِ أربعةٌ وخيرُ السرايا أربعمائةٍ وخيرُ الجيوشِ أربعةُ آلافٍ ولا يُغْلَبُ اثنا عشرَ

ألفًا من قِلَّةٍ)[1]. بهذا الاستسلام وبهذا التخاذل يُسلَّم الأسد إلى الضّباع والذئاب ولم يتحرك ساكن اللهم إلا بعض الزفرات والآهات والدموع التي سرعان ما جفَّت في مآقيها قبل أن تسيل!!.

أخي إذا كان مدعووك كذلك .. فمن الحكمة أن تكون في مأمن وفي موطن تغرس فيه غرساً؛ ترعاه وتقوم على إصلاحه وتربيته؛ وتُثمِّره وتنمِّيه؛ وعندها لن تكون أنت بمفردك عُودا أو شوكة واحدة؛ بل أعواداً وأشواكاً تُغَصُّ بها حلوقهم وصدورهم.

تاسعاً: بئس الفعلُ إنِ اتخذت دعوتَك سُلما لدنيا؛ (لك أو لغيرك).

يُصيب المرءَ الأسفُ ويعلو وجهَه الغضبُ؛ أن يرى داعيةً إلى الله تعالى يتملَّقُ الوصول إلى أصحاب الجاه أو السلطان أو النفوذ المادي مُتَّخِذا دعوتَه في سبيل ذلك سُلما يصعد على درجاته إلى الهاوية!!؛ فكثير من الدُّعاة إلا من رحم الله تعالى يُجهد نفسه إجهادا كبيراً في التَّعرُّف على مدعوِّيه ليس من قبيل العمل الدعوي أو الدعوة الفردية لأشخاصهم فحسب؛ بل لأغراض دُنيوية سيحتاجها منهم له أو لأحد أقربائه أو معارفه، ففي مدعويه من هو طبيب في مُستشفى، أو في عيادة لعلاج المرضى، وفيهم من هو في أجهزة الدولة الأمنية أو السياسية، أو في الجهات المرموقة عند الكثيرين، أو في مصنع من المصانع المهمة أو فيهم مديرٌ لبنك من البنوك أو لشركة من الشركات العامة أو الخاصة أو .. أو .. إلخ. ويفرح فرحاً شديدا إذا ما ظفر برقم لهاتف من الهواتف المهمَّة لهذه الشخصيات أو ما يُضاهيها. وذلك لأن رُقعة معارفه قد اتسعت .. وأموره التي يُريدها فيما بعد قد سهُل أمرها أو هكذا ظنّ .. وهيهات؛ فمن بذل دينَه لدنيا غيره هان عليه؛ وقد قال عبد الله مسعود رضي الله عنه: «لو أن أهل العلم صانوا العلم ووضعوه عند أهله؛ سادوا به أهل زمانهم، ولكنهم بذلوه لأهل الدنيا لينالوا من دُنياهم فهانوا على أهلها ..»[2].

(1) أخرجه أبو داود: (2611) باختلاف يسير، والترمذي: (1555)، وأحمد: (2682) واللفظ لهما.

(2) أخلاق أهل القرآن للآجري؛ ص: (130، 131) ط: دار الكتب العلمية تحقيق الشيخ محمد عمرو عبد اللطيف.

وقد كُنت أطالع مع غيري كتاباً للآجري رحمه الله تعالى وسَمَه بـ: (أخلاق العلماء) ذكر فيه صفة من الصفات التي يُعرف بها العالمُ إذا ما عُرِف بالعلم بين الناس؛ فقال: «أنه لا يطلب بعلمه شرفَ منزلة عند الملوك ولا يحمله إليهم، صائنٌ للعلم إلا عن أهله ولا يأخذ على العلم ثمنا. **ولا يستقضي به الحوائج**»[1] وله رحمه الله تعالى كتاب آخر؛ أسْماه: (أخلاق أهل القرآن) قال فيه بسنده إلى الفضيل بن عياض: «ينبغي لحامل القرآن أن لا يكون له حاجة إلى أحد من الخلق؛ إلى خليفة فمن دونه، وينبغي أن تكون حوائج الخلق إليه»، وقال الآجري بعدها بقليل: «فمن كانت هذه أخلاقه قد انتفع به من يقرأ عليهم، أقول: إنه ينبغي لمن كان يقرأ القرآن لله أن يصون نفسه عن استقضاء الحوائج ممن يقرأ عليه القرآن وأن لا يتسخدمه ولا يُكلِّفه حاجة يقوم بها، وأختار إذا عرضت له حاجة أن يُكلِّفها لمن لا يقرأ عليه، وأحب أن يصون القرآن عن أن يُقضى له به الحوائج، **فإذا عرضت له حاجة سأل مولاه الكريمَ قضاءها** فإذا ابتدأه أحد من إخوانه من غير مسألة منه فقضاها شكر الله تعالى إذ صانه عن المسألة والتذلل لأهل الدنيا إذا سهل له قضاءها، ثم يشكر الله أن أجرى له ذلك على يديه فإن هذا واجب عليه؛ وقد رُويت في ما ذكرتُ أخبارٌ تدلُّ على ما قلتُ وأنا أذكرها ليزداد الناظر في كتابنا بصيرة إن شاء الله ..»[2]. وهكذا أخلاق العلماء وأهل الدين والأثر؛ لا يتخذون ما أنعم الله به عليهم من رحمته مطيَّةً ووسيلةً يتوصلون بها إلى أغراض زائلة ودُنيا زائفة.

ولكن .. هلُمَّ أخي وحبيبي إلى جولة في سياق النص الشرعي نستلهم منها طبيعة الأجر الدُّنيوي أو المُقابل المادي الذي لا ينبغي أن يسعى إليه الدعاة من دعوتهم ووعظهم[3].

---

(1) يُنظر هذا الكتاب: ص: (51)، ط: البحوث العلمية والإفتاء. السعودية 1398هـ.

(2) ينظر هذا الكتاب؛ ص: (103، 122- 132).

(3) لست في هذا الصدد متكلما عن الرواتب التي يتقاضها القائمون على أعمال القُربات من موظفي الدولة (من الإمامة أو الخطابة أو ما شابه)؛ ولكن الحديث في أمر زائد عليه. ومن الأبحاث التي تناولت هذه القضية (أخذ المال على أعمال القرب؛ عادل شاهين ؛ ط: دار كنوز إشبيليا)

فقد: (اسْتَعْمَلَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ رَجُلًا مِنَ الأسْدِ، يُقَالُ له: ابنُ اللُّتْبِيَّةِ، علَى الصَّدَقَةِ، فَلَمَّا قَدِمَ قالَ: هذا لَكُمْ، وَهذا لِي، أُهْدِيَ لِي، قالَ: فَقَامَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ علَى المِنْبَرِ، فَحَمِدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عليه، وَقالَ: ما بَالُ عَامِلٍ أَبْعَثُهُ، فيَقولُ: هذا لَكُمْ، وَهذا أُهْدِيَ لِي، أَفلا قَعَدَ في بَيْتِ أَبِيهِ، أَوْ في بَيْتِ أُمِّهِ، حتَّى يَنْظُرَ أَيُهْدَى إلَيْهِ أَمْ لَا؟ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيَدِهِ، لا يَنَالُ أَحَدٌ مِنكُم منها شيئًا إلَّا جَاءَ به يَومَ القِيَامَةِ يَحْمِلُهُ علَى عُنُقِهِ بَعِيرٌ له رُغَاءٌ، أَوْ بَقَرَةٌ لَهَا خُوَارٌ، أَوْ شَاةٌ تَيْعِرُ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حتَّى رَأَيْنَا عُفْرَتَيْ إبْطَيْهِ، ثُمَّ قالَ: اللَّهُمَّ، هلْ بَلَّغْتُ؟ مَرَّتَيْنِ)[1]. هذا الحديث ميزان ينبغي أن تُوزن به الأعمال التي تجرُّ لصاحبها نفعاً؛ وهي أعمال الولايات؛ لا سيَّما الولايات التي منبعها وليُّ أمر المُسلمين[2]. وقد ذكر ابن بطال رحمه الله تعالى الأوجه المُحتملة في سبب هذا الرفض النبوي لقول هذا الصحابي؛ فقال: «دل الحديث على أن الهدية للعامل تكون لشكر معروفه، أو للتحبب إليه، أو في وضعه من الحق، فأشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى أنه فيما يُهدى له من ذلك كأحد المسلمين لا فضل له عليهم فيه وأنه لا يجوز الاستئثار به»[3]. وهذا في عمل الولايات التي كما ذكرت منبعها ولي أمر المسلمين؛ فما بالنا إذا كانت هذه الولاية في طبيعتها لها نفوذ وسلطان وإمارةٌ بغير تأميرٍ أو تولية من أحد، فهذا هو حال الدعاة والمُفتين والموقِّعين عن رب العالمين، فقد قال الله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم **مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ** أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ {يونس: 68}، ﴿أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ﴾ {الصافات: 156} وقال عن حجة المرسلين الرِّسالية عموما: ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا **فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ** مُّبِينٖ قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ **وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ** وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ

(1) أخرجه البخاري (7174)، ومسلم (1832).

(2) والولاية هي: «سلطة شرعية لشخص في إدارة شأن من الشؤون، وتنفيذ إرادته فيه على الغير من فرد أو جماعة» يُنظر: (أهل الذمة والولايات العامة في الفقه الإسلامي)، ص: (27). نمر محمد النمر "المكتبة الإسلامية عمان".

(3) فتح الباري، ج12، ص: (364).

ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ {إبراهيم: 10، 11}، وجاء في تفسير كثير من أهل العلم أن أُولي الأمر في قول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ {النساء: 59}. هم أهل الفقه والدين[1].

فحيثما كان وضعك في هذا العمل الشريف المنيف؛ سواءً كان من قبيل ولي الأمر أو تولية دينيةً من الله تعالى أم من ولي الأمر فإنما هي مكانة ومنزلة يصح أن يُقال عنها: (أفلا قَعَدَ في بَيْتِ أَبِيهِ، أَوْ في بَيْتِ أُمِّهِ، حتَّى يَنْظُرَ أَيُهْدَى إِلَيْهِ أَمْ لَا؟). وقد تضافرتْ نصوص الوحي في ذِكر أحوال الأنبياء وعدم سؤالهم الأجر من أقوامهم على دعوتهم؛ ففي ذلك إرهاق ونفور من المدعوين عن الدعوة وعدم الاستجابة لها، وكذلك فيه إساءة الظن بالداعية فهو يسعى في مصلحته لا في مصلحة مدعوِّيه؛ فقد قال الله تعالى على لسان أنبيائه ورُسله:

﴿لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ﴾ فقد قالها محمد صلى الله عليه وسلم {الأنعام:90}، وقالها هود عليه السلام {هود:51}، ومُرسَلوا أهل القرية قال عنهم الذي جاء من أقصى المدينة واصفاً حالَهم: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ {يس: 21}. وفي تأكيد لهذا المعنى ووضوحه عن جملة الأنبياء؛ جاء قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ على لسان: (نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب) عليهم جميعا الصلاة والسلام. وقولهم هذا فيه نفيٌ للأجر بكل صوره؛ مالاً أو جاهاً، أو خِدمة أو أي شيء يُمكن أن يُطلق عليه "أجر". وجاء كذلك عن نبي الله تعالى نوح عليه السلام نفيُ سؤال الأجر المالي ـ فهو أبرز صوره ـ فقال تعالى عنه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ {هود:29}.

ولأن النفوس مجبولةٌ على حُبِّ المال واكتنازه؛ فقد يكون إرهاق الداعية لمدعوية إن أخذ منهم مالاً أو أجرا على دعوته؛ صارفاً لهم عن قبولها؛ ولذلك جاء الاستفهام الاستنكاري بقوله تعالى: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ﴾ {الطور:40، القلم:

(1) يُنظر: تفسير ابن كثير في هذا الموضع.

46} فإن الله سبحانه وتعالى بعد:« أنْ أبْطَلَ وسائِلَ اكْتِسابِ العِلْمِ بِما زَعَمُوهُ عادَ إلى إبْطالِ الدَّواعِي الَّتِي تَحْمِلُهم عَلى الإعْراضِ عَنْ دَعْوَةِ الرَّسُول صلى الله عليه وسلم ... والمَعْنى: أنَّكَ ما كَلَّفْتَهم شَيْئًا يُعْطُونَهُ إيّاكَ فَيَكُونَ ذَلِكَ سَبَبًا لِإعْراضِهِمْ عَنْكَ تَخَلُّصًا مِن أداءِ ما يُطْلَبُ مِنهم، أيِ انْتَفى عُذْرُ إعْراضِهِمْ عَنْ دَعْوَتِكَ»[1].

ولأجل هذا كان أمْرُ إعراضِ المدعوين عن الداعية ودعوته هيِّناً ـ أوْ هكذا ينبغي أن يكون ـ فلا تذهب نفس الداعية حسرات؛ فإنما هو مُبلِّغ عن الله تعالى أولاً، ولا يُريد منهم أجرا ثانياً؛ وثالثاً: ما عليه إلا أن يمتثل ما يأمرهم به وفقط: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ {يونس:72}. ولعلّ (مِّنْ) في هذه الآية هي الزائدة في عرف النحاة، الدالة على تأكيد المعنى ونفي الأجر ولو في أدنى صورة من صُوره.

«فإن أعرضتم عنِّي وابتعدتم؛ فأنتم وشأنكم، فما كُنت أسألكم أجراً على الهداية؛ فينقص أجري بتوليكم "إن أجري إلا على الله" ولن يُزحزِحني هذا عن عقيدتي؛ فقد أُمرتُ أن أسلم نفسي كلَّها لله "وأُمِرت أن أكون من المسلمين" وأنا عندما أمرت به من المُسلمين ـ وكذلك ـ فثُقل الغرامة التي تطلبها منهم أجراً على الهداية هو الذي يدفعهم إلى الإعراض والتكذيب، ويجعلهم يؤثرون ذلك المصير البشع؛ على فداحة ما يؤدون»[2]

وكذلك لا يتكلف الداعية في دعوته لأجل الأجر الدُّنيوي ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ {ص:86}، «لِأنَّ المُتَكَلِّفَ شَيْئًا إنَّما يَطْلُبُ مِن تَكَلُّفِهِ نَفْعًا»[3]

(1) التحرير والتنوير؛ ج27، ص: (75).

(2) في ظلال القرآن سيد قطب؛ ج2، ص: (1812)، وكذلك موضع سورة القلم؛ ج6 ص: (3669).

(3) التحرير والتنوج23، ص: (309).

وقد جاء الاستثناء في قضية سؤال الأجر على الدعوة في أمر آخر وهو قول الله تعالى عن رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ {الشورى: 23}. وقد ذكر ابن جرير الطبري بعض الوجوه التفسيرية لهذه الجملة ثم قال: « وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب، وأشبهها بظاهر التنزيل قول من قال؛ معناه: قل لا أسألكم عليه أجرا يا معشر قريش، إلا أن تودّوني في قرابتي منكم، وتصلوا الرحم التي بيني وبينكم ... وقوله: "إلا" في هذا الموضع استثناء منقطع. ومعنى الكلام: قل لا أسألكم عليه أجرا، لكني أسألكم المودّة في القُربى»؛ ويوضحه أكثر صاحب أضواء البيان فيقول عليه رحمة الله تعالى: «أيْ إلّا أنْ تَوَدُّونِي في قَرابَتِي الَّتِي بَيْنِي وبَيْنَكم فَتَكُفُّوا عَنِّي أذاكم وتَمْنَعُونِي مِن أذى النّاسِ، كَما تَمْنَعُونَ كُلَّ مَن بَيْنَكم وبَيْنَهُ مِثْلُ قَرابَتِي مِنكم. وَكانَ صلى الله عليه وسلم لَهُ في كُلِّ بَطْنٍ مِن قُرَيْشٍ رَحِمٌ، **فَهَذا الَّذِي سَألَهم لَيْسَ بِأجْرٍ عَلى التَّبْلِيغِ،** لِأنَّهُ مَبْذُولٌ لِكُلِّ أحَدٍ لِأنَّ كُلَّ أحَدٍ يَوَدُّهُ أهْلُ قَرابَتِهِ ويَنْتَصِرُونَ لَهُ مِن أذى النّاسِ، وقَدْ فَعَلَ لَهُ ذَلِكَ أبُو طالِبٍ، ولَمْ يَكُنْ أجْرًا عَلى التَّبْلِيغِ، لِأنَّهُ لَمْ يُؤْمِن **وإذا كانَ لا يَسْألُ أجْرًا إلّا هَذا الَّذِي لَيْسَ بِأجْرٍ، تَحَقَّقَ أنَّهُ لا يَسْألُ أجْرًا** .. وَمِثْلُ هَذا يُسَمِّيهِ البَلاغِيُّونَ تَأْكِيدَ المَدْحِ، بِما يُشْبِهُ الذَّمَّ، وهَذا القَوْلُ هو الصَّحِيحُ في الآيَةِ، واخْتارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ.»[1].

فإذا ما سأل الداعية أن يُحفظ في قرابته فليس هذا من قبيل الأجر!؛ ولكن أين الحمية التي بها يتدافع بنو الأهل والقرابة والرحم فيما بينهم.

ثم جاء الاستثناء أيضا في قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾ {الفرقان:57} وهذا من سبيل الاستثناء المنقطع كذلك؛ فيكون المعنى ـ على ما ذكره الطبري ـ: «لكن من شاء منكم اتخذ إلى ربه سبيلا "طريقا" بإنفاقه من ماله في سبيله، وفيما يقربه إليه من الصدقة والنفقة في جهاد عدوّه، وغير ذلك من سبل الخير»

(1) ضواء البيان؛ ج7، ص: (70).

ويزداد الأمر وُضوحا عندما يكون الأجر ـ إن كان ـ للمدعوين وليس للداعي؛ فقد قال ﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ﴾ {سبأ: 47}. و"ما" في هذه الآية إما أن تكون شرطية أو موصولة أو نافية؛ ويوضِّحُ معنى الآية على هذه الاحتمالات القاسميُ عليه رحمة الله تعالى في محاسن التأويل فيقول: «أيُّ شَيْءٍ سَأَلْتُكم مِن أجْرٍ عَلى الرِّسالَةِ فَهو لَكم. والمُرادُ نَفْيُ السُّؤالِ رَأْسًا، وإمْحاضُ النُّصْحِ كِنايَةً، لِأنَّ ما يَسْألُهُ السّائِلُ، يَكُونُ لَهُ، فَجَعَلَهُ لِلْمَسْؤُولِ عَنْهُ؛ كِنايَةً عَنْ أنَّهُ لا يَسْألُ أصْلًا. و(ما) عَلى هَذا **شَرْطِيَّةٌ**. وجُوِّزَ كَوْنُها **مَوْصُولَةً** مُرادًا بِها ما سَألَهُمْ: في سورة {الفرقان:٥٧} وفي سورة {الشورى:٢٣} واتِّخاذُ السَّبِيلِ إلَيْهِ تَعالى مَنفَعَتُهُمُ الكُبْرى، وقُرْباهُ عَلَيْهِ السَّلامُ قُرْباهم. وجُوِّزَ أيْضًا كَوْنُها **نافِيَةً**. وقَوْلُهُ: ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ جَوابُ شَرْطٍ مُقَدَّرٍ؛ أيْ: فَإذا لَمْ أسْألْكم فَهو لَكُمْ»[1].

وبعدُ: فهذا هو الأجر الذي أضنى كثيرا من الدعاة البحثُ عنه، ولكنهم بحثوا عنه في غير موطنه أو عند غير مالكيه. فالأجر من الله تعالى لا من الآخرين؛ وإن كان فهو لهم وليس للداعية.

واعلم أخي وحبيبي أنك إذا ما كنتُ عفيفاً أو مُتعففا .. كنت آمراً وناهياً.

عاشراً: ليس شرطاً أن ترى أثراً لدعوتك.

أخي وحبيبي الداعية؛ أقول .. واسمع قولي تكرُّماً:

قد يتسلل إلى شِغاف قلبك ومسالكه ومشاعره شعورٌ من اليأس والأسف؛ على أن لا ترى أثراً لدعوتك وإقبالاً على موعظتك؛ فتقول: ما الذي فعلناه بالخطب والدروس والمحاضرات والمؤلفات والندوات واللقاءات والمحاورات والمناظرات .. وما عساها أن تنفع؛ أو وما عساها أن تؤثر وقد أعرض الناس، وأصبحوا في لهو وضحك، بل وفي سُخرية حتى ممن يدعوهم إلى ما فيه نجاتهم، وما هو النفعُ المرجو من ورائها وقد

(1) محاسن التأويل؛ للقاسمي؛ ج14، ص: (4966، 4967).

انفض الناس إلى الأفلام والمسلسلات والمسرحيات والمباريات وأنواع الملاهي ..، وما هو الأثر الذي يُرجى من قوم اشتروا بأنفس ما يملكون من الأعمار والأموال ما يُسْعِدُ أرواحهم وإن كان على حِساب دينهم!!.

أخي: أقول لك.. (**لا عليك**).

فأنت في بادئ الأمر ما تحركت أو تكلمت لأجلهم؛ وإنما ابتغاء مرضات الله تعالى وإخلاصا له عز وجل، وإن لم تكن كذلك فأنصحك وُجوبا أن تُعدِّل ذلكم المسار وأن تصحح فيه النِّية كي لا تكون كالشمعة التي أحرقت نفسها ليستضيء غيرُها بنورها. فأنت تسعى في القيام بما أوجب الله عليك، وتسعى كذلك في استكمال إيمانك، وفي فِكاك رقبتك من أسْر شهواتها وملذاتها. هذا أولاً.

وثانياً: مهما بلغ بك من الأمر فلن تكون كما حدث مع النبي صلى الله عليه وسلم حين قال: (بل أرجوا أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ولا يُشرك به شيئا). فلماذا العجلة؟ فلعل في ذريتهم من يقوم بأمرك وبدعوتك إذ قد تولى عنك آباؤهم، فهذا عِكرمة بن أبي جهل، وعبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول رضي الله عنهما.

وثالثاً: لماذا نحصر الأثر الذي يَجنيه الدعاة في قانون المادة والمحسوسات؟. بمعنى: هل لأجل أن يطمئن الداعية إلى أن دعوته لها أثر؛ يعتقد أنه: (إذا ما حدثهم عن الصلاة اكتظَّت المساجد بالمصلين وإذا حدّثهم عن الزكاة هرعوا إلى الفقراء يتصدقون عليهم، وإذا حدثهم عن الصيام والحج كذلك ..) ليس الأثر هكذا يا عزيزي:

فكم من إنسانٍ كان صاحب شبهة فكشفها الله عنه بآية أو حديث أو موعظة سمعها منك؟

وكم من إنسانٍ هداه الله تعالى الطريق فترك المعاصيَ وترك طريق الغواية وذهب إلى ربه ومولاه بآية تردد صداها في أذنيه وقد سمعها منك؟

وكم من إنسانٍ ذرفتْ عيناه خشيةً لله تعالى، ووجل قلبه، وسكنت نفسه واطمأنتْ؛ لموعِظة سمعها منك؟

وكم من امرأةٍ أو فتاة أو أمٍّ أو أرملةٍ أو زوجةٍ أو جدَّةٍ في خدرها سمعت حديثك فأقامتْ دينها وعبادتها وقلبها على تلك النصيحة؟.

وكم من رجلٍ تحمَّل من هموم الحياة ونكدها وأثقلتْ مطالبُها كتفيه؛ فسمع من تلاوتِك آيةً كانت له فألاً حسنا أذهب عنه بعض ما يجد؟.

وكم من إنسانٍ سمع من حديثك أو تفسيرك أو من أحكامك الفقهية أو أخبارك التاريخية؛ فنقل ما سمعه هذا إلى أهله وذويه فاستفادوا منه أكثر مما استفدتُّه أنت أو هو؟.

وكم من موعظة أسهرتَ ليلك فيها، وأظمأْت فيها نهارك، وأجهدت فيها فِكرك وذهنك، وجمعتَ فيها أقوال الأئمةٍ وتقعيداتهم؛ فخرجت منك مخرجا حسناً كانت سببا في إحسان الظن بإخوانك الدعاة، وقدر الله تعالى أن تُنقل من خلال تلك الوسائل الحديثة فكانت لك صدقة جارية استفاد منها الحاضرون ومن يأتي بعدهم فكانت من قبيل العلم النافع الذي ينتفع بها المرء بعد موته.

وكم من كلمةٍ كتبتَها أو تكلمتَ بها فطارتْ وانتشرتْ وبلغت مبلغاً لم يخطر لك على بال فانتفع بها القاصي والدَّاني ولم تر هذا ولا ذاك، ولم تسمع أنت دعواتٍ في جوف الليل من أصحابها اندفعتْ من قلوبهم فتحرَّكت بها ألسنتهم ثناءً ودعاءً **لك**.

أخي عندما نحصر أثر الدعوة في الجانب المادّي المحسوس الملموس فقد ضيقنا واسعا وحجرنا على أنفسنا سهلاً ووضعنا فوق صدورنا جبالا من الحزن؛ فوجد في ذلك الشيطان سبيلَه إلى قلوبنا نعوذ بالله تعالى من كيده ونفثه وهمزاته.

علينا أن نعملَ وفقط. دون النظر إلى الأثر وليكن في خَلَدنا (أثرٌ وقاعدةٌ) وبهما وبما ترتَّب عليهما أختم شمعتي تلك:

فأمَّا الأثر؛ فهو ما أخرجه أحمد في مسنده[1]: (تجيءُ الأعمالُ، فتجيءُ الصلاةُ فتقول: يا ربِّ! أنا الصلاةُ، فيقول: إنكِ على خيرٍ، فتجيءُ الصدقةُ، فتقول: يا ربِّ! أنا الصدقةُ، فيقول: إنكِ على خيرٍ، ثم يجيءُ الصيامُ، فيقول: يا ربِّ! أنا الصيامُ، فيقول: إنكَ على خيرٍ، ثم تجيءُ الأعمالُ على ذلكَ، يقول الله تعالى: إنكِ على خيرٍ، ثم يجيءُ الإسلامُ فيقول: يا ربِّ! أنتَ السلامُ وأنا الإسلامُ، فيقول الله تعالى: إنكَ على خيرٍ، بكَ اليومَ آخذُ، وبكَ أُعطي، قال الله تعالى في كتابهِ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾).

فالإسلام؛ ذلك الدين الذي يأخذ الله سبحانه وتعالى به ويُعطي. وهو الدين الذي سيُسأل عنه المسلم في قبره؛ فهل أعددنا إجابة بين يدي هذا السؤال؟ فما الذي قدمناه نحن معاشرَ الدعاة؟ وهل سنُؤخذ بجريرتنا وتقصيرنا تجاهه؟ أم هل نستحق عطاء الله سبحانه لأوليائه الذين خدموا دينهم بأرواحهم وأبدانهم وأموالهم؟.

وأما القاعدة؛ فقد ذكرها الماوردي في كتابه أدب الدنيا والدين وهي: «اعْلَمْ أَنَّ مَا بِهِ تَصْلُحُ الدُّنْيَا حَتَّى تَصِيرَ أَحْوَالُهَا مُنْتَظِمَةً، وَأُمُورُهَا مُلْتَئِمَةً، سِتَّةُ أَشْيَاءَ هِيَ قَوَاعِدُهَا، وَإِنْ تَفَرَّعَتْ، وَهِيَ: دِينٌ مُتَّبَعٌ وَسُلْطَانٌ قَاهِرٌ وَعَدْلٌ شَامِلٌ وَأَمْنٌ عَامٌّ وَخِصْبٌ دَائِمٌ وَأَمَلٌ فَسِيحٌ... ثم قال: وَأَمَّا الْقَاعِدَةُ السَّادِسَةُ: فَهِيَ أَمَلٌ فَسِيحٌ يَبْعَثُ عَلَى اقْتِنَاءِ مَا يَقْصُرُ الْعُمُرُ عَنْ اسْتِيعَابِهِ وَيَبْعَثُ عَلَى اقْتِنَاءِ مَا لَيْسَ يُؤَمَّلُ فِي دَرَكِهِ بِحَيَاةِ أَرْبَابِهِ. وَلَوْلَا أَنَّ الثَّانِيَ يَرْتَفِقُ بِمَا أَنْشَأَهُ الْأَوَّلُ حَتَّى يَصِيرَ بِهِ مُسْتَغْنِيًا، لَافْتَقَرَ أَهْلُ كُلِّ عَصْرٍ إِلَى إِنْشَاءِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنْ مَنَازِلِ السُّكْنَى وَأَرَاضِي الْحَرْثِ، وَفِي ذَلِكَ مِنْ الْإِعْوَازِ وَتَعَذُّرِ الْإِمْكَانِ مَا لَا خَفَاءَ بِهِ.»)[2].

وأقول على هذه القاعدة قياسا ـ وهو من القياس الأدْون ـ؛ إذا كان هذا هو حال صلاح الدنيا فينبغي على أهل الدين تنزُّلاً أن يكونوا كذلك في دعوتهم؛ فمثالُهم

(1) برقم: (8727). ولكنه منقطع . يُنظر تخريج الألباني على مشكاة المصابيح؛ برقم: (٥١٥٢)

(2) أدب الدنيا والدين؛ للماوردي، ص: (133)، وما بعده.

المعروفُ المشهورُ في ذلك "كم ترك الأول للآخر؟" حتى يكون بُنيان الإسلام في كل عصرٍ من العصور في أبهى صُورِه لا أن يكون مُشوَّها بأيدي أتباعه، ونحن نستشعر جميعا أثر جهود قد وارى الترابُ أصحابَها؛ وأظُنُّ أن ما بلغتْهُ جهودُهم من الأثر لم يكن في خاطرهم ولا في بالهم وإنما هو الإخلاص، وقد كانت جهودهم كذلك في معالجات طرأتْ احتاجها أهل زمانهم فلم يقفوا مكتوفي الأيدي وإنما تحرَّكوا فأنتجوا!! فهل زماننا هذا لم يعُد فيه لأهل الدين من حاجة أم ما زالت الحاجة إليهم قائمة؟ وإن لم يستشعر الناس حاجتهم لِحملة الدين وحُرَّاسه فما على أهل الدين إلا أن يتمسكوا بما هُم عليه من الثغور؛ إلى أن يستفيق الناس من غفلتهم ورقدتهم.

وعلى كلٍّ فأين جهود أصحاب الحديث، وأين جهود فقهائنا وأئمتنا، وأين مَن تزدان بمؤلفاتهم وجهودهم مكتبات العالم، والعلماء، وطلبة العلم، في كل بقعة أو رقعة؟. فما زالت هذه الآثار يعود نفعُها إلى أصحابها كاملاً غير منقوص. أسأل الله تعالى أن يُلحقنا وإيَّاهم بحبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم؛ وحسبي وحسبُك قول الله تعالى لنبيه وخليله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًاۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُۗ﴾. {الشورى:48}.

حادي عشر: «المشغول لا يُشغل.

وشُغل المشغول لا يجوز بخلاف شغل الفارغ، والاشتغال بغير المقصود إعراض عن المقصود، والفرض أولى من النفل»[1]، و«إذا تزاحمت المصالح قُدِّم الأعلى منها فيُقدَّم الواجب على المُستحب والراجح مصلحة على المرجوح وإذا تزاحمت المفاسد واضطر إلى واحد منها قُدِّم الأخف»[2].

(1) القواعد الفقهية وتطبيقاتها في المذاهب الأربعة؛ د/ محمد مصطفى الزحيلي. (القواعد الكلية في المذهب الشافعي رقم: 186، 191، 196) دار الفكر دمشق ط: الأولى 1427هـ

(2) القواعد والأصول الجامعة والفروق والتقاسيم البديعة النافعة عبد الرحمن بن ناصر السعدي. القاعدة رقم: (33)، ط: المدني القاهرة (1375هـ).

هذه عبارات من الدَّرس الفقهي الأصولي؛ ينبغي أن لا تغيب عن أذهان الدعاة ولا عن واقع الدعوة؛ فيطبقونها في حياتهم العلمية والعملية، فالاهتمام بالمفضول من الأقوال والأفعال والأحوال في وُجود الفاضل منها أمرٌ تأباه النفوس الزكية والهمم العلية.

فحسبك أن تكون داعية .. فلستَ حاكما أو قاضيا أو طبيبا أو مهندساً أو مرشدا نفسياً، أو مصلحا اجتماعياً، .. فوظيفتك الأساسية التي حُبِسْت عليها وكُفِيتَ المؤونة من أجلها ـ ونسأل الله الكفاية ـ؛ هي في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ {الجمعة}.

ولستُ بهذا صابغاً لِعملك بالصبغة العلمانية التي تقول دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله؛ وإنما أقول تفطن لموقع قدميك، واحذر على ثغر أنت عليه، فلا يؤت الإسلام من قِبلك، فأعداء الإسلام لا يُنَغِص عليهم عيشهم ولا يؤرِّق أفكارهم أمرٌ كالأمر الذي أنت عليه من تعليم الناس القرآن والسنة النبوية والأحكام الفقهية، والسيرة النبوية، وكذلك يؤرِّق مضاجعَهُم أن يروا منك وعظاً على المنابر والتفافاً للناس من حولك؛ وهذه خلاصةٌ ذُكِرتْ عن أحد الأعلام المشاهير في المغرب الإسلامي العربي والذي كان قد كوَّن جمعيةً إسلامية مع إخوانه الدُّعاة يُواجه الاستعمار الفرنسي في بلاده من خلالها وهو الشيخ البشير الإبراهيمي: "**فمن إشارات الشيخ الطريفة أنه كان يرى الاستعمار الفرنسي يُبدي أحياناً مُرونةً مع الأحزاب السياسية لكنه يتصلبُ تجاه جمعية العلماء**؛ برغم أن الأولى صريحة في السياسة، والثانية جهودها علمية أخلاقية أصالة، ولم يُفوِّت الشيخ التقاط هذه المفارقة والاحتجاج بها على بعض المُنتسبين للأحزاب السياسية؛ كما يقول الشيخ رحمه الله تعالى: «وإن الاستعمار لأفقه وأقوى زكانة وأصدق حدساً من هؤلاء حين يُسمِّي أعمال جمعية العلماء سياسة؛ وما هي

بالسياسة في معناها المعروف، ولا قريبة منه، ولكنه يُسمِّيها كذلك لأنه يعرف نتائجها وآثارها وأنها اللبابُ وغيرَها القشورُ»"[1].

فاشتغالك أخي بغير الدعوة أو بغير متطلباتها ومستلزماتها إنما هو اشتغال بغير المقصود وإعراض عنه وتقديم للمرجوح على الراجح لا سيما في هذا الزمان.

نفعني الله تعالى وإياك بما كُتِب وذُكِر.

والسلام.

(1) الماجريات؛ إبراهيم بن عمر السكران؛ ص: (136) وقد نقل من آثار البشير الإبراهيمي: (ص: 3/ 65).

أخي:

قد طُفتُ بك هذا التطواف، وتجولت بك هذا التجوال في ميدانٍ قد اختصنا الله تعالى به واصطفانا؛ وقد ذكرتُ لك كما رأيتَ بعضَ العقبات التي تقف في وُجوهنا فكانت كالغمامة التي تحجب ضوءَ الشمس أو نورَ القمر، فما أن يبتهل المسلمون ويتوسَّلون بالدعاء وبالأعمال الصالحة مُعلقين قلوبَهم بخالقهم وبارئهم كي يكشف عنهم ظلماتِها إلا وتزول أو تنكشف؛ فيعود نورُها وضوؤُها إلى سابق عهده، وقد استعنت اللهَ تعالى في وضع شموعٍ دعوية بين يديك؛ عساها تنفع فيما نُعانيه أو نُكابده من مشقَّات في هذا السبيل.

والمرجُوُ منك:

أن لا تبخل بالنُّصح إذا ما بدا الزلل، وأن تُبادر مُسرعاً إذا ما رأيت الخلل؛ فسبحان من جعل العِصمة لكتابه فكان محفوظا من العِلل.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

كتبه:

أبو محمد

أحمد محمد حلمي عبده

(جمهورية مصر العربية ـ محافظة الدقهلية ـ السنبلاوين)

(ahmedhelmey1983@gmail.com)

وكان الانتهاء من مطالعته ومراجعته قُبيل مغرب يوم الأحد غُرة شعبان لعام ألف وأربعمائة واثنتين وأربعين من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

فهرس الموضوعات

المقدمة	1
التمهيد	5
المطلب الأول: التعريف بمفردات البحث.	5
المطلب الثاني: أهمية هذا الموضوع.	10
القسم الأول:	13
التحديات المعاصرة التي تواجه الدعوة الإسلامية.	15
المبحث الأول: التحديات الإقليمية.	17
المطلب الأول: ذوبان الشخصية الإسلامية في غيرها.	18
المطلب الثاني: العزوف عن المساجد.	27
المطلب الثالث: نُدرة الكوادر والمرجعيات الدِّينية.	36
المطلب الرابع: الأفكار الهدَّامة.	41
1ـ الإلحاد.	43
2 ـ التكفير.	49
3 ـ الإرجاء.	51
4 ـ التصورات الخاطئة عن الإسلام.	55
المطلب الخامس: الجهل والتخلف.	56
المطلب السادس: الإعلام .. وتشكيل الرأي العام.	60
المطلب السابع: شبهات المُشككين حول الإسلام ومناهجه.	63
المطلب الثامن: الدولة الدينية (الوصل الثيوقراطي).	67
المطلب التاسع: الوهن .. حبُّ الدنيا وكراهية الموت.	69
المطلب العاشر: التقليد الأعمى للمتبوعين.	72
المطلب الحادي عشر: ضعف اليقين بالموروث الشرعي.	75
المبحث الثاني: التحديات العالمية.	78
المطلب الأول: العولمة (الدعوة إلى العالمية).	78
المطلب الثاني: الإسلاموفوبيا (رهاب الإسلام)	82
المبحث الثالث: التحديات المتعلقة بشخصية الداعية.	87

المطلب الأول: الفقر العلمي العام	88
المطلب الثاني: عدم القدرة على التعامل مع النوازل والمستجدات المعاصرة	90
المطلب الثالث: الفقر المادي	92
المطلب الرابع: انعزال الداعية عن إخوانه في العمل الدعوي.	94
القسم الثاني	97
المواجهة .. وكيفيتها.	99
بين يدي المواجهة	101
المبحث الأول: الدَّولة في مواجهة التحديات.	105
المطلب الأول: سنُّ القوانين والتشريعات.	106
المطلب الثاني: في المجال الإعلامي.	110
المطلب الثالث: في المجال التعليمي.	112
المبحث الثاني: الخطاب الدَّعوي في مواجهة التحديات.	116
المطلب الأول: في النهوض بالخطاب الدعوي.	116
المطلب الثاني: ركائز للخطاب الدعوي.	119
المطلب الثالث: القائمون على العمل الدعوي (وزارات الأوقاف)	126
المبحث الثالث: رعايا الدولة في مواجهة التحدِّيات	132
المطلب الأول: تحقيق القدوة الحسنة.	132
المطلب الثاني: انظروا عمن تأخذون دينكم.	134
المطلب الثالث: ولا تفرقوا فتفشلوا وتذهب ريحكم.	136
المطلب الرابع: حتى ترجعوا إلى دينكم.	137
شموع دعوية	141
أولاً: البيت المصون .. بيوت الدعاة.	143
ثانياً: لا تنتصر لنفسك.	147
ثالثاً: الداعية قدوة مُبلِّغ وإن لم يتكلم.	152
رابعاً: الداعية قبل المسجد.	155
خامساً: طبيعة الحياة المادية للدعاة.	158
سادساً: الإمام ومُشاركته أهل المسجد وعدم استئساده عليهم.	162
سابعاً: تفطَّن لما يُدفع في طريقك من الشوك والأذى.	164

ثامناً: مُقارنة بين ضحيتين (قديمة وحديثة).	**170**
تاسعاً: بئس الفعل (اتخاذ الدعوة سُلما للدنيا).	**174**
عاشراً: ليس شرطاً أن ترى أثراً لدعوتك.	**180**
حادي عشر: المشغول لا يُشغل.	**184**
فهرس الموضوعات.	**189**

تمَّت بخير

والحمد لله رب العالمين

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت

أستغفرك وأتوب إليك.